

زکی مبارک

عَبْقَرِيَّةُ الشَّرِيفِ الرَّضِيِّ

دارالبحیثہ
بیروت

زکری مبارک

عَبْدُ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مرکز تحقیقات کتب و تاریخ علوم اسلامی

الجزء الثاني

دار الجیل

بیروت



مجموعه الجفوق بمفردة

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الأصدقاء والأعداء

في حياة الشريف الرضي

أيها السادة

رأيتم فيما سلف ان الشريف الرضي كان يهجم على أقربائه في بعض الاحيان ، وعرفتكم تفسير هذه الظاهرة النفسية ، فقد كان الشريف رجلا موصول الأواصر بالحياة الاجتماعية والسياسية كان رجلا فعل *Homme d'action* وكانت هذه الصفة تمنحه الفرص الثمينة لامتحان الرجال .

مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث

ولكن هل معنى ذلك انه لم يكن يعرف المودة والقرابة إلا لغاياته

نفعية ؟

لا ، ولكن معناه أنه كان ينتظر من الصديق والقريب أن يكون ساعده الأمين في جميع الأحوال ، وقد كانت المكارة لا تغزوه إلا من الثغور السياسية والاجتماعية ، فكان من المعقول أن تكون المناصرة في حروب المجتمع هي أساس ما يرجوه من الاقارب والأصدقاء .

ويمكن الحكم بأن الشريف تفرد من بين الشعراء بالاسراف في الكلام عن العدو والصديق ، كما تفرد بالكثير من شرح العواطف البنوية ، وهذه نوازع يرجع بعضها إلى بعض ، وان اختلفت أصولها في مشاعر الوجدان . وإلحاح الشريف في الكلام عن العداوة والصداقة يشعرنا بأنه كان في نفسه أعنف عدو ، وأكرم صديق .

وأشعاره تحدثنا بأنه كان يعرف في نفسه طهارة القلب وذنوبه الروح،
وإنه ليخاطب أحد أصدقائه فيقول:

سألتك بالمهد عند المشيب وها أنا في حلية الأرمد
وإني إذا لم أجد ناصراً وجدتك أنصر لي من يدي
خذ الوقت واعلم بأن اللبيب يأخذ من يومه للغد
فما ينفع المرء بعد الموت ن قول النوادب لا تبعد^(١)
على أنني تحفة للصديق يروح بنجواي أو يفتدي
وإني لئانس بي الزائر ن أنس النواظر بالإثم^(٢)
تغمض لي أعين الحاسدين كالشمس في ناظر الأرمد
فلا دخل البعد ما بيننا ولا فك منا يداً عن يد
وطول أيامنا بالقبض في ظل عيش رقيق ندي
وهذه القطعة صريحة بأنه كان يعرف في نفسه بشاشة القلب وبهجة
الروح

وهذا الشعور هو الذي كان يدفعه إلى التأم لغربة قلبه بين القلوب
كان يقول :

كفى حزناً أني صديق وصادق ومالي من بين الأنام صديق
فكيف أرىغ الأبعدين لخلعة وهذا قريب غادر وشقيق
وكان يتلهم إلى الصديق المنشود فيقول :

من لي بغرة صاحب لا يستطيع عليه عاب^(٣)
ما حارب الأيام إلا كان لي وله الغلاب

(١) من البعد وهو هنا الهلاك (٢) الإثم بكسر الهمزة هو الكحل

(٣) العاب لغة في الميب

هيات أطلب ما يطو ل به بعد واقتراب
قل الصحاب فان ظفرت بنعمة كثر الصحاب
من لي به سمحاً إذا صفرت من القوم الوطاب^(١)
من لي به يا دهر والأيام كالحة غضاب^(٢)

وهذه من نقات القلوب الظهاء إلى موارد الود الرفيق.

وكان الشريف يطرب لاجتماع اخوانه عنده ، ويرى أنسه بلقائهم.
من فرص العيش، وكان يرى إدارة الاحاديث شبيهة بإدارة الكؤوس.
كان يقول وقد اجتمع في بيته خمسة من الاصفياء :

نظمتنا نظام العقود وألفة وكان لنا البقي سلك نظام
أخي وابن عمي وابن حمد فانه تباريح قلبي خالياً وغرامي
وسادسنا الازدي ما شئت من أبي

جواد ومن جد أغر هام

أحاديث تستدعي الوقور إلى الصبا

وتكسو حلیم القوم ثوب عرام

فنضحني لها طربي بغير ترنم ونسي لها سكري بغير مدام^(٣)

تعالوا نول اللاتين تصامماً ونعص على الايام كل ملام

ونفتنم الأوقات إن بقاءها كمر غمام أو كحل منام

من الله أستبقي صفاء يضمننا وطاعة أيام ودار مقام

وأستصرف الاعداء عنافاننا مذاليوم أغراض لكل مرام

وكان الشريف يعرف جيداً كيف يحفظ عهد الصديق، وكان له

(١) صفرت : خلت ، والوطاب الالوعية (٢) كالحة : عابسة

(٣) طربي جمع طربان وهو كالطروب

أصدقاء يواسونه أيام البؤس ، وفي أحدم يقول :

يا ذاكر النعماء إن نسيت ومجدد المعروف إن درسا
ومنبه الآمال إن رقدت بالطول لا أغني ولا نعسا
نصل إذا وقف النصول مضي جبل إذا اضطرب الجبال درسا
لله بحر ما هتفت به حتى استهل علي^(١) وانبجسا^(١)
أجمت جته ففاض بها يطا الربا ويبلل اليبسا^(٢)
زخرت غواربه إلي^(٣) ولم يقل الرجاء لعلماء وعسى^(٣)
وأغر مختلس مكارمه إن الكريم يرى الندى خلسا
غرس الصنائع ثم عاد به عود الندى فسقى الذي غرسا
وله عبارات جيدة في تصوير الوداد ، كان يقول :
لقد حل ودك من تمهقني بحيث يقيل الاسى والأسا^(٤)
وكان يقول :

فلقد حلت من الفؤاد محلة في حيث ليس من الوري لك جار
فائن وفيت فما الوفاء ببدعة إن الوفاء لذي الصفاء شعار
ولئن غدرت ولا عجيب إنه بعض الزمان بيعضه غدار
نفسى فداء الغادرين تباعدوا أوقاربوا أو أنصفوا أو جاروا
وقد أهدى إليه أحد أصدقائه رداء فلم يقبله ، فعتب عليه ذلك الصديق

(١) انبجس الماء سال وتدقق .

(٢) الجمة بضم الجيم معظم الماء ، والربا جمع ربوة وهي المكان المرتفع .

(٣) غوارب الماء أعالي موجه .

(٤) الاسى بفتح الهمزة الحزن ، والاسا جمع أسوة بضم الهمزة وهي العزاء ،

ويقيل : ينزل ويحل .

فكتب اليه الشريف :

عقيد الملا لازلت تستعبد الملا وتعتق منها رق كل أسير^(١)
لئن خف من ضافي ردائك عاتقي فودك يخطو في رداء قتييري^(٢)
ستعلم أن الثوب يدثر رسمه ورسم الهوى في القلب غير دثور^٣
فلا تشمتن الحاسدين فسرهم يشف لظني من وراء أمور
وقد يشتاق الشريف إلى إخوانه عند البعد ويحن اليهم أرق الحنين ،
ويظهر أن بغداد على خشونتها في ذلك العهد لم تبخل عليه كل البخل ، فكان
له فيها إخوان أوفياء ، وإلا فكيف صح له أن يقول :

أخلائي ببغداد حنى دونكم الرمل
وحالت دون لقياكم زحاليق النقا الزل^(٤)
لقد كنت شديد الصن أن ينقطع الحبل
وأن ينصدع الشعب الذي لوثم والشمل^(٥)
ولكني رعيت الارض ما طاب لي البقل
وعجلت النوى لما فشا اللأواء والازل^(٦)
نداماي على اهمسقى عهدكم الوبل
وحياكم برياه جديد النور مخضل^(٧)

(١) العقيد والمعاهد هو المعاهد ، أي الذي يعهد الشيء ويلزمه ، فيقال عقيد

الكرم وعقيد الملا أي الذي يلزم هذه الخلال .

(٢) الضافي: الطويل ، والقتير: الشيب (٣) يدثر: يبلى

(٤) في بعض نسخ الديوان (القنا) وفي بعضها (اللقا) وقد آثرنا كلمة (النقا)

والزل بالضم المكان يزل فيه ، يريد وعورة الطريق .

(٥) الشعب بالفتح معناه هنا الجمع (٦) اللأواء : الشدة ، والازل : الضيق .

(٧) النور بفتح النون هو النوار بضمها وهو الزهر أو الابيض منه ، والمخضل

المندى .

تذكرتكم والدمع لا وبل ولا طل
فما أخلفكم جار من الماقين منهل
وفي الايام ما يسلى ولكن أين من يسلو^(١)

أيها السادة

ذلك إحساس الشريف بقيمة الصداقة والاخوة ، ولكن هل هذا كل ما يملك ذلك القلب الطروب ؟ هيهات ، ففي قلب الشريف بقايا من العاصف ، الشوق إلى الاصدقاء الاصفياء ، وهو شوق لا نعرفه في هذه الايام ، لاننا نعيش في زمن عابس متجهم لا نكاد نرى فيه الناس حتى تتخير الاصدقاء ، في قلب الشريف بقايا من الحنان لا يعرفها غير ذلك القلب ، وأمثال ذلك القلب ، إن كان له أمثال .

هل سمعتم باخبار أبي الحسن البقي^(٢) ، إنه كاتب من كبار الكتاب الذين أنجبهم العراق في القرن الرابع ، وقد نزلت مودته إلى الاعماق من قلب الشريف الرضي ، وحسبكم أن تعرفوا أن آخر شعر نظممه الشريف الرضي هو أبياته في رثاء ذلك الصديق ، وأكاد أجزم بان موت أبي الحسن البقي هو السبب في موت الشريف الرضي ، يشهد ذلك قوله في ذلك الرثاء :

ما للهموم كأنها نار على قلبي تشب
والدمع لا يرقى له غرب كأن العين غرب^(٣)
لوداع إخوان الشبا ب مضت مطاياهم تخب

(١) في الديوان (مايسلو) وهو تحريف .

(٢) الغرب عرق في العين يسيل منه الدمع ، والغرب أيضاً الدلو العظيمة ،

وفي الست جناس .

فلرقتهم والعين عين بعدهم والقلب قلب^(١)
ما كنت أحسب أنني جلد على الارزاء صعب
أو أنني أبقى وظهري بعد أقراني أجب^(٢)
لا الوجد منقطع الوقو دولا مزار الدارغب^(٣)
ما أخطأتك النائبات إذا أصابت من تحب

وقد صحت فراسة الشريف ، فان النائبات لم تخطئه حين أصابت
من يحب ، فمات بعدموت ذلك الصديق المحبوب بأشهر معدودات ، وغربة
القلوب تقتل الرجال .

فان سألت : وأين شعره في التشوق إلى ذلك الصديق ؟ فإننا نقدم اليكم
البائية النفيسة التي نعرف بها كيف تسري المودة في القلب مسرى السحر
في العيون ، وتجول في شعاب الروح كما يجول الصبا في قدود الملاح ،
وتدخل على أصحاب الاذواق دخول البشري بالامن بعد الخوف ، وأنس
اللقاء بعد وحشة الفراق ، وتصافح الانفس مصافحة الاماني العذاب ،
وتعاقر أفواه المنشدين فتذكرهم معاقرة الرضاب ، قصيدة لا يقولها غير
الشريف الرضي ، ولا يقدر قيمتها غير أرباب القلوب .

هات يا أبا الحسن ما قلت في أبي الحسن ، فقد اشتقنا اليه واليك :
أبا حسن أتحسب أن شوقي يقلُّ على معارضة الخطوب
وأنتك في اللقاء تهيج وجددي وأمنحك السلو على المغيب
وكيف وأنت مجتمع الاماني ومجنى العيش ذي الورق الرطيب

(١) العين هي الباصرة ، وهي أيضاً ينبوع ، والقلب الفؤاد وهو ايضاً
اسم ماء ، وبمراعاة الجناس يفهم البيت .
(٢) من الجيب بالتحريك وهو قطع السنام . (٣) المزار القلب هو القريب .

يهش لكم على العرفان قلبي هشاشته إلى الزور الغريب^(١)
 والفظ غيركم ويسوغ عندي ودادكم مع الماء الشروب
 ويسلس في أحكفكم زمامي ويعسو هند غيركم قضبي^(٢)
 ولي شوق اليك أعلّ قلبي ومالي غير قربك من طيب
 أغار عليك من خلوات غيري كما غار الحب على الحبيب
 وما أحظى إذا ما غبت عني بحسن للزمان ولا بطيب
 أشاق إذا ذكرتك من بعيد وأطرب إن رأيتك من قريب
 كأنك قدمة الأمل المرجى عليّ وطلعة الفرج القريب
 إذا بشرت عنك بقرب دار نزا قلبي اليك من الوجيب^(٣)
 مراح الركب بشر بعد خمس ببارقة تصوب على قليب^(٤)
 أسالم حين أبصرك الليالي وأصفح للزمان عن الذنوب
 وأنسى كل ما جنت الرزايا عليّ من الفوادح والندوب^(٥)
 تميل بي الشكول اليك حتى أميل إلى المقارب والنسيب^(٦)

- (١) الزور بفتح الزاي : الزائر (٢) يعسو : من قولهم عسا النبات إذا
 يبس (٣) نزا القلب وثب ، والوجيب : الخفوق .
 (٤) المراح بكسر الميم هو النشاط والتبختر ، والقليب البئر ، والمعنى أنه
 يفرح حين يبشر بقرب صديقه كما يفرح الركب الظاميء حين يبشر بقرب الماء
 بعد ان يطول ظمأه خمسة أيام ، وهو خيال بدوي .
 (٥) الندوب جمع ندب بفتح النون وهو الجرح .
 (٦) في الديوان (الشكوك) وهو تحريف ، والشكول الامثال ، قال المتنبي :
 ليالي بعد الظاعنين شكول ... وقد وردت صواباً في الدالية التي رثى بها الصابي
 (فقدت ملامة الشكول بفقده) .

وتقرب في قبيل الفضل مني على بعد القبائل والشعوب
 أكاد أريب فيك إذا التقينا من الانفاس والنظر المريب
 وأين وجدت من قبلي شباباً يحن من الغرام على مشيب
 إذا قرب المزار فانت مني مكان الروح من عقد الكروب
 وإن بعد اللقاء على اشتياقي ترامتنا بالحاظ القلوب^(١)

وهذا القلب الألوفاً كان يحمل الشريف ارضي على انتهاب أيام
 التلاقي خوفاً من عدوان الزمان، وأنا لنراه يتعجل لقاء بعض اخوانه
 فيقول :

أخي ما اتسع الزمان على جماعتنا وضاقا
 الا ليعقبنا اجتمعا بالنوائب وافتراقا
 سابق فليس تنال أغراض المنى إلا سباقا
 من قبل أن ترد الخطوب ب على مودتنا طراقا^(٢)
 فازيد بعداً من لقنا نك كلما ازددت اشتياقاً
 وأراك تمنحني الصدو د وبعد لم أنو انطلاقاً
 إن كان ذا خوف الفرا ق فقد تعجلت الفراقا

وهذا القلب الألوفاً هو الذي كان يقفه موقف الصابر المتخضع وهو
 يعاني تقلبات القلوب، وإلا فكيف جاز لمثله على إباته أن يقول :
 عذيري عن ذم عهدي وقد نبا مراراً وقلبي وادع لا ينمه
 تجرم لما لم يحد لي زلة وأقصدني باللوم والجرم جرمة^(٣)

(١) في مثل هذا المعنى يقول التوحيدى : إذا تلاحظنا تساقينا كأس المودة
 وإذا تصامتنا تناجينا بلسان الثقة . انظر ص ١٤٢ من الجزء الثاني من مکتاب
 (النثر الفني) . (٢) الطراق بالكسر التتابع . (٣) تجرم : تجني .

تعمدت بعدي عنه من غير سلوة ليعلمني يوم النوى كيف طعمه
وأجمته لاعن غناء وإنما لأشربه في حر خطب أجه^(١)
وإني وإن والى على القلب حربه لانتظر أن يعقب الحرب سلمه
ولا تياسن من عفو حر فإنما تحلمه باق إذا ضاع حلمه
أأطمع أن أنساك يوماً وإنما هوأك ضجيع القلب مني وحلمه
يقر بعيني منظر أنت قيده ويمتاق قلبي مطلب أنت غنمه

وللشريف أشعار كثيرة في الصبح عن ذنوب الاصدقاء ، ولكن الشعر
كان يبتليه أحياناً باخوان لا تغفر لهم ذنوب ، إخوان يملون عليه مع
الزمان فيسقونه كأس العلقم والصاب ، فتراه يتوجه بثل هذا الشعر
الحزين :

أمسى عليّ مع الزمان أخ قد كنت أمل يومه لغد
من كان أحق عند نائبة من والدي وأبر من ولدي
لم يثمر الظن الجميل به فقدي من الظن الجميل قدي^(٢)
لو كان ما بيني وبينكم بيني وبين الذئب والأسد
لأويت من هذا إلى حرم ولجات من هذا على عضد
ولأصبحا في الروع من عددي كرماً وفي الأواء من عددي
ولمانعا عني إذا جعلت نوب الزمان تهيب من جلدي^(٣)
أو كان ما قدمت من مقة سبياً إلى البغضاء لم يزد^(٤)
بل لو قذفت بمدحتي لكم في البحر ذي الامواج والزبد

(١) أجمته : تركته يحم ويفزر ، أصل العبارة في الماء ثم نقلت إلى الود
والمعروف . (٢) قدي : حسي ، وكفى (٣) تهيب : تكسر وتجرح .
(٤) المقة بكسر الميم الحب ، وهي من ومق .

لرمى إلى أشف جوهرة وسقى بأعنب مائه بلدي
 فلاجعلن عقوبتي أبداً أن لا أمد يدي إلى أحد
 فتكون أول زلة سبقت مني وآخرها إلى الأبد
 وهذه الزفرة تنقلنا إلى أشعاره في الثورة على الغادرين ، فزاه أحياناً
 يقف موقف اليأس من صحة انود فيقول :

تجاذبني يدي الأيام نفسي و يوشك أن يكون لها الغلاب
 وتقدر بي الأقارب والأداني فلا عجب إذا غدر الصحاب
 أو يقول :

لأي حبيب يحسن الرأي والود وأكثر هذا الناس ليس له عهد
 أكل قريب لي بعيد يوده وكل صديق بين أضلعه حقد؟
 أو يقول :

أشكو النوائب ثم اشكر فعلها لعظيم ما ألقى من الخلان
 وإذا أمنت من الزمان فلا تكن إلا على حذر من الاخوان
 كم من أخ تدعوه عند مله فيكون أعظم من يد الحدثان

وكان للشريف أصدقاء تعوزهم شجاعة الرجال فيسمحون لزوارهم
 باغتيابه ، وكانت الاخوة توجب أن يدفعوا عنه أضرار الاغتياب ، وقد
 وجه الكلام إلى أحد هؤلاء فقال :

مارقع الواشون في ولفقوا قل لي فاما حاسد أو مشفق^(١)
 في كل يوم ظهر داري مغرب لكلامهم وجبين دارك مشرق
 وإلى متى عودي على أيديهم ملقى ينيب دائماً ويحرق^(٢)

(١) الاشفاق هنا هو الجبن . (٢) ينيب : يعض بالأنياب .

كم يسبك الذهب المصفى مرة قد لاح جوهره وبان الروتق
 يجلو لهم عرضي فيسترطونه ويصل عرضهم الذليل فيبصق^(١)
 نفضوا عيوبهم علي^٢ وإنما وجدوا مصحافي الأديم فزقوا^(٣)
 من لي بمن إن بان عيب خليله غطاءه من شانيه أو من يصدق
 وإذا الحلیم رمى بسر صديقه عمداً فأولى بالوداد الاحق
 جار الزمان فلا جواد يرتجى للنائبات ولا صديق يشفق
 وطني علي^٣ فكل رحب ضيق ان جلت فيه وكل حبل يخنق^(٣)

والشريف الذي يجيد حوك العتاب كان في بعض أحواله يكره العتاب،
 أعني أنه كان ينكر على اخوانه أن يعاتبوه، وهذا وجه آخر من صور
 النفس، كان الشريف كان يرى نفسه فوق العتاب، أو كأنه كان يرى أن
 مثله لا يحتاج في رعاية الود إلى عتاب، ولكن الحالة التي سنشير إليها
 يختلط فيها العتب بالوعيد، وهي تشرح أصول العداوات التي عاناها
 الشريف، والظاهر أنه كان كأكثر الناس يبنض من حيث كان يجب،
 فأكثر أعدائه هم في الاصل أصدقاء قدماء، ولا يتلى الرجل بمحنة أشق من
 معاداة انسان كان يراه قبلا بعين الصديق.

وشواهد هذه الحالة النفسية كثيرة في شعر الشريف، ولكننا نكتفي
 بالقطعة الآتية :

نهنه عتابك الا ان هفا جرم بعض العتاب على الاخلاص متهم

(١) يسترطونه : يتلعونه ، وسرطه كذلك ، ويصل : ينثن ، يقال صل
 وأصل ، والمعنى ان لمي طاب فأكلوه ، وانتنت لحومهم فبصقها الناس .

(٢) الأديم الجلد ، ولا يمزق الا الجلد الصحيح .

(٣) في الديوان « قلت فيه ، والاصوب ما أثبتناه .

مالي أقول فلا تصني بسامعة تصامم بك عن ذا القول ام صمم
رفقاً بأنفك لا تشمخ على مضر

وانظر بعينك من زمو او من خطمو^(١)

فلست أول من راقته له حلال ولست أول من راحت له نعم
من أضر الصدع من ليس يضره بغيا مشى في نواحي سره الندم
من أنهضته لقطع الود غدرة كان المذمم منه الكف والقدم
من ساء ظنا بمن يهواه فارقه وحرضته على إبعاده التهم
مق تجهم غدراً سر عهدكم فان عهدي على غدر بكم حرم
أيها السادة

لقد ساقنا الكلام الى ضجر الشريف الرضي من الناس ، فلنتذكر أن
هذا الرجل عانى في دهره أشق العداوات، وإبتلته الحوادث بضروب من
لوم الخلائق ، ولكنه تماسك وقارع خصومه قراع الفحول ، وكان مع ذلك
يعود الى نفسه فيدرسها من حين الى حين فيرى نفسه أعدى الأعداء، فهو
بذلك من أحكم الناس اذ يقول :

أروم انتصافي من رجال اباعد ونفسي أعدى لي من الناس أجمعا
اذا لم تكن نفس الفقى من صديقه فلا يحدثن في خلة الدهر مطبعا^(٢)
ولو انه ألح في ترديد هذا المعنى لكان له مكان بين أساتذة الاخلاق،
ولكن يكفي أنه تنبه الى هذا المعنى ، فهو كان يدرك بوحى الفطرة أننا
نؤذي أنفسنا قبل أن يؤذينا الناس ، وان الشر لا يسقط علينا سقوط
المطر من السماء ، وانما نستدعي الشر عامدين بما نسرف في مكايده الانداد

(١) زم الانف وخطمه ضرب عليه الزمام والخطام، يصف مضر بقوة البأس.

(٢) الخلة بضم الخاء الصداقة المتينة .

والنظرء ، هو كان يفهم انه يتطلع الى انتهاب ما في أيدي الناس من المناصب العالية ، كان يفهم انه يحاول اموراً لو طاعت له لتبدلت في الجو السياسي والاجتماعي رسوم وشؤون ، كان يفهم ان اعلام الناس في عصره ليسوا أغبياء الى الحد الذي يسمع بان يجهلوا ما ينطوي عليه مثل صدره من غرض مبيت وسر مكنون .

والثورة على العيش الضيق وعلى حياة الخمول هي بداية الحرب بيننا وبين المجتمع ، فمن شاء أن يعيش في سلام مطلق فليكتف بأكل العشب في البيداء ، ثم ليحترس أيضاً ففي البيداء خلائق تغار على ما فيها من مساقط الغيث ومنابت الاعشاب . وكذلك نرى الشريف يتنبه الى أسباب العداوة بينه وبين الناس ونراه يداري الاعداء خوفاً من عواقب اللجاجة في تهيج الضغائن والحقود ، وهو الذي يقول :

تجاف عن الاعداء بقيا فربما كفيت ولم تعقر بناب ولا ظفر^(١)
ولا تبر منهم كل عود تخافه فان الاعادي يفتون مع الدهر
اذا شئت أن تبقى خلياً من العدى فعش عيش خال من علاومن وفر
اذا أنت أفنيت المرانين والذرى رمتك الليالي عن يدا الحامل الغمر^(٢)
وهبك اتقيت السهم من حيث يتقي
فمن ليد ترميك من حيث لا تدري

(١) البقايا بمعنى الاستبقاء . وهو هنا صيانة النفس .

(٢) المرانين جمع عرنين بالكسر وهو الأنف او ما هو صلب من عظمه . والمرانين هنا الأشراف ، والذرى جمع ذروة وهي أعلا الشيء والغمر من لم يجرب الامور .

فهو بهذه الابيات يقرر أن سبب العداوة هو بسطة الجاه والمال ويشير
بمدارة الاعداء ، لأن العداوة كالنار قد تخمد بعض الخود ان سكنت
عنها الريح او تناستها أفواه النافخين ، ويذكر ان الذي ينتصر على الاقوياء
من الاعداء قد ترميه الليالي بأيدي الضعفاء . ولو كنا نعرف مصادر
الخوف في كل وقت لدفعناها ، ولكن الخوف تخفي مصادرهما في كثير
من الأحيان ، فمن الحزم أن لا نعرض أنفسنا للعداوات وهي أسباب
المعاطب والخوف .

وفي هذه القطعة اشارة الى معان كثيرة . وليت الشريف احتفل بهذه
المعاني ، كما يتفق له ذلك في كثير من الاغراض ، ولكن هذه الاشارة تفهمنا
انه كان يخاف الضعفاء اكثر مما يخاف الاقوياء ، لأن الاقوياء شرهم هين ،
اذ كانوا يحاربون بأسلحة الرجال ، أما الضعفاء فشرهم أخطر وأفظع
اذ كانوا يدبون بالوشايات والنائم كما تدب العقارب في حلك الظلام ،
والعدو الضعيف مخلوق خطر ، لأن الضعف علمه الدهاء وبصره بالساليب
الحتل والخداع ، وكان من السهل أن يعتمد الأعداء الضعفاء الى تهوين قدر
الشريف في أنفس أهل العراق . ومثل الشريف كان يعتمد في حياته
السياسية على قوتين : القوة الذاتية وحسن السمعة بين الناس .

وأعيذك أن تظنوا أنني أتكلف هذا الافتراض ، ففي ديوان الشريف
شواهد نعرف بها أنه كان مبتلى بأقوام يقرضون عرضه في الخفاء ، والا
فكيف نفسر سكوته عن وصف الخمر مع ان وصفها كان من المذاهب التي
سنها شعراء العراق ، وكان الشاعر العراقي يصف الخمر وان لم تمسها
شفتاه ، والشريف وصف الخمر فعلا ولكنه ينص في صلب الديوان على
أنه سئل وصفها فأجاب .

ولا تنسوا أن الشريف غلبت عليه الصفة الأدبية - بالرغم من منزلته العلمية التي قضت بأن يكون له مدرسة فيـها طلاب يتلقون دروسه في الصباح والمساء - والصفة الأدبية حين تغلب على رجل تعرض سمعته لسيئات الظنون ، فقد كان شاع في البيئات العراقية أن الأدباء والشعراء قوم لا يهمهم غير الهيام بأودية الشياطين .

ولم يكن يسر الشريف الرضي أن يقال انه يتخلق بأخلاق الشعراء لأنه كان يرشح نفسه لمنصب دينية لا يصلح لها إلا المعروفون بطهارة السر والعلانية ، والمشهورون بالتقى والعفاف ، وحسبكم أن تذكروا أنه كان يرشح نفسه لنقابة الأشراف وإمارة الحج وتولي القضاء ، وهي مناصب شائكة توجب على من يسمو اليها أن يتخوف عواقب الأقاويل والأراجيف .
قد تسألون : وهل كان الشريف يكتف هذه المعاني ؟

ونجيب بأنه كان يصرح بها في بعض الاحيان ، كان يقول :

واني إذا أبدى العدو سفاهة حبست عن العوراء فضل لسانيا ^(١)
وكنت إذا التاث الصديق قطعته وإن كان يوماً راحاً كنت غاديا ^(٢)

وكان يقول :

وإن مقام مثلي في الأعادي مقام البدر تنبج الكلاب
رموني بالعيوب ملفقات وقد علموا باني لا أعاب
وأني لا تدنسي الخازي وأني لا يروعي السباب
ولما لم يلاقوا في عيبا كسوني من عيوبهم وعابوا
وكان يقول :

(١) العوراء الكلمة الفاحشة (٢) التاث الصديق : تغير وده

وجاهل نال من عرضي بلا سبب أمسكت عنه بلا عي ولا حصر
 حمته عني المخازي أن أعاقبه كذلك تحمي لحوم الذود بالدبر^(١)
 وكان الشريف قد امتحن بجماعة من أقربائه يناصرونه العداة ، ونحن
 نعرف أسباب تلك العداوة ، فقد كانت هناك مناصب موقوفة على
 الأشراف ، وكانت الحرب على تلك المناصب لا تنفك مسعرة الضريم ،
 والمهجوم على الاخوة وبني الاعمام باب معروف في الشعر العربي ، ولا يكاد
 يخلو منه ديوان ، فالشريف الرضي لا يبتدع هذا الفن ، ولكنه مع ذلك لا
 يقتعل هذا الفن ولا يقف فيه موقف المحاكين لعواطف القدماء ، وإنما
 يعبر عن عواطف ذاتية أنبتها في صدره عنف الأهل وأوم الزمان ، ولو لا
 ذلك ما صح له أن يقول :

إذا أشر القريب عليك فاقطع ~~بجد السيف~~ قربي الأقرباء^(٢)
 وكن إن عكك القرباء ممن يميل على الاخوة للاخاء
 فرب أخ خليق بالتقالي ومغترب جدير بالصفاء
 وأن يقول :

وقل لبني عمنا الواجدين بني عمنا بعض هذا الغضب^(٣)
 أما آن للراقد المستمر في ظلم الغي أن يستهب
 سرحتم سفاهتكم في العقوق ولم تحفلوا الحلم لما غرب^(٤)
 ولما أرتتم إران الجموح وماج بكم حبلكم واضطرب^(٥)

(١) الذود جماعة الابل ، والدبر بالتحريك قرحة تصيب الدواب .

(٢) أشر هنا معناها حقد (٣) الوجد هنا معناه الحقد

(٤) غرب : غاب . (٥) الاران : فورة النشاط .

أقننا أنابيبكم بالثقاف وداوى الهناء مطال الجرب^(١)
ويا ربما عاد سوء العقاب على المذنبين بحسن الأدب
وأن يقول :

ومولى يعاطيني الكؤوس تجملا وقد ودّ لو أن العقار نجيع^(٢)
خبات له ما بين جنبي فتكة دهنه ويوم الغادرين شنيع
وأن يقول :

غمست يدي في أمر فن لي ؟ وأين ؟ بنزع كفي وانكفاني
كفاني أنني حرب لقومي وذلك لي من الضراء كاف
حطمت صعادهم حتى استقاموا مجاوزة بهم حدّ الثقاف^(٣)
فصرت لذمهم غرضاً رجيماً يراموني بمثل حصا القذاف^(٤)
وأكذب بالتصون مدعيهم وألجم قائلهم بالعفاف
ولو أني أطعت الرشد يوماً لأبدلت التحامل بالتجاني
وأغضيت اللواحظ عن ذنوب وموضعها لعيني غير خاف
ولكن الحمية في تابي قراري للرجال على التكافي

١٠ الانابيب جمع انبوب بضم الهمزة وهو كعب الرمح ، والثقاف تسوية
الرماح . والهناء على وزن كتاب هو القطران وبه يداوى جرب الابل .

٢٠ النجيع : الدم المائل الى السواد ، او هو دم الجوف .

٣٠ الصعاد جمع صعدة وهي الفتاة المستوية تنبت كذلك .

٤٠ حصا القذاف - على وزن كتاب - ما يرمى بالمنجنيق . وراموني ،
حذفت احدى النونين للتحفيف ، وهذا كثير جداً في اشعار الشريف كأن يقول :

لو ينصفوني الهوى ما كان عندهم يرد القلوب وعندي الشوق والارق
وكان يقول :

سيد كروني ان نبا جانب من العدا وانحل عقد الزمان

وأنظر سبة وعظيم عار
 ولو أني رميت أصاب سهمي
 فما سهمي السيد من النوابي
 ولي أنف كانف الليث يابى
 وقد عرف العدا وبلوا قديماً
 لي العزم الذي قد جربوه
 أقلوا لا أبالكم وخلوا
 فقد مدت غيابات المخازي
 صفوت لكم فرنقم غديري
 وبوشك أن تقام على التقالي
 مضى زمن اتمازج والتداني
 لئن أعلى بناءكم اصطناعي
 أداوي داءهم فيزيد خبثاً
 حنوت عليهم ولرب حان
 فما قلبي وإن جهلوا بقاس
 فما تغني القوادم من جناح
 وعندى المزمات مسومات
 بوارد للغليل كان قلبي
 رضاي من المنازع بالكفاف
 ولكني أنقب عن شغافى^(١)
 ولا باعى الطويل من الضفاف
 شميمي للمذلة واستيافى^(٢)
 خطاي إلى المنايا وازدلافي
 يقد مضارب البيض الخفاف
 مطاعنة الاسنة بالأشافي^(٣)
 على عرصاتكم مد الطرف^(٤)
 وأي مضاغن رجع المصافي
 أنايب رجمن إلى التصافي
 وذا زمن الترايل والتنافي
 فسوف يثل عرشكم انحرافي
 وليس لداء ذي البغضاء شاف
 على جان وإن بعد التلافي
 ولا حلمي وإن قطعوا بهاف
 تحامل إن قعدن به الخوافي
 من الأشعار تخترق الفيافي
 يعبُّ بهن في برد النطاف

١٥ الشغاف على وزن سحاب غلاف القلب

٢٥ الاستياف والسوف الشم.

٣٥ الأشافي جمع الأشفى بكسر الهمزة وهو المثقب يخرز به ..

٤٥ الطرف على وزن كتاب بيت من آدم.

أسر بين أقواماً وأرمي أقيوماً بثالثة الاثافي^(١)
ويهمني أن أوجه أنظاركم إلى قوله في هذا القصيد :
وأكذب بالتصون مدعيمهم وألجم قائلهم بالعفاف
فهو يؤيد ما افترضناه من قبل ، ويبين لكم ان الشريف كان يعرف
ان هناك جماعة من الاندال يسوئون سمعته ويذيعون عنه الاباطيل
ليفضوا من قدره بين الناس ، فيخلو لهم الجو إذ يقضي عليه التجريح
الأثم بالخروج من الميدان .

...

أيها السادة

في ديوان الشريف أشعار كثيرة عن الاقارب والاصدقاء الذين
يعرفون الرجل في أيام النعماء ، وينكرونه في أيام البأساء ، وهي أشعار
جيدة . ولكنها في مراميها لاتعد من المبتكرات ، لأنها مما تعاورته سهام
الشعراء في القديم والحديث .

فلنترك هذه الناحية ونقف لحظة عند الازمة التي وقعت بين الرضي
وأخيه المرتضى .

لا نتحدثنا كتب التراجم عن أسباب الجفوة التي وقعت بين ذينك
الأخوين ، ولكننا نعرف أنهما لم يكونا مؤتلفين كل الائتلاف ، لأن
مذاهبها في الحياة كانت مختلفة بعض الاختلاف ، ويمكن الحكم بان
الرضي كان جمهوره من أهل الادب ، وأن المرتضى كان جمهوره من أهل

(١) المراد بثالثة الاثافي الداهية ، وثالثة الاثافي هي في الأصل الجبل ، وذلك
انهم كانوا إذا لم يجدوا ثالثة الاثافي اسندوا القدر الى الجبل ، والاثافية بالضم
والكسر الحجر توضع عليه القدر .

العلم ، وهنا تظهر أسباب المنافسة بين الاخوين ، فالرضي الشاعر كان عالماً جليلاً ، والمرضى العالم كان شاعراً مجيداً ، ولا ندري متى يأتي الزمن الذي يسمح بان نحدد خصائص هذين الاخوين ، ونبين ما يشتركان فيه ، وما يتفرد به كل منهما تفرداً لا يتطرق اليه الخلاف .

ولكن لا مندوحة من تقرير الواقع المؤلم ، وهو أن ذينك الاخوين عرفا كدر الاخوة بعد الصفاء ، وإن جهلنا حقائق الاسباب ، ولكن أي كدر ؟ تصوروا حال الشريف الرضي الذي مدح أخاه بكثير من القصائد الجياد ، وامتزج بحياته البيئية امتزاج الماء بالصهباء ، تصوروا حاله وهو يسمع ان اخاه يمسه بقوارص الاغتياب .

وهل في الدنيا وجه أقبح من وجه الاخ الذي يغتاب أخاه ؟ انها بلية دميعة لا يضمن بها الدهر الغادر عسى كرام الرجال ، وقد شرب الرضي كؤوس العلقم من يد الزمان ، ورأى من البلايا ما أنطقه بالشعر وهو في العشر من سنه ورماه بالشيب وهو في سن العشرين ، ولكن هل تجور الدنيا إلى هذا الحد فيرى أخاه الشقيق وهو يعض عرضه بلا تورع ولا استحياء ؟ هل تفعد الدنيا هذا الفساد فنرى المرضى والرضي يتباغضان ويتحاذيان بعد أن جمعتها الايام تحت جناحي أم رءوم تروضها على المودة والعطف وهي ترى الدنيا في وجهيهما حين زج زوجها في غياهب الاعتقال ؟

ماهي الاخيلة التي طافت برأس الشريف وهو يعادي أخاه ؟ إن الجبال أخف وزناً من الهموم التي تساور الشاعر حين يبغض من يحب ، والسّم أحلى مذاقاً من ورود الشاعر بجر القطيعة ، قطيعة الاخ المحبوب ، فإذا صنع صديقنا الشريف الرضي في تلك الايام السود ؟ ما الذي عاناه وهو يستعد لذلك النضال المشؤم ؟ وما هو الغم الذي سيطر عليه حتى

استباح انفسه أن يهجم على أخيه ، وهو يعلم أن ذلك الاخ هو كل ما بقي له من الثروة الروحية في زمن كان يزخر بالمهالك والخطوب !
ولا تنسوا أيها السادة أننا نتحدث عن شاعر كان يعيش في بغداد في النصف الثاني من القرن الرابع ، وهو من أقسى العصور التي عانتها بغداد لانها لم تكن تختار ملوكها ولا وزراءها في ذلك العهد وإنما كانت تفرض عليها الملوك وفقاً لعدوان المطامع بين الديلم والأتراك ولم يبق لاهل بغداد من أسباب الجاه الا ما توارثوه من المناصب بفضل التقاليد ، وكان من أهم ما توارثوه مناصب القضاء ، وكانت هذه المناصب مما يملك الفقهاء البغداديون ، السنيون والشيعة ، فلم يكن بد من أن يتعاطفوا ، وتشيع بينهم القالة الحسنة والصيت الجميل .

فاذا نقل الواشون الى الرضي ان اخيه المرتضى يسأله في غيبته بلسان حديد فانما يصورون له مجداً يتقلص وملكاً يضيع .
وماذا يبقى للرضي ان ضاعت منه مودة ذلك الشقيق ؟

هو مع الملوك في حرب ، ومع الخلفاء في حرب ، ومع المنافسين في نضال ، والعراق على اتساع حواضره وبواديه يضيق عن تأسيس الثروة والمجد من جديد ، لأن الثورات لم تترك فيه مجالاً لأيدي الفلاحين فضلاً عن الشعراء والعلماء .

اعذروني أيها السادة اذا وقفت عند هذه المعضلة النفسية ، فانا أحب أن أعتذر عن الشريف الرضي ، احب أن أقول انه لم يهجم على أخيه الا بعد ان ضاقت في وجهه مسالك الصفع الجميل ، وكان في مقدوري أن أحكم بان أهل العراق قوم تغلب عليهم دقة الاحساس فهم يغضبون لأول بادرة ، ولا يفكرون في العواقب عند الصيال ولكن ماضي

العراق يشهد بان أهله كانوا من أقدر الناس على تحليل العواطف والاحاسيس
ومؤلفات فلاسفته تنطق بانهم كانوا من أشوق الناس إلى درس أصول
الحب والبغض ، فمن العسير أن نصدق أن الرضي هجم على أخيه إلا بعد
أن طفح الكيل ، وعز الوفاق .

ولكن ما بالنا نشغل أنفسنا بهذه الدقائق النفسية ؟ يكفي أن نعرف
أن الرضي عرف في حياته لونا أسود هو الاضطغان على الاخ الشقيق ، وأنه
لم يرد ذلك المورد إلا وهو آسف محزون ، وقد نظم في ذلك قصيدة ضادية
هي أعظم ما نظم في قافية الضاد . وقد تأثر بها الضادة التي اختارها أبو تمام
في الحماسة ، فجاءت ضاديته أبلغ وأروع ، والشعراء يعدي بعضهم بعضاً
بالمواطف والاحاسيس ، ولنتنظر كيف يقول :

رضيت من الاحباب دون الذي يرضى

ودانيت من تقضى الديون ولا يقضى

وقد أنهرت في الليالي جراحها

مراراً وأنضاني من الهم ما ينضى^(١)

طوى الدهر أسباب الهوى عن جواخي

وجل الصبا عقد الرحائل عن تقضى^(٢)

ولم يبق لي في الاعين النجل طربة

ولا أرب عند الشباب الذي يمضي

ضحا اليوم عن ظل الشبيبة مفرقي

وأبدل مسودّ العذار ببيض^(٣)

«١» أنهر الجرح وسعه . وانضاه اهزله واضناه . «٢» النقض بالكسر

المهزول من السير «٣» ضحا : برز للشمس ، والمفرق بفتح الراء وكسرهما
وسط الرأس وهو الذي يفرق منه الشر .

أثاني ومطول من الناي بيننا

قوارص تنبو بالجفون عن الغمض^(١)

ومولى وري قلبي بلذعة ميسم

من الكلم العوراء مضا على مض^(٢)

فعدراً لأعدائي إذا كان أقربي

يشذب من عودي ويعرق من نحضي^(٣)

إذا ما رمى عرضي القريب بسهمه

عذرت بعيد القوم إما رمى عرضي

ألم ياته أني تفردت بعده

رواي للعلاء جاش لها نهضي

وأني جعلت الأنف من كل حاسدي

قبالي وخدي كل مضطفن أرضي^(٤)

وكم من مقام دون مجدك قمته

على زلق بين النواقب أو دحض^(٥)

وقارعت من أعيالك قبل قراعه

فدايجني بعد التشارر والبغض^(٦)

«١» القوارص : الكلمات الجافية «١» المولى : القريب . وري القلب :

كواه . والميسم ما يكوى به . «٣» يشذب : يقطع ، والنحض : اللحم

«٤» القبال على وزن كتاب هو من النعل زمام بين الاصبع الوسطى والتي تليها .

«٥» الدحض قريب من معناه في الزلق . «٦» دايجه هنا معناه صالحه ،

والتشارر فك إدغامها للوزن ، وهذا يقع كثيراً جداً في شعر الشريف . وفي

نسخة الديوان «التشارر» وهو تحريف .

لقد أمست الارحام منا على شفا
 فأخلق بمشف لا يعلل أن يقضي^(١)
 رأيت مخيلات العقوق مليحة
 فلا تجعلن برق الاذى صادق الومض^(٢)
 ولا تشمتن من ودّ لو أننا معاً
 شجيجان تلطينا الجنادل بالارض^(٣)
 إذا كنت أغضى والقواذع جمة
 فمثلك أولى أن يرم وأن يغضي^(٤)
 على غصص لو كنّ في القدر لم ينز
 وفي العود لم يورق وفي السهم لم يمض
 رزئتك حيا بالقطيعة والقلبي
 وبعض الرزايا قبل يوم الفقى المقضي
 أتأديك فارجع من قريب فاني
 إذا ضاق بي ذرعي مضيت كما تمضي^(٥)
 لقد كان في حكم الوشائج لو رأى
 عن المجد بطئي أن يبالغ في حضي^(٦)

(١) الشفا حرف كل شيء . يريد ان الارحام اصبحت على شفا الهاوية
 والمشفى المشرف على الهلاك ، ويعلل : يعالج . ويقضي : يموت .
 (٢) المخيلات جمع مخيلة وهي من اخيلت السماء إذا تهبأت للمطر ، والمليحة
 من ألح البرق إذا اومض (٣) الشجيجان مثنى شجيج وهو المجرع . وفي
 الديوان « شحيجان » بجامين مهملتين وهو تحريف . (٤) يرم : يسكت .
 (٥) هذا بيت القصيد (٦) الوشائج جمع وشيجة وهي هنا رباط القرابة .

فكيف ولم تخرج مناديع همتي
 ولا ذمت العلياء بسطي ولا قبضي^(١)
 إذا هو أغضى ناظري على القذى
 وكان لمثلي مسخطاً فلمن يرضي
 خليلي ما عودي لأول غامز
 ولا زبد وطبي للمقيم على مخضي^(٢)
 فقل للعدا عضوا الاخامص إنكم
 تعرقتم الأيدي عليّ من العض^(٣)
 هم تقضوا ما قد بنى أولوم
 وشدنا وهيات البناء من النقض
 أفي كل يوم يصبغ من التكرار منهم^(٤)
 رداء امرئ والعار باق على الرحض^(٥)
 يريدون أن يخفوا النواقر بيننا
 وقد صاحت الاضغان في الحدق المرض^(٥)
 ذكرت حفاظي والحفيظة في الحشا
 لها نغضان العرق يحفز بالنبض

«١» تخرج : تضيق . وفي الديوان « تخرج » بالخاء المعجمة وهو تحريف ،
 والمناديع : المسالك . «٢» الغامز الذي يختبر العود ، والوطب : سقاء اللبن
 وهو من جلد ، والمخض أخذ الزبد من اللبن . «٣» الاخامص جمع الأخص وهو
 من باطن القدم ما لا يصيب الأرض ، والتعرق أكل اللحم . «٤» الرحض :
 الفسل . «٥» النواقر جمع ناقرة وهي الداھية والمراد بها الحقد .

دعوتكم قبل التي لا شوى لها ^(١)
وقلت لكم فيثوا إلى الخلق المرضي
ردوني غيراً قبل أن أحمل القذى
فلا تردوا إلا على التمد البرض ^(٢)
ولسوا جيمي قبل أن يمنع الحمى
إبائي أو يوبي على رعيكم حمضي ^(٣)
ومن قبل أن يسدي المعادون بيننا
برود الخنا مشئت في الطول والعرض ^(٤)
ولا تركبوا سياء دامية القرا
بلا حقب تطوى البلاد ولا غرض ^(٥)
تقوا عار حرب لا يعود مثيرها
وإن غلب الاقران إلا على رمض ^(٦)
ولا تولجوا زور العقوق بيوتكم
أناشدم بالله في الحسب المحض

«١» قبل التي لا شوى لها : أي قبل الضربة القاضية . «٢» التمد البرض الصافي .
التمد بسكون الميم ويحرك بقية الماء ، والبرض القليل .

«٣» اللس الأكل واللحس وفتف الدابة الكلاً بمقدم فيها ، والجيم النبات الكثير
أو الناهض المنتشر ، يوبي : يفسد . والحض ما ملح وأمر من النبات ، وهو للابل
كالفاكهة للانسان . «٤» يسدي من السدى وهو ما مد من الثوب .

«٥» السياء بالكسر حارك الفرس وظهر الحمار . والقرا : الظهر ، والحقب
بالتحريك الحزام أو حبل يشد به الرجل ، والغرض للرحل كالحزام للسرير .

«٦» تقوا : اتقوا ، والرمض شدة وقع الشمس على الرمل .

أراها بعين الظن حمراء جهمة
ستجري إلى عار العواقب أو تفضي
تهضمني من لا يكون لغيره
من الناس إطراقي على الهون أو غضي
أفوق نبل القول بيني وبينه
فيؤلني من قبل تزعي بها عرضي^(١)

وأرجع لم أولغ لساني في دمي
ولم أدم أعضائي بنهش ولا عض
إذا اضطرمت ما بين جنبي غضبة
وكاد فمي يمضي من القول ما يمضي
شفعت على نفسي ~~بنتفسي~~ فكفكت^(٢)
من الفيظ واستعطفت بعضي على بعضي

ولم تطل الجفوة بين الاخوين فكتب المرتضى إلى أخيه الرضي
قصيدة جيدة تتخير منها الأبيات الآتية :

تكشف ظل العتب عن غرة العهد
وأعدى اقتراب الوصل منا على البعد
تجنبني من لست عن بعض هجره
صفوحاً ولا في قسوة عنه بالجلد
نضته يد الاعتاب عما سخطته
كما ينتضي العضب الجراز من الغمد^(٣)

«١» فوق النبل رماه مسدداً . «٢» الاعتاب : الترضية .

وكنت على ما جره الهجر ممسكاً
 بجبل وفاء غير منفصم العقد
 أمين نواحي السر لم تسر غدرة
 بيالي ولم أحفل بداعية الصد
 تلين على مس الاخوان مضاربي
 وان كنت في الاقوام مستخشن الجد^(١)
 ولما استمر البين في عدوانه
 تفول عفوى أو ترقى إلى جهدي^(٢)
 أصاحب حسن الظن والشك مقبل
 بوجهي إلى حيث استمرت عرى الود^(٣)
 إذا اتسعت في خطة الصد فكرتي
 تجلني هم يضيق به جلدي
 وإن ناكرتني خلة من خلاله
 تعرض قلبي يفتديها من الحقد^(٤)
 يخال رجال ما رأوا لضلالة
 ولن تستشف الشمس بالأعين الرمد
 إذا تركت يمني يديك تعلقي
 فيا ليت شعري من تمسك من بعدي

«١» في الديوان « مستحسن » بالسين والحاء المهملتين وهو تحريف .
 «٢» العدواء : بضم العين وفتح الدال : الشدة، وهي في الاصل الارض الصلبة
 «٣» استمرت : قويت ، وفي الاصل « استترت » وهو تحريف ، وقد تكلف
 شارح الطبعة البيروتية ، والصواب ما اثبتناه «٤» الخلة بالفتح الحصة .

إياباً فلم تشرف على غاية النوى
ولم تناكل الناي عن سنن القصد
ولو لم يلاق الزند قدحاً بمثله^(١)
لما انبعثت شهب الشرار من الزند
هلم نعد صفو الوداد كما بدا
إعادة من لم يلف عن ذلك من بد
ونغتتم الايام فهي طوائش
تواتى بلا قصد وتابى بلا عمد
ومثلك أهدى أن يقاد إلى الهدى
وأرشد أن ينحاز من جهة الرشد
وقد انعطف الرضي حين وصلت اليه هذه القصيدة وجنح إلى السلم،
فأرسل إلى أخيه قصيدة طويلة نكتفي منها بالقطعة الآتية :

وأعظم ما لاقيت شجواً ولوعة
عتاب أخ قل الزمان به حدي
أقبيك الردي ما كان ما كان عن قلى
ولكن هنات كدن يلعبن بالجد^(٢)
ولا تحسبن العتب جازت كلومه^(٣)
إلى القلب إلا بعد ما حز في الجلد

«١» في الديوان : ولم لا يلاق القدح زنداً بمثله . وهو شطر محرف .

«٢» في الديوان « بالجد » وهو تحريف .

«٣» الكلوم جمع كلم بالفتح وهو الجرح .

منحتك ما عندي من الصد معلناً
 وعقد ضميري أن أدوم على الود
 وقد كنت أبغي رتبة بعد رتبة
 فأنف لي من أن أفوز بها وحدي
 حفاظاً على القربي الرموم وغيره
 على الحساب الداني وبقيا على المجد
 حسدت عليك الاجنبيين محبة
 وناقست فيك الابعدين على الود
 وقد كان لدع فاتقت شبابه
 بقلب على الضراء كالحجر الصلد^(١)
 تجللت حتى لم تجد في مفرأ^(٢)
 وعدت كما عاد الجراز إلى الغمد
 وما أنا عريان الجنان من التي
 تسوء ومنفوض الضلوع من الوجد
 أقلب عيناً في الاخاء صحيحة
 إذا ارتمت الأعداء بالأعين الرمدم
 وإني مذ عاد التودد بيننا
 تجلى الدجى عن ناظري وورى زندي
 وعاد زماني بعدما غاض حسنه
 أنيقاً. كبرد العصب أو زمن الورد^(٣)

(١) الشاة إبرة العقرب وحد كل شيء (٢) العصب ضرب من البرود.

وكنت سليب الكف من كل ثروة
 فأصبحت من نيل الاماني على وعد
 وفارقت ضيق الصدر عنك إلى الرضا
 كما نشط الماسور من حلق القد
 وقد ضمنى محض الصفاء وصدقه
 اليك كما ضمت ذراع إلى عضد
 أيها السادة :

لقد كان الرضي شاعراً يرضى ويغضب ، ويخشن ويلين ، كان
 يأسره الشوق إلى الصديق فيقول :
 لقاءك جرّ عليّ الفراقاً وما زادني القرب إلا اشتياقاً
 جلوت عليّ هديّ الوادير فاسلفتها بالقبول الصداقاً^(١)
 وأسرفت بالبشر حتى ظننت أنك أضجعت فيه النفاقاً
 وحاشاك من تهمة في المغيّب فكيف حضور يضم الرفاقاً
 وكان الزعيم بهذا الإخاء يوماً حسوناه كأساً دهاقاً
 نخرنا الدنان على صدره فله أي دماء أراقاً
 شرقنا بلذاته والسرور يلوى أزاراً ويرخي نطاقاً
 سقى الله دهرأ حباناً الوداد مبتدّها فشكرنا العراقاً
 وما زلت أعجب من حفظه لنا القرب حتى نسينا الفراقاً
 أقتص من جسدي بالعباد وما زود الباع منك العناقاً
 وكان يغضب على المغتابين فيقول :
 وغر آكل بالغيّب لحمي وإن لأكله داء عياء

(١) الهدى على وزن غنيّ : العروس .

يسيء القول إما غبت عنه ويحسن لي التجمل واللقاء
عبات له وسوف يعب فيها من الضراء آنية ملاء
وكان يوازن بين عداوة الاقارب وعداوة الأباعد فيقول :
للذل بين الأقربين مضاضة والذل ما بين الأباعد أروح
وإذا رمتك من الرجال قوارص

فسهام ذي القربى القريبة أجرح
وكان يتشبت بابناء عمه فيقول :

إذا لم يكن لي ناصر من عشيرتي
فلي من يد المولى وإن ذل ناصر^(١)
وإني وإن قلوا لمستمك بهم
وقد تمسك الساق المبيض الجبائر^(٢)

أويقول :
لويت إلى ود العشيرة جانبي على عظم داء بيننا متفاقم
ونمت عن الاضغان حتى تلاحت

جوائف هاتيك الندوب القدائم^(٣)
وقلمت أظفاري وكنت أعدها لتمزيق قربي بيننا والمحارم
وروحت حلبي بعدما عزبت به

ذنوب بني عمي عزوب السوائم
وأوطات أقوال الوشاة أخاصمي
وقد كان سمعي مدرجاً للنائم

«١» المولى ابن العم «٢» الجبائر جمع جبيرة وهي الميدان التي تجبرها العظام

«٣» الجوائف جمع جائفة وهي طمعة تبلغ الجوف .

أو يمن عليهم بالحلم فيقول :

بني عمي وعز علي يميني من الضراء ما لقيت شمالي
أعود على عقوقكم بجلمي إذا خطر العقوق لكم بيالي
أروني من يقوم لكم مقامي أروني من يقول لكم مقالي
ومن يحمي الحريم من الأعبادي

ومن يشفي من الداء العضال
يشابح دونكم يوم المنايا ويرمي عنكم يوم النضال^(١)
ورب قوارص نكتت جناني^(٢)

أشد علي من صرد النبال^(٣)
صبرت لها ولم أردد مقالا فكان جزاء قائلها فعالي

أويهدم فيقول : *مررت ببيتك في يوم سدي*

هبوا أصولكم أصلي على مضض

ما تصنعون باخلاق تنافيني
كم الهوان كاني بينكم جل في كل يوم قطع النذل يحدوني
لا تأمن عدواً لان جانبه خشونة الصل عقي ذلك اللين
واحذر شرارة من أطفات جمرته

فالتار غض وإن بقى إلى حين
إني تهيب بي البقيا وأتبعها فكم أباقي بها من لا يباقيني
توقعوها فقد شبت بوارقها بعارض كضريم الليل مدخون
إذا غدا الافق الغربي مختمراً من الغبار فظنوا بي وظنوني

«١» يشابح : يقاتل . «٢» النكت : الضرب .

«٣» الصرد : وقع النبال ، وهو ايضاً مسبار في السنان يشك به الرمح .

أو يصارحهم بالقطيعة فيقول :

قد يدع المرء وإن كان ابن عم ويقطع العضو الكريم للألم

أو يعلن اليأس من الناس جميعاً فيقول :

أكرّ طرفي فلا أرى أحداً إلا مغيظاً عليّ مضطغنا

ينبض لي من لسانه أبداً نصال ذم تمزق الجننا

أيها السادة

تلكم صور نفسية تمر بخواطر الشعراء ، ولها في الشعر القديم والحديث أمثال ، ولكن الشريف تفرد بقصيدة قيمة لم يقل مثلها أحد من القدماء والمحدثين ، فكان أوحده الناس في الدعوة إلى استبقاء الصديق ، إذ يقول :

وكم صاحب كالرمح زاعجت كعوبه ^(١)

أبي بعد طول الغمز أن يتقوما

تقبلت منه ظاهراً متبليجاً وأدمج دوني باطناً أن متجها

فأبدى كروض الحزن رقت فروع

وأضمر كالليل الحداري ^(٢) مظلماً

ولو أنني كشفته عن ضميره أقمت على ما بيننا اليوم ما تمنا

فلا باسطاً بالسوء إن نالني يداً ولا فاغراً بالذم إن رابني فما

كعضو رمت فيه الليالي بقادح ^(٣)

ومن حمل العضو الاليم تألما

إذا أمر الطب اللبيب بقطعه أقول عسى ضنا به ولعلما

(١) الحداري بالضم المظلم .

(٢) القادح أكال يقع في الشجر والاسنان والصدع في العود .

صبرت على إيلامه خوف قصه
ومن لام من لا يرعوي كان ألوما
هي الكف مض تركها بعد دائها
وإن قطعت شانت ذراعاً وممصها
أراك على قلبي وإن كنت عاصياً
أعزّ من القلب المطيع وأكرماً
حملتك حمل العين لج بها القذى
فلا تنجلي يوماً ولا تبلغ العمى
دع المرء مطوياً على مما ذمته
ولا تنشر الداء العضال فتندما
إذا العضو لم يؤلمك إلا قطعته
على مضض لم تبق لحماً ولا دماً
ومن لم يوطن للصغير من الأذى
تعرض أن يلقي أجل وأعظماً^(١)

(١) في الطبعة الثانية من كتاب « الموازنة بين الشعراء » بيان للاصول التي أخذ منها الشريف الرضي هذا المعنى الجميل ، فليرجع إليه القارئ إن شاء.

اسرار العلائق

بين الرضي والصابي

أيها السادة

رأيتم في المحاضرة الماضية ألواناً من تأثير الصداقة والعداوة في حياة الشريف الرضي ، وشهدتم أننا وقفنا وقفة قصيرة عند صلته بصديقه أبي الحسن البتي وخصومته مع أخيه الشريف المرتضى ، وتذكرون أنه أشار إلى صديق اسمه ابن حمد ، إذ قال في الحديث عن اجتماعوا عنده في مجلس أنس .

أخي وابن عمي وابن حمد فانه تباريح قلبي خالياً وغرامي
فلنقل اليوم إن ابن احمد هذا كانت له مكانة في أواخر القرن الرابع،
وقد رافق الرضي في طريق الحج سنة ٢٩٤ وفيه يقول :

وكنت إذا ضاقت مناديح خبطة

دعوت ابن حمد دعوة فاجابها

أخ لي إن اعيت علي مطالي رمى لي أغراض المنى فاصابها

إذا استبهمت علياء لا يهتدى لها

قرعت به دون الأخلاء بابها

به خف عني ثقل فادحة النوى وحبب عندي نايبها واغترابها

ثمانون من ليل التام نجوبها رفيقين تكسونا الدياجي ثيابها

وهناك صديق آخر يسمى ابن ليلي كان له في نفس الرضي أثر بليغ ،

وسنعرض له في غير هذا الحديث .

والمهم في هذه الليلة أن نشرح أسرار العلائق بين الرضي والصابي فنقول :

كانت صلة الصابي بأسرة الشريف الرضي قديمة العهد، وكان الرضي وهو طفل يسمع أن في دنيا الادب والسياسة رجلاً كريماً الشامل اسمه أبو اسحاق الصابي، وكان يسمع أنه من أصدقاء أبيه الاصفياء .

وما نعرف بالضبط متى ابتدأت صداقة الصابي لابي أحمد الموسوي والد الشريف، ولكننا نستطيع أن نؤكد أن شواهدا القوية ظهرت سنة ٣٥٤ قبل أن يولد الشريف بأكثر من أربع سنين .

وتلك الشواهد القوية هي العواطف التي ظهرت في كتابة التقليد وهو المنشور الذي كتبه الصابي عن الخليفة المطيع لله بتقليد أبي أحمد الموسوي نقابة الطالبين .

مركز تحقيق التراث
مركز تحقيق التراث
مركز تحقيق التراث

واليكم فقرات من ذلك المنشور لتعرفوا جوهر تلکم العواطف :
« أما بعد فان أمير المؤمنين لما يعرفه من تيقظك وحزمك وتحفظك يرى أن ينوط بك من سني الاعمال ما يستمتع فيه بكفايتك ويستثمر معه الخيلة في دينك وأمانتك ، ويفرع بك من أعلا المراتب ما يضاها رأيه في أمثالك من أعيان دولته ، وذوي التحقق بدعوته والاعتصام بحبله ، جرياً من أمير المؤمنين على شاكلته في الارتياح لمواقع معروفه ، وتخير من يؤهله لتكريمه وتشريفه ، حتى يلبس إنعامه من يستحق التفضل عليه ، ويحمد منته من بين أثر التوفيق في الإحسان اليه ولذلك رأى أمير المؤمنين أن يقلدك النقابة على الطالبين أجمعين من كان في مدينة السلام وفي غيرها من النواحي والأمصار ثقة بانك تقع من النهوض بالاعباء بحيث تحقق ظن أمير المؤمنين فيك ، وتظهر من الكفاية والغناء ما يكون

لمزيدك من النعمة مقتضياً ، ولمضاعفة الاحسان اليك بممترياً . واعلم ان
أن أمير المؤمنين قد فضلك على أهل بيتك طراً ، ورفعك فوقهم جمعاً ،
فجعلك واحداً بعد أن كنت واحداً منهم ، واختصك دونهم بعدمساواتك
لهم ، فسر في تطبيقهم سيرته ، واسلك في ترتيبهم طريقته ، وأوصهم
بحسن التأمل لآثار الجماعة ، وكفهم عما تنكر بالهبة والطاعة ، وإنما جعلك
أمير المؤمنين أمينه فيهم ، وعينه عليهم ، لماضٍ بهم عن الزلل وصانهم
عن الغي والحطل ، واستهد الله أولاً وآخرأ يهدك ، واستكفه باطناً وظاهراً
يكفك ، واستمد منه العون بمددك ، واشكر نعمه بزدك .

هذه فقرات تخيرناها من التقليد الذي كتبه الصابي إلى أبي احمد
الموسوي عن الخليفة المطيع ، ومن هذه الفقرات ترون روح الحب الذي
كان يكنه الصابي للموسوي والد الشريف الموسوي
قد تقولون : هذا كلام أذيع باسم الخليفة فهو يصور عواطف
الخليفة لا عواطف الصابي .

ونجيب بانه كان مفهوماً أن الكتاب يسالون عما يكتبون ، لأن
الخلفاء والملوك والرؤساء لم يكونوا يملون الرسائل ، وإنما كانوا يوصون
بشرح الغرض ، فكانت للكتاب فرص يعلنون بها ما يضمرون .
والتاريخ يحدثنا أن الخليفة المنصور حقد على ابن المقفع للأمان
الذي كتبه لعبد الله بن علي ، فقد جاء فيه :
« ومتى غدر أمير المؤمنين بعمة عبد الله فنساؤه طوالق ، ودوابه
حبس ، وعبيده أحرار ، والمسلمون في حل من بيعته » .

وكان يستطيع المنصور أن يفترض ان ابن المقفع لم يكتب غير ما
أملى عليه ، ولكنه كان يعرف أن الكتاب يتصرفون فيما يعهد اليهم

من ضروب الانشاء ، وكان جزاء ابن المقفع أن يقتل ويحرق ويندري
رماده في الهواء .

والصابي نفسه أخذت عليه عبارة كتبها عن الخليفة الطائع في شان
بختيار وهي :

« وقد جدد له أمير المؤمنين مع هذه المساعي السوابق ، والمعالي
السوامق ، التي تلزم كل دان وقاص ، وعام وخاص ، أن يعرف له حقما
كرم به منها ، ويتحزح عن رتبة المماثلة فيها . »

فقد غضب عضد الدولة من هذه الكلمة وعدّها تعريضا به ، فلما
أمكنته الفرصة نكل بالصابي أشنع تنكيل .

ونحن في هذه الأيام نسمع الرد على خطاب العرش ، فهل تظنون أن
النواب يجادلون جلالة الملك ؟ لا ، وإنما يجادلون رئيس الوزراء ، لأن
المفهوم في عرف الحياة الدستورية أن خطاب العرش من وضع رئيس
الوزراء ، أو هو خطاب اشترك في تدوين أصوله جميع الوزراء .

كذلك كان يسأل الكتاب الذين ينشئون الرسائل بأسماء الخلفاء
والملوك .

وإنما سقنا هذه الشواهد لنؤكد أن الثناء على أبي أحمد الموسوي في
الخطاب الذي كتبه الصابي باسم الخليفة المطيع يدل على المودة المتينة
التي كانت بين ذينك الرجلين ، وهي مودة سمع بأخبارها الشريف وهو
طفل ، ثم جاءت الحوادث فزادتها توكيدا إلى توكيد .

ولكن ما هي تلك الحوادث ؟

حد ثناكم من قبل عن الخصومة بين بختيار وعضد الدولة وقلنا إنها
انتهت باندحار بختيار وسيطرة عضد الدولة على العراق .

فلنذكر ان عضد الدولة حين انتصر أخذ يصفى حسابه مع خصومه
القدماء ، فنظر فرأى الصابي ، وكان شيخاً له بين الكتاب مكان مرموق ،
ففكر في أمره غير قليل ، ثم هداه الرأي إلى استخدام الصابي في تأليف
كتاب يسجل به مفاخر الدولة الديلية ويشرح ما قامت به من الحروب
والفتوحات ، ورآها الصابي فرصة يستلين بها عضد الدولة وينجي بها
رأسه من السيف ، وأخذ في التأليف ، ولكن بعض الأصدقاء دخل عليه
وهو مشغول بالتسويد والتبييض فسأله عما يعمل فأجاب وقد خانه الحظ
أباطيل أتمقها ، وأكاذيب ألقها !

ومضى ذلك الصديق الخؤون فنقل العبارة إلى عضد الدولة ، فثارت
أحقاد ذلك الطاغية وأمر بان يلقي الصابي تحت أرجل الفيلة ليقتل
أشنع قتل ، ولكن لطف الله بالصابي شيخ الكتاب ، فقد كان في حضرة
عضد الدولة جماعة يرون له الاستاذية عليهم ، منهم نصر بن هرون
والمطهر بن عبد الله وعبد العزيز بن يوسف ، فأكبوا على الارض يقبلونها
بين يدي عضد الدولة ويستشفعون اليه في أمره ويتلطفون في استيهاب
دمه ، إلى أن أمر باستحيائه مع القبض عليه واستئصال ما يملك من عقار
وأموال^(١) .

وهنا تذكرون أن عضد الدولة الذي نكب الصابي هو نفسه عضد
الدولة الذي اودع ابا احمد الموسوي غياهب الاعتقال .

فان ذكرتم ذلك فهتم ولا ريب أن الاشتراك في مصدر النكبة

(١) راجع يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٧ .

سيدخل ألواناً جديدة في نفس الطفل الذي اسمه الشريف الرضي، وفهمتم
أن ذلك الطفل سيجعل نكبة الصابي باباً من التلوم على عضد الدولة
الذي يضطهد أقطاب الرجال .

اعتقل الصابي سنة ٣٦٧ ولكن عضد الدولة سيموت ، وسيتولى ابنه
صمصام الدولة ويفرج عن الصابي في سنة ٣٧١ فليكن هذا التاريخ هو
بداية الصلة الوثيقة بين أبي اسحاق الصابي والشريف الرضي ، ولنعط
الشعر فرصة يصور فيها ذلك الوداد .



أيها السادة

كان الصابي كما تعلمون من اعلام الكتاب ، وقد بسطت القول
عنه من هذه الناحية في الجزء الثاني من كتاب النثر الفني ، وكان مع ذلك
من أفراد الشعراء ، وهو الذي يقول :

إلى الله اشكو ما لقيت من الهوى

بجارية أمسى بها القلب يلهج

إذا امتزجت أنفاسنا بالتزامنا توهمت ان الروح بالروح تمزج

كأني وقد قبلتها بعد هجعة ووجدني ما بين الجوانح يلمج^(١)

أضفت إلى النفس التي بين اضلعي

بأنفاسها نفساً إلى الصدر تولج

فان قيل لي اختر أيما شئت منها

فاني إلى النفس الجديدة أحوج

(١) يلمج : يتوقد ، ومنه لاعج الحب ولواعج الشوق .

فيمكن القول بان المودة بينه وبين الشريف نشأت من التوافق في المذاهب الادبية ، وذلك من أمتن الاسباب في الجمع بين قلوب الرجال ، ولكن يظهر ان التوافق الادبي لم يكن كل شيء ، فقد كان الرجلان من جيلين مختلفين ، والالفة الذوقية توجب تقارب السن في أغلب الاحوال ، وكان هذان الرجلان متباعدين في السن حين جمع بينها الصفاء ، فقد كان الشريف في مطلع العقد الثاني من عمره ، وكان الصابي في أواخر العقد الثامن ، وشعر الصابي نفسه يشهد بانه كان يعظم الشريف قبل أوان التعظيم ، اي انه كان يراه طفلاً لولا القراءة التي توحى بان سيكون هذا الطفل من عظماء الرجال ، إذ يقول :

أبا حسن لي في الرجال فراسة ^{تعودت منها أن تقول فتصدقا}
 وقد خبرتني عنك أنك ماجد ^{سترقى من العلياء ابعد مرتقى}
 فوفيتك التعظيم قبل أوانه ^{وقلت اطال الله للسيد البقا}
 وأضمرت منه لفظة لم ابح بها ^{إلى ان ارى اطلاقها لي مطلقا}
 فان عشت او ان مت^١ فاذكر بشارتي

واوجب بها حقاً عليك محققاً
 وكن لي في الاولاد والأهل حافظاً
 اذا ما اطمان الجنب في موضع النقا

وهذه الأبيات تعطينا مفتاح السر لتلك العلائق ، فما هي البشارة التي يسجلها الصابي ليستقضي «حلاوتها» في مستقبل الزمان ؟

لننتظر قليلاً حتى نسمع جواب الشريف :

سنت لهذا الرمح غرباً مذلقاً^(١)
وأجريت في ذا الهندواني روتقا
وسومت ذا الطرف الجواد وانما
شرعت له نهجاً فخباً وأعنقا^(٢)

لئن برقت مني مخايل عارض لعينيك تقضي ان يجود ويغدقا^(٣)
فليس بساق قبل ربعك مربعا وليس براق قبل جودك مرتقى
وان صدقت منه الليالي مخيلة تكن بجديد الماء أول من سقى
ويغدولن يروى جنابك مروياً

زلالاً وللإعداد دونك مصقما
وان تر ليثاً لائذاً لفريسة يراصد غرات المقادير مطرقا
فما ذاك الا ان يوقر^(٤) تطعمها عليك اذا جلى عليك وحققا
وان يرق يوماً في المعالي فانه سما ليوقى وطء رجلك مزلقا
وان يسع في الامر العظيم فانما

سعى لك في ذاك الطريق مطرقاً^(٥)
وان يصب السهم الذي راش نصله
فما كان الا في هواك مفوقاً^(٥)

وان ينهض الغرس الذي هو غارس
يكن لك مجنى في الخطوب ومعلقا

(١) الغرب : الحد ، والمذلق المهدد .

(٢) الطرف بالكسر الحصان ، والخبب والعتق من انواع السير السريع

(٣) العارض : السحاب . (٤) المطرق : يمهّد الطريق .

(٥) مفوق : مسدد .

لتجنيه دون الناس ما كان مشعرا
وتلبس ظلا منه ما كان مورقا
فم وادعأ واستسقي فستنتضي حساما إذا ما مر بالعظم طبقا
إلى أن يقول :

فإن راشني دهري أكن لك بازيا
يسرك محصوراً ويرضيك مطلقا
أشاطرك العز الذي أستفيده بصفقة راض أن غنيت وأملقا
فتذهب بالشر الذي كله غني وأذهب بالشر الذي كله شقا
وتأخذ منه ما أنام وما حلا وأخذ منه ما أمر وأرقا
فغيري إما طار غادر صعبه دون العالي واقمين وحلقا
فان تسلف التبجيل ^{مقبل} ^{أوانه} ^{دهري}

أعضك به وجهاً من الود موتقا
وإن تعطني الاعظام قولا فاني
ساعطيك فعلا منه أذكى وأعبقا^(١)

ومن هنا نفهم أيها السادة سر العلائق بين ذينك الرجلين ، نفهم أن الصابي كان يزين للشريف أن يطلب الخلافة الإسلامية ، وهذا التزيين هو وحده كاف لأن يجعل الصابي أعز الناس على الشريف ، فقد كان الشريف في بداية شبابه ، والشبان يحبون من يثق بكفائتهم الذاتية ويرشحهم لجلائل الأعمال .

وهذه أيها السادة ظاهرة نفسية يدركها من يدرس نفوس الشباب

(١) في هذه القصيدة كثير من القعقة ، ولكن عذر الشريف أنه قالها في بداية حياته الشعرية .

فهم يحبون أن يصلوا إلى قم المجد في يوم وليلة ، ويبحثون عن يزكيهم
ويؤيدهم ويدعي لهم التفوق ، وقد تلفت الشريف وهو طفل فرأى
شيخاً جليلاً يتنبأ له بمستقبل جليل ، فأحبه كل الحب ، ومال إليه
كل الميل .

والقصيدة التي سقناها من شعر الشريف تشهد بأنه اتخذ كل الانخداع
فاخذ يتصور الايام التي يقسم فيها الحظوظ والأرزاق ويؤكد للصابي أنه
سيجعله في مامن من خطوب الزمان .

وقد ثارت الحمية في ذلك الفصن الأملود ، واستكر أن تعوقه
غضاضة السن عما يريد ، فاندفع يقول :

فان قعدت بي السن يوماً فانه سينهض بي مجدي اليها محققا

فوالله لا كذبت ظنك انه لعار إذا ما عاد ظنك مخفقا

فان الذي ظن الظنون صوادقا نظير الذي قوى الظنون وحققا

على أن الشريف لم يكن بالغافل إذ صدق فراسة الصابي ، فيها أديبان ،
والادباء قد يطمنن بعضهم إلى بعض ، وكان الشريف يعرف أن الصابي
له علاقات متينة بكثير من الرؤساء والوزراء ، ولا سيما صاحب ابن عباد
وكان مفهوماً في تلك المهود أن الخلافة العباسية على شفا الهاوية ، وأن
الامر للموك بني بويه ، والاتفاق مع أولئك الموك ليس بالأمر
المستحيل .

وكذلك تطور الحب بين الشريف وبين الصابي ، فبعد أن كان
الشريف يميل إلى الصابي لانه من أصدقاء أبيه القدمات ، ولانه من خصوم
عضد الدولة ، ولأنه يعجب بشعره وهو طفل ، أصبح يحبه صار من
دعائه الاوفياء ، ولأنه سيصير في المستقبل من صنائه يوم يصبح

أمير المؤمنين .

تلك أيها السادة أسرار العلائق بين ذينك الرجلين ، ولكنها إلى الآن علائق نفعية ، فلننظر كيف تطورت مرة خامسة فأصبحت مودة وثيقة تساور لفائف القلوب .

أيها السادة

لا تسالوا عن الصابي الذي كان يشجع الشريف على مطامعه السياسية ، فتلك شؤون كان الرجلان يروضانها في الخفاء ، وقدمرت أعوام وأعوام وبغداد بين مد وجزر ، وأرض العراق معسكرات يتداولها المحاربون بين يوم ويوم ، فكان لا بد من التربص لتحقيق ذلك الأمل الخطير ، وهو لن يحقق برسالة يكتبها الصابي أو قصيدة ينظمها الشريف ، وإنما يحقق يوم تم السيطرة لرجل واحد من البويهيين يسهل معه الاتفاق ، ولكن متى يأتي ذلك اليوم ؟

إن انتظاره سيطول !

وفي انتظار اليوم الموعود يمضي الصديقان فيتساقيان كأس الوداد ، والظاهر أن نفس الشريف كان طال عهدا بالنفرة من الناس ، فما كاد يعرف الصابي حتى أقبل على محبته بقلب ملهوف .

ويظهر أيضاً أن نفس الصابي كانت ملت الاتصال برجال السياسة الذين أزعجوا شبابه وكهولته بالتلون والتقلب ، فما كاد يتصل بالشريف حتى رأى فيه نفساً روحانية قد تستطيع تجديد نوره وهو ينجح راغماً إلى الغروب .

وهنا نذكر أن شيخوخة الصابي اعتمدت على دعامين من أكرم دعائم العطف ، الدعامة الأولى هي مودة الصاحب ابن عباد ، الرجل

النبييل الذي ظلمناه بعض الظلم في كتاب النثر الفني ، فقد كان ابن عباد يتلطف في بر الصابي فيرسل اليه الهدايا المستورة مع الحجاج ، والدعامة الثانية مودة الشريف الرضي ، الفتي الفقير الذي يملك من صفاء الروح ما يؤنس الصابي فيرده إلى مرح الشباب .

ولكن حظ الصديقين كان يختلف أشد الاختلاف ، فكل شمس تطلع تعد الشريف بقبس من الفتوة ، وكل شمس تغرب تذكر الصابي بما ينتظر من الافول .

وسياق الحوادث يشهد بأن ذلك الشيخ الداوي هو الذي كان يجب عليه أن يتكلف المشقة ليزور ذلك الفتي الفينان ، وقد تكلف ذلك الشيخ ما تكلف إلى أن أعجزه المرض عن عبور دجلة فكتب إلى صديقه الفتي يقول :

أقعدتنا زمانة وزمان^(١) جائر عن قضاء حق الشريف
ولئن ثقلا عن الخدمة الخط و لعن خاطر اليها خفيف
فاقتصرنا فيما نؤدي من الفر
ض^(٢) على الكتب والرسول الحصيف
والفتي ذو الشباب يبسط في التت صير عنر الشيخ العليل الضعيف
وقد أجاب الشريف على هذه الابيات بقصيدة طويلة ابتدأها بجيد
النسيب إذ يقول :

كم ذميل اليكم ووجيف^(٣) وصدود عنا لكم وصدوف
وغرام بكم لو ان غراماً جرّ نفعاً للواجد المشغوف

(١) الزمانة المرض المزمّن (٢) في الديوان « العرض » بالمعنى المهمة وهو تحريف (٣) الذميل والوجيف من ضروب السير .

فلما وصل إلى خطاب الصابي تلتطف فأشار إلى أنه نصيره على
الزمان ، وشبه وجهه بالدينار وكلامه بالنصول . ثم قال :

إن شكواك للزمان مبین لي عن " قدر عقله المضعوف
قدمت غيرك الجودود وأخرت ولكن أناف غير منيف " (١)
قصف الدهر فيك رحماً من الكي
د وحامى عن المعيب المؤوف " (٢)

ان حرمت الرزق الذي نال منه
فدواء العبي داء الحصيف

عمل فاضح وأجل من بع من الولايات عطلة المصروف
فاصطبر للخطوب رب اصطبار شق فجراً من ليلهن الخوف
كم تحملتها بظهر من الصبر ففقت والمبء غير خفيف
لم تغب عن سواد عيني وإن غبت معنى نوائب وصروف
قر عيناً بطارقات الشكاي ما تجافت مطرقات الختوف

ومن هذه الايات نفهم ان الصابي كان يشكو علتين : علة الشيخوخة
وعلة الفقر الديقوع .

ثم اشتدت العلة بالصابي فكان لا ينتقل من مكان إلى مكان إلا وهو
محمول ، فكتب إلى رفيقه الفتي :

إذا ما تعدت بي وسارت محفة " (٣)

لها ارجل يسعى بها رجلات

(١) في الديوان « على » (٢) اناف : رفع (٣) المؤوف : الذي لحقته آفة
(٤) المحفة بالكسر مركب كالمودج الا انها لا تقبب .

وما كنت من فرسانها غير انها وقت لي لما خانت القدمان
نزلت اليها عن سراة حصان بحكم مشيبي او فراش حصان^(١)
فقد حملت مني ابن تسعين سالكا

سبيلا عليها يسلك الثقلان
كما حمل المهد الصبي وقبلها ذعرت ليوث الغيل بالنزوان
ولي بعدها اخرى تسمى جنازة جنيبة يوم المنية داني
تسير على اقدم اربعة الى ديار البلى معدودهن ثمان
وإني على عيث^(٢) الردى في جوانبي

وما كف من خطوي وبطش بناني
لأعلم اني ميت عاق دفنه ذمء قليل في غد هو فان^(٣)
وان فما للأرض من غرثان حاقا^(٤)

يراصد من اكلى حضور أوان
به شره عم الورى بفجائع تركن فلانا ناكلا لفلان
وهي قصيدة مزعجة يضيق المقام عن سرد ما تشير اليه من الفجائع
الانسانية ، والمهم ان تشير الى ان الصابي كشف في هذه القصيدة عن
نفسه فرأيناه يرى الشريف الرضي هو الذخيرة التي يتركها لأبنائه يوم
يموت ، وهذا اجمل ما يمدح به صديقنا الشريف طيب الله ثراه .
وقد اترعج الرضي لهذه القصيدة الباكية ، وأجابه بقصيدة طويلة
نختار منها هذه الايات الحسان :

(١) الحصان بالكسر الجواد ، وبالفتح المرأة العفيفة ، والسراة الظهر

(٢) في اليتيمة « غيث » بالعين المعجمة وهو تحريف .

(٣) الذمء بالفتح بقية النفس (٤) غرثان : جائع .

وما زل منك الرأي والحزم والحجا
فناسي إذا ما زلت القدمان
ولو أن لي يوماً على الدهر إمرة
وكانت لي العدو على الحدثان
خلعت على عطفك برد شيبتي جواداً بعمرى واقتبال زماني
وحملت ثقل الشيب عنك مفارقي
وإن قل من غربي وعض عناني
ونابت طويلاً عنك في كل عارض
بخط وخطو اخصي وبناني
على أنه ما انفل من كان دونه جمع يرامي عن يد ولسان
وانك ما استرعيت مني تسوي فتى
ضموم على رعي الأمانة حان
حفيظ إذا ما ضيع المرء قومه وفي إذا ما خون العضدان
من الله أستهدي بقاءك أن ترى
محلا لأسباب العلا بمكان
وأسأله ان لا تزال مخلداً بملقى سماع بيننا وعيان
إذا مارعاك الله يوماً فقد قضى ما رب قلبي كلها ورعاني
ثم لزم الصابي منزله وهو راغم بحكم الضعف والوهن ، فكان آخر
ما قال من الشعر قصيدة أرسلها إلى الشريف قبل ان يموت باثني عشر
يوماً ، وهي قصيدة طويلة نكتفي منها بالأبيات الآتية :
أقبيك الردى ليس القلى عنك مقعدي
ولكن دهاني بالزمانة ذا الزمن

وغادرتني خلف المضاجع راهناً
 على خلة في الحال والنفس والبدن
 فان تنأ منك الدار فالذكر ما نأى
 وإن بان مني الشخص فالفكر لم بين
 وإن طال عهد الالتقاء فدونه عهد عليها من رعايتنا جنن^(١)
 وقد أجاب الشريف بقصيدة أطول وأمتع ، نكتفي منها بالقطعة
 الآتية :

من مبلغ لي أبا اسحاق مالكة عن حنو قلب سليم السر والعلن^٢
 جرى الوداد له مني وإن بعصبت
 منا العلائق مجرى الماء في الغصن
 لقد توامق قلبان كأنهما تراضعا بدم الأحشاء لا اللبن
 مسود قصب الأقلام نال بها نيل المحمر أطراف القنا اللدن
 إن لم تكن تورد الأرماع موردها
 فما عدلت إلى الأقلام عن جبن
 والطاعن الطعنة النجلاء عن جلد
 كلقائل القولة الغراء عن لسن^(٣)
 حار المحارون إذ جاروك في طلق
 وأجفلوا عن طريق السابق الارن^(٤)

١٥ جمع جنة بالضم وهي الوقاية
 ٢٥ الخنو بالكسر والفتح كل ما فيه اعوجاج من البدن كعظم الحجاج والضلع
 ٣٥ يريد ان المجاهد بالقلم واللسان كالمجاهد بالرمح والسيف .
 ٤٥ الارن الجموح

ضلوا وراءك حتى قال قائلهم
 ماذا الضلال وذا يجري على السنن
 ما قدر فضلك ما أصبحت ترزقه
 ليس الحظوظ على الأقدار والمهن
 قد كنت قبلك من دهري على حنق
 فزاد ما بك من غيظي على الزمن
 كم راشنا وبراننا غير مكرث بما نعالج بري القدح بالسفن^(١)
 إن يدن قوم إلى داري فالتهم وتناعني فانت الروح في البدن
 فالمرء يسرح في الآفاق مضطرباً
 ونفيه أبداً تهفو إلى وطن
 والبعد عنك بلاني باستكانهم
 إن الغريب لمضطر إلى السكن
 أنت الكرى مؤنساً طرفي وبعضهم
 مثل القذى مانع عيني من الوسن^(٢)
 كم من قريب يرى أنني كلفت به
 يسي شجاي وتضحى دونه شجني
 أشتاقكم ودواعي الشوق تنهضي
 اليكم وعوادي الدهر تقعدني
 وأعرض الود أحياناً فيؤنسني وأذكر البعد أطواراً فيوحشني

١٥ القدح بالكسر السهم قبل ان يراش وينصل ، والسفن بالتحريك كل ما

ينحت به الشيء ٢٥ الاستكان افتعال من السكن ٣٥ الوسن : النوم

هذا ودجلة ما بيني وبينكم

وجانب العبر غير الجانب الحسن^(١)

وكانت هذه القصيدة آخر ما مر بسمع الصابي من الطيبات ، فقدمت بعد قراءتها بأيام .

وقد رأيت أن هذين الصديقين كانا يتقارضان الشكاية ، فإن تجمل الصابي شكا عنه الشريف ، وإن شكا الصابي واساه الشريف ، وما ندري كيف استطاع الشريف أن يسكت على قول الصابي في وصف الزمان .

وغادرني خلف المضاجع راهناً على خلة في الحال والنفس والبدن
ولكني أرجوكم أن تتذكروا أن الرضي كان فقيراً وأن أملاك أبيه
ظلت محجوبة عنه إلى ذلك الحين
لم يبق أيها السادة إلا أن نحدثكم عما صنع الشريف بعدموت الصابي ،
وكل أديب يعرف ان الشريف رثى الصابي بقصيدة جيدة
بلغت اثنين وثمانين بيتاً ، وكل الذين ترجوا للصابي أو الرضي
تحدثوا عن تلك المرثية الهائلة ، وكان وجه الغرابة أن يبكي شاعر من عترة
الرسول رجلاً من الصابئين ، وقد فصلت ذلك في كتاب النثر الفني فلا
أعود إليه الآن ، ولكن الذي يحمله أكثر الادباء أن الشريف لم يرث الصابي
مرة واحدة فقد ظل يتفجع عليه إلى آخر حياته ، ورثه بعد أن طال
العهد بموته بقصيدتين هما آيتان من آيات الوفاء .

وأعيذك أن تجهلوا هذا الجانب من نفس الشريف ، فالشعراء في
الأغلب يرثون أصدقاءهم يوم الموت ، ثم يتناسونهم فينسونهم بعد حين ،

(١) العبر بالكسر ويفتح الشاطيء

والوفاء في الدنيا قليل .

وتذكروا أن الصابي لم تكن له عصبية حتى نتهم الشريف بأنه يبحث عن أنصار وأشباع، هيهات، فقد كان الصابئون أقلية لا يحسب لها حساب وكان محرماً عليهم أن يتساموا إلى مراتب الوزراء .

ونحن في الواقع نشق ثقة مطلقة بأمانة الشريف، ولكن البحث النفسي يوجب أن نعرض هذا الجانب، والمؤرخون لذلك العهد نظروا إلى مرثية الشريف نظرة استغراب، وهذا يؤكد أن الشريف لم يرع في مرثيته غير معاني الوداد

ويزيد في قيمة تلك المرثية أن الصابي لم يمت إلا وهو في فقر مدقع، ولم ير الموت إلا بعد أن تقطعت عنه أسباب الجداد، وأقبلت الدنيا على خصومه الألداء .

مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث

فالشريف في رثاء الصابي رجل مفرد بين الرجال، وموقفه أقوى من موقف البحترى في رثاء المتوكل، لأن البحترى شهد فاجعة أليمة تنطق الجداد، أما الصابي فيرثي صديقاً عديم الحول، وقد بلغ أرذل العمر ولم يمت إلا في الحسادية والتسعين وهو على دين «منبوذ» تنكره الدولة وينكره الناس .

قد تقولون : ان الشريف لم يكن يملك غير ذلك وقد عرف الناس ما بينه وبين الصابي .

ونعترف بأن هذا النوع من الوفاء هو لون من الاثرة الذاتية، ولكن هذه الاثرة في ذاتها جوهر نبيل، وشرف البواعث مما تنصب له الموازين .

وكيف يتهم في صدقه من يقول :

رأيت من حملوا على الأعواد رأيت كيف خبا ضياء النادي
 جبل هوى لو خر في البحر اغتدى
 من وقعه متتابع الازباد
 ما كنت أعلم قبل حطك في الثرى
 أن الثرى يعملو على الاطواد
 بعداً ليومك في الزمان فانه أقدى العيون وقت في الاعضاد
 لا ينفد الدمع الذي يبكي به ان القلوب له من الأمداد
 كيف انمحي ذاك الجنب وعطلت
 تلك الفجاج وضل ذاك الهادي
 طاحت بتلك المكرمات طوانح
 وعدت على ذاك الجواد عوادي^(١)
 قالوا أطاع وقيد في شطن الردى^(٢)
 أيدي المنون ملكت أي قياد
 من مصعب لو لم يقده إله^(٣) بقضائه ما كان بالنقاد

 أعزز علي بان يفارق ناظري لمعان ذاك الكوكب الوقاد
 أعزز علي بان أراك بمنزل متشابه الأجداد والأوغاد

 عمري لقد أغمدت منك مهنداً
 في الترب كان ممزق الأغهاد

«١» في الديوان (اعادي) وما أثبتناه أنسب

«٢» الشطن بالتحريك الحبل الطويل «٣» المصعب : الفحل

قد كنت أهوى أن اشاطرك الردى
لكن أراد الله غير مرادى

ولقد صبا طرف الرقاد بناظري

أسفا عليك فلا لعا لرقاد^(١)

ثكلتك أرض لم تلد لك ثانياً أنى ومثلك معوز الميلاد

ان الدموع عليك غير بخيلة والقلب بالسوان غير جواد

سودت ما بين الفضاء وناظري وغسلت من عيني كل سواد

ري الحدود من المدامع شاهد أن القلوب من الغليل صواد

ما كنت أخشى أن تضن بلفظة

لتقوم بعدك لي مقام الزاد

ماذا الذي منع الفتيق تهديرة^(٢) من ردى

من بعد صولته على الأذواد^(٣)

ماذا الذي حبس الجواد عن المدى

من بعد سبقته إلى الأمام

ماذا الذي فجع الهمام بوثة وعدا على دمه وكان العادي

لقضى لسانك مذ فوث ثمراته أن لا دوام لنضرة الأعواد^(٤)

بقيت أعيجاز يضل تبيعها ومضت هواد للرجال هواد^(٥)

(١) لا لعا له : عبارة قديمة تفيد الدم .

(٢) الفتيق : الفعل المكرم لا يؤذي لكرامته على أهله ولا يركب

(٣) جمع ذود وهي جماعة الأبل ، وهي كلمة تكثر في أشعار الشريف لكثرة

ما يصطنع من الأخيلة البدوية (٤) اللام في كلمة « لقضى » مفتوحة وهي

لتوكيد المعنى . (٥) أعيجاز مصغر أعجاز ، وجمع القلة يصغر على لفظه ،

والتببيع : التابع ، والهوادي جمع الهادي وهو العنق ، وفي البيت جناس .

يا ليت أني ما اقتنيتك صاحباً كم قنية جلبت أمي لفؤادي
 برد القلوب لمن تحب بقاءه مما يجر حرارة الأكباد
 ويقول من لم يدر كنهك انهم تقصوا به عدداً من الأعداد
 هيات أدرج بين برديك الردي رجل الرجال وأوحد الأحاد
 لا تطلي يا نفس خلا بعده فمثلته أعياء على المرثاد^(١)
 فقدت ملاءمة الشكوك بفقده وبقيت بين تباين الأضداد
 ما مطعم الدنيا بجلو بعده أبداً ولا ماء الحيا يبراد^(٢)
 الفضل ناسب بيننا إن لم يكن شرفي مناسبه ولا ميلادي^(٣)

إن لم تكن من اسرتي وعشيرتي
 فلأنت أعقلهم يداً بودادي
 إن لم يكن وافي الأصول فقد وفي
 شرف الجدود بسؤدد الأجداد^(٤)

لا در دري إن مطلتك ذمة في باطن متغيب أو باد
 ان الوفاء كما اقترحت فلو تكن
 حياً إذن ما كنت بالمزاد
 ليس التنافث بيننا بمعاود أبداً وليس زماننا بمعاد^(٥)

-
- (١) اللام في كلمة « فمثلته » تنطق بالفتح وهي أيضاً لتوكيد المعنى .
 (٢) الحيا المطر ، والبراد : البارد (٣) هذا المعنى ورد في أشعار كثيرة
 قبل الرضي ، وقد حللناه في كتاب النثر الفني ج ٢ ص ١٧ و ١٨ .
 (٤) الجدود : الحظوظ المكسوية ، يريد انه عصامي بنى مجده بيديه .
 (٥) التنافث : التناجي .

ضاق عليّ الأرض بعدك كلها
وتركت أضيقتها عليّ بلادي
لك في الحشا قبر وان لم تأوه ومن الدموع روائح وغواد
سلوا من الأبراد جسمك وانثني
جسمي يسألُ عليك في الأبراد
فاذهب كما ذهب الربيع وأثره باق بكل خمائل ونجاد
لا تبعدنّ وأين قربك بعدها ان المنايا غاية الأبعاد
صفح الثرى عن حر وجهك انه
مغري بطي محاسن الاجداد
وتماسكت تلك البنان فطالما عبت البلى بانامل الاجواد
وسقائك فضلك انه أروى نخيلنا من روائح كنعان أو غاد^(١)
جدث علي أن لا نبات بارضه وقفت عليه مطالب الرواد
وقد اجتاز الشريف علي قبر الصابي بعد موته بأعوام فهاجته
الذكرى فقال :

أعلم قبر بالجنينة أنا أقمنابه ننعى الندى والمعاليا^(٢)
مررتا به فاستشرفتنا رسومه
كما استشرف الروض الظباء الجوازي
وما لاح ذاك التراب حتى تحلّبت
من الدمع أو شال ملأن الاماقيا^(٣)

(١) المتعرس الذي ينزل بالليل (٢) الجنينة مقبرة كانت في بغداد .
(٣) الاوشال جمع وشل بالتحريك وهو الماء القليل يتحلب من جبل او صخرة

تزنا اليه عن ظهور جيانا
 نكفكف بالأيدي الدموع الجواريا
 ولما تجاهشنا البكاء ولم نطق
 عن الوجد إقلاعا عنونا البواكيا
 أقول لركب رائحين تعرجوا
 اريكم به فرعا من المجد ذاويا
 ألموا عليه عاقرين فاننا إذا لم نجد عقر أعقرنا القوافيا
 ولو أنصفوا شقوا عليه ضائرا وجزوا رقابا بالظبا لانواصيا
 وقفنا فارخصنا الدموع وربما تكون على سوم الغرام غواليا
 ألا أيها القبر الذي ضم لحده قضيبا على هام النواثب ماضيا^(١)
 هل ابن هلال منذ أوتى كهدندي
 هلالا على ضوء المطالع باقيا
 وتلك البنان المورقات من الندى
 فواضب ماء أم بواق كاهيا
 وما كنت أبي طول لبث بقبره
 لو اني اذا استعديته كان عاديا^(٢)

 خلا بعدك الوادي الذي كنت أنسه
 وأصبح تعرفه النواثب واديا
 أراحت علينا ثلة الوجد ترتمي ضائرتنا أيامها واللياليا^(٣)

(١) القضيب هنا السيف (٢) استعديته : استنصرته
 (٣) الثلة بالضم الجماعة الكثيرة من الغنم ، وفي البيت تخميل

رضيت بحكم الدهر فيك ضرورة
ومن ذا النبي يغدو بما ساء راضيا
وطاوعت من رام انتزاعك من يدي
ولو أجد الاعوان أصبحت عاصيا
وطامنت كما يعبر الخطب جانبي
فالتقى على ظهري وجر زماميا
رثيتك كي أسلوبك فازددت لوعة
لأن المراثي لا تسد المرازيا
وأعلم أن ليس البكاء بنافع عليك ولكني أمني الامانيا
وفي سنة ٢٩٢ أي بعد موت الصابي بنحو تسع سنين مر الشريف على
قبره فقال :

مرزوقية كوتور طبع في سوري

لو لا يذم الركب عندك موقفي حيث قبرك يا أبا اسحاق
كيف اشتياقك مذ نأيت إلى أخ
قلق الضمير اليك بالاشواق
هل تذكر الزمن الاثيق وعيشنا يحلو على متأمل ومذاق
وليا لي الصبوات وهي قصائر خطف الوميض بعارض مبراق
لا بد للقرناء^(١) أن يترايلوا يوماً بغدر قلي وعذر فراق
أمضي وتعطفني اليك نوازع بتنفس كنتفس العشاق
وأذود عن عيني الدموع ولو خلت
لجرت عليك بوابل غيداق^(٢)

(١) في اللسان « القرناء » بالباء وهو تحريف

(٢) غيداق : كثير الانسكاب

ولو أن في طرفي قذاة من ثرى
وأراك ما قذيتها من ماتي^(١)
ان تمض فالجد المرجب خالد^(٢) أو تفن فالكلم العظيم بواق
إلى آخر القصيدة

و كنت أشرت في كتاب النثر الفني إلى أن رسائل الصابي لا تصلح
لغير أهل عصره فهي غير خليقة بالبقاء . وفاتني أن أقول ان الشريف
كتب اسم الصابي على جبهة الزمان بأصباغ لا تجفها شمس ولا يحوها هواء.



مركز بحوث ودراسات في التاريخ والحضارة الإسلامية

(١) هذا بيت نفيس ، ومعناه ان القذى لو دخل عينه وكان تراباً من قبر
الصابي لما رضي ان يخرج ذلك القذى من عينه (٢) المرجب : المعظم

غرائب الوفاء

عند الشريف الرضي

أيها السادة

أشرفنا قبلاً إلى رجل من أصدقاء الشريف يقال له ابن ليلي ، وهو رجل لم تتحدث عنه كتب التاريخ ، وإنما نعرف ان اسمه عمرو ، لقول الشريف وهو يرثيه :

وأين كفارس الفرسان عمرو إذا رزء من الحدثن فاجباً
ونعرف أن كنيته أبو العوام من قول الشريف:

أين أبو العوام للعواصي يروضها والحيل والدلاص^(١)

والمفهوم ان ابن ليلي كان رجلاً عربياً من سادة البوادي ، والمظنون انه كان داعية للشريف ، وتشهد أشعار الرضي أن بني تميم هم الذين قتلوا ذلك الصديق .

تلك هي ترجمة ابن ليلي ، فهل كان يستحق أن يبكيه الشريف بأربع قصائد ، وأن يجعله في قصيدة خامسة مثلاً أعلى لأشراف الرجال .

ان ابن ليلي رجل صغير القدر عند من تستهويهم عنعنات التواريخ فلو كان لهذا الرجل شأن لأفاض في أخباره المؤرخون ، ولكننا نرى أن ابن ليلي رجلاً عظيماً جداً ، لانه ذكر بالحمد والثناء في أثر أعظم من كتب

(١) دلاص على وزن كتاب درع ملساء

التواريخ وهو ديوان الشريف .

والحق ان شخصية ابن ليلي تعطينا صورة من صور الرضي ، او هي تدلنا على بعض مذاهبه في الحياة ، ومن الواجب أن ننص بصراحة على صفة أساسية من صفات الشريف هي الفروسية ، فقد كان الشريف الرضي فارساً ، وكان أبوه فارساً ، وكان أقطاب أسرته من الفرسان ، وأبطال الفروسية لهم شمائل تقترب من شمائل الأعراب ، فليس من المستغرب أن يكون للشريف صديق بدوي يحبه أصدق الحب ويبيكه حين يموت بالقصائد الباقيات .

أضيفوا إلى هذا أن الشريف كان ورث عن أبيه صداقات كثيرة ، صداقات بدوية أسسها في غدوه ورواحه بين العراق والحجاز ، وكان الشريف وأبوه قد عرفا أقطاب البوادي وشياطين الصحراء وهما يحجان ، وقد حجا مرات كثيرة بفضل المنصب الموروث ، منصب إمارة الحج ، ومن هنا جاز أن يقال ان ابن ليلي كان داعية الشريف ، فليس من المستبعد أن يكون الشريف فكر في تكوين عصبية عربية يناهض بها خلافة بني العباس حين تسمح الظروف ، وكان ابن ليلي من الذين اصطفاهم لتحقيق ذلك الغرض المرموق ، ولكن ستظل هذه القضية ظنوناً في ظنون إلى أن يظهر ما يحققها من شواهد التاريخ .

والمهم أن تقرر أن الشريف تفجع على ابن ليلي أعظم تفجع ، وشهدت أشعاره بأنه كان يرى ذلك الرجل من كرام الاصفياء ، والواقع أن البوادي فيها كنوز من الشهامة والفتوة والمروءة ، وهي عالم مجهول ولكنه موجود ، وكان من حظ الشريف أن يعرف ما في ذلك العالم من شمائل وخصال .

...

لا نعرف بالضبط متى مات ابن ليلي، ولكن الأرجح عندنا أن أقدم قصائد الشريف في رثائه هي القصيدة التي نظمها في مطلع سنة ٣٩٢ والظاهر أن ابن ليلي قتل في ذلك الحين، فإن الشريف يقول :

تعيف^(١) الطير فانبأه أن ابن ليلي علقته علق^(٢)
 وأن سجلا من دم آمن أفرغه الطعن بوادي العتيق
 وهي قصيدة بدوية النسج تشهد بأن الشريف أراد أن يلائم بين سمات
 المبكي وبين سمات الاسلوب، وفيها يقول :

بعدا لأرماع تميم لقد هددن عادي بناء عتيق
 قرعن في أصل كريم الثرى وجلن في فرع عزيز العروق
 حلوا له من حيث لا يتقي غير آمن الطعن ملاء السوق^(٣)
 ما كان بلراجع عن نهجه لو وقف السيف له في المضيق
 وفيها توجع الشريف أعنف توجع إذ يقول :

كان هوى للنفس لو أنني في حلق القدوات الطليق^(٤)
 ما كنت بالهائب طرق الردى ما سلم العضب وأنت الرفيق^(٥)
 ما أنا باللاقي بذات النقا خيل وغى مشعلة بالعتيق^(٦)
 ماطلها الماء فلما سلت عن الروى ماطلها بالعتيق
 ولّى ابن ليلي عارضا ربحه يحدو بخفان جمالا وغوق^(٧)

(١) تعيف الطير وعافها : زجرها ، وهو أن يعتبر بأسمائها ومساقطها
 وانوائها فيتسمد او يتشام (٢) اللعوق بفتح العين وضم اللام المنية
 (٣) السوق جمع وسق وهو ستون صاعا او حمل بعير (٤) القد بالكسر
 القيد (٥) العضب السيف (٦) العتيق على وزن امير شدة الجري
 (٧) خفان : اسم موضع .

يا بى إذا الضيم غدا مضغة سلسالة سائغة في الحلوق
يروح من يرجو له غرة

قد خضخض السجل بجال عميق^(١)

استبدل الحي بمقبانه^(٢) اغربة بعدك حمق العنيق

خاطرت الشول بأذناها^(٣) لما انطوى قرقار ذاك الفنيق^(٤)

ما الحي بالضحك عن مثله ولا وجوه الحي مذغاب روق^(٥)

لا أغفلت قيرك حنانه^(٦) خرقاء بالقطر صناع البروق

ولا أغب الارض تسمى بها ظل صفيق ونسيم رقيق

وهناك قصيدة أخرى سلكت هذا المسلك الوعر، أرق ما فيها

قوله :

يا قبر بين القور والدعاص^(٧) ضم على لؤلؤة الغواص

قاد ابن ليلي قائد المعتاص كان سياغي فغدا اغتصاصي

ما أثقل اليأس على الحراص هل لجروح الدهر من قصاص

قد ينزل العالي من الصياصي^(٨)

وقد يطيع الرأس وهو عاصي

ولكن الشريف سيترك هذه الوعورة ويبكي ابن ليلي بالشعر السمح

(١) الجال : البئر (٢) جمع عقاب بالضم (٣) الشول بالفتح النوق

تشول بذنبا للقاح (٤) القرقار : الهدير ، والفنيق : الفحل

(٥) روق بضم الراء حسان (٦) الحنانه السحابة الماطرة

(٧) القور بضم القاف جمع القارة وهي الجبيل المنقطع عن الجبال أو الصخرة

العظيمة أو الأرض ذات الحجارة السود ، والدعاص جمع دعص بالكسر وهو

قطعة من الرمل (٨) الصياصي جمع الصيصة بالكسر وهي الحصن .

كان يقول :

أداري المقتين عن ابن ليلي ويأبى دمعها إلا لجاجا
لهائبط على الأيام باق^(١) تجيش به معيناً أو أجاجا
كان بها ركية^(٢) مستميح^(٣)

يخضخضها بكوراً وأداجا
اذود النفس عنه وذاك منها عنان ما ملكت له معاجا
كان العين بعد اليوم جرح اذا طبوا له غلب العلاجا
تجم على القذى وتفيض دمعاً مطال الداء وادع ثم هاجا
واين كفارس الفرسان عمرو اذا رزء من الحدثن فاجا
بحق كان أولهم ولوجاً على هول وآخرهم خراجا
إذا رسبت حصاة القلب منه طفا قلب الجبان به انزعاجا
وهو يحدثنا أن ذلك الرجل كانت اليه قيادة العرب إذ يقول :
فن يزع العريب^(٤) إذا تنافت

ويضرب بين غارها سياجا
ويذكرها الحلوم على تناس وقد بلغت حفائظها الهياجا
يحاججها^(٥) عن الارحام حتى يقر القوم أن له الحجاجا
ثم يختم القصيدة بأقباس الالتياح فيقول :
أقاص حق قبرك ذو غرام اعاج الركب عن طربوعاجا

(١) الثبط هو من قولهم أثبطه المرض لم يكده يفارقه

(٢) الركية : البئر (٣) المستميح : الذي يستخرج الماء ، وفي الديمون

« مستميت » (٣) العريب مصغر عرب (٥) يحاججها : يحاجها ، يفك

الادغام وهو الاصل ، وهو يكثر في شعر الشريف .

يريق عليك ماء القلب صرفاً وماء العين يجعله مزاجاً
 ولو بلغ المنى إنسان عيني خلا منها وأسكنك الحجاجاً^(١)
 وما زال الشريف يبدي، ويعيد في التفجع على ابن ليلي حتى ذهب الحزن
 به كل مذهب فخلد ذكره بقصيدة قليلة الامثال ، إذ يقول :

لعمر الطير يوم ثوى ابن ليلي لقد عكفت على لحم كريم
 وإن قنا العدا ليردن منه دماً لم يجر في عرق لثيم
 كان الرمح يصدر منه عدواً عن الاجمي ذي اللبد الكليم^(٢)
 واقسم إن ثوبك يا ابن ليلي لمجموع على عرض سليم
 رزئتك كالوذيلة لم تمتع بها بعد الوجود يد العديم^(٣)
 تنام وتترك الاضغان يقظي خاشات الذوابل في تيم^(٤)
 إذا نزعوا الملابس أذكرتهم ذحول يديه آثار الكلوم
 ومن مطل الديون أعد صبراً على عنت المطالب والغريم
 تداعت لي بمصرعه الليالي وأوعبت النواثب في أدبي
 وتقترع القوارع في جناني قراع النبل في الغرض الرجيم^(٥)
 أجزع أن حطمن حجاز أنفي وهن يقصن أعناق القروم^(٦)
 ومالي لا اراع وقد رمتني يد الجلى بقارعة التميمي
 احن^(٧) اليه واللقيا ضمار^(٧) حنين العود للوطن القديم^(٨)

(١) الحجاج بالفتح وبكسر عظم ينبت عليه الحاجب (٢) الاجمي ساكن
 الاجم وهو الليث ، واللبد جمع لبدة وهو شعر كاهل الاسد ، والكليم الجريح .
 (٣) الوذيلة على وزن سفينة المرأة والقطعة المجلوة من الفضة (٤) الخاشات جمع
 خاشاة بالضم وهو ما ليس له ارش معلوم من الجراحات (٥) تقترع : تقتتل ،
 والغرض الرجيم الهدف المنصوب (٦) يقصن من الوقص وهو الكسر .
 (٧) الضمار على وزن كتاب هو ما لا يرجى رجوعه من المال (٨) العود
 بفتح العين الجمل .

وانشده واعلم ابن امسي كادماء القرانشدت طلاها^(١)
 مطاللا للبلابل والمهوم وما وجدان جازية بغوم^(٢)
 تطيع الياس ثم تعود و جداً اليه بالمقصة والشميم^(٣)
 يعارضني بذكرك كل شيء عداد الداء غب على السليم^(٤)
 اجدك هل ترى بعد ابن ليلي طعانا بين رامة والغميم
 أأرجو للعواضن كابن ليلي ؟ أحلت إذن على بطن عقيم
 وكان الشريف يذكر ابن ليلي كلما ضجر في اسفاره ، فكأنه كان يراه
 ملك البيداء .

أيها السادة

ليس الذي يهمني في هذا المقام هو النص على وفاء الشريف ، وإنما الذي
 يهمني هو تعليل ذلك الوفاء ، فالشاعرية التي كانت تتفجر في صدر
 الشريف هي التي جعلت الدنيا أمام عينيه منادح للأطراب والاشجان ،
 فاذا كان من الشعراء من يتكلف اسباب الحنين فيتفجع لغروب الشمس ،
 أو يتوجع لسقوط الاوراق في الخريف ، فان الرضي يجد من نوابه
 الوجدانية ينابيع للحزن لا تنضب ولا تفيض .

والحزن ايها السادة طيف أسود ، ولكنه محبوب ، والشعراء هم الذين

١١ القرأ الظهر ، والادماء ما في لونها ادمة ، وهي في الظباء لون مشرب بياضاً

٢٢ الجازية الظبية يجزيها العشب ، والبغوم الرخيمة الصوت .

٣٣ المقصة من قص الأثر اذا تتبعه ، والشميم شم الارض لتعرف الطريق

الذي مشى فيه المفقود

٤٤ العداد بالكسر احتياج وجع اللديغ بعد سنة والسليم المددوغ ، سمي

بذلك تفاؤلاً ، وغب الداء تحرك وهاج

جعلوا وصف الحزن من الشرائع الانسانية، والحزن لا يكون دائماً صفة
سلبية كما يتوهم بعض الناس ، فهو حين يسمو يكون دليلاً على عافية القلب
وسلامة الروح ، ولا يحزن حق الحزن إلا الاصحاء .

ان الحزن العنيف هو الشاهد على قوة شعورنا بما نفقد ، وهو الدليل
على أننا نحاول العظام فنطلب الخلود لكل ما تصطنع ارواحنا في عالم
المحسوس والمعقول .

وما كان الشريف يبكي أحبابه مرة واحدة ثم يلوذ بالصمت ، لا ،
وإنما كان يصل أحبابه بالذكرى والحنين فلا يفقد منهم غير الوجود
الملموس ، فطريق الحنج على طولها في تلك العهود كان يمثل للشريف أمماً
كثيرة من عوالم الأحياء والاموات ، ولعل ظهور الخيل لم تعرف فتى
أقوى شاعرية من ذلك الفتى البكاء ، والفرح والترح يفيضان من ينبوع
واحد ، لو تعلمون .

ومن عجائب ما وقفت عليه أن الناس كانوا يسألون الشريف أن
يبكي موتاهم فيجيب ، والشجى يبعث الشجى ، والدنيا عند الحزين كلها
قبر مالك^(١) .

أليس من العجيب أن يسأل الشريف بكاء ميت لا يعنيه فيقول :

ألا نخبر فيما يقول جلية يزيل بها الشك المريب يقين
أسائله عن غائب كيف حاله ومن نزل الغبراء كيف يكون

وما كنت أخشى من زمانى أننى

أرق على ضرائه وألين

(١) ، إشارة الى أبيات متمم بن نويرة .

إلى أن رماني بالتي لا شوى لها فاعقب من بعد الرنين أنين
وان أحق المهشين بعثرة^(١) ووجد قرين بان عنه قرين
وما تنفع المرء الشمال وحيدة إذا فارقتها بالنون يمين
تجرم عام لم أنل منك نظرة وحان ولم يقدر لقاؤك حين^(٢)
أمر بقبر قد طواك جديده فأبلس حتى ما أكاد أبين^(٣)
وتنفض بالوجد الاليم أضالع وترفض بالدمع الغزير شؤون
ومعاذ الأدب أن يكون الشريف في هذه القصيدة كالناخحة المستأجرة،
وهل كانت الناخحة المستأجرة تعني حقاً من دعيت للبكاء عليه ؟ انها تبكي
ودائماً في التراب فهي ناخحة تشكل مفطورة الفؤاد .
ويظهر جانب المروءة من وفاء الشريف حين تتذكر بعض المواقف
التي تجلت فيها شجاعته ، فقد أتفق لرجل من عظماء بغداد أن يتألب
الجمهور عليه لبعض الأسباب ، وكان لذلك الرجل كثير من الاصدقاء
والأشياء ، فلما مات خاف أصدقاؤه وأشياعه عواقب التفجع عليه فلم
يمش في جنازته غير ثلاثة منهم الشريف ، وفي هذا الحادث البشع
يقول :

لعمرى لقد ماطلت لو دفع الردى
مطال وقد عاتبت لو سمع الدهر
أفي كل يوم أنت غاد مشيع حبيباً إلى دار يقال لها القبر
لئن كان لي في كل ما أنا تارك
وراء الثرى أجر لقد عظم الاجر

(١) في الديوان (لعبرة) (٢) تجرم : مضى

(٣) أبلس يبلس سكت على ما في نف

سقيت أبا بكر على البعد والنوى
ولا بلّ هام الشامتين بك القطر
أخي ما أقلّ التابعيك إلى الثرى
واخوانك الأدنون من قبلها كثر
لقد كانت النكراء منك خليفة
ولا عرف حتى يتقى قبله النكر
ألا إنما الماضون منا هم الألى
أراحوا وخطوا والبواقي هم السفر
تبعه أبصارنا وهو ذاهب
كأمال قرن الشمس أو وجب البدر^(١)
عليك سلام الله فاتت بك الردى

ولم يبق عين للقاء ولا أثر
ومن هذا الباب جزع الشريف على أصدقاء لم ترفعهم مواهبهم ولا
مقاماتهم لمرتبة النص على أسمائهم في الديوان ، وهم ناس كانوا في صدر
الشريف معارف وكانوا في زمانهم نكرات ، وهؤلاء الأصدقاء المجهولون
لا يعرف أقدارهم غير الشعراء ، وهل من العدل أن يغلق باب الصداقة
فلا يفتح إلا لمن ظفروا بالشهرة وبعد الصيت ؟ أليس من حق الشاعر أن
يقول : إن أخلص من ودعوني يوم الفراق هو كلي !
ما هذه الغطرسة التي نعتم بها فلا نهب معاني المودة لغير
المشهورين ؟ وهل كان المشهورون أصدق من نعرف حتى نقف عليهم
لواعج الشوق والحنين ؟

(١) وجب البدر : غاب .

كم رجل حرمة الطبيعة أسباب التفوق في الميادين المعاشية والأدبية
والسياسية ، ثم وهبته قلباً يشعر ولساناً لا يبين !
كم رجل خامل الذكر صغير الشأن يقبل عليك بنفس تواقة وقلب
حنان !

كم امرأة أمية لا تعرف غير شؤون البيت ثم تمد زوجها بأرواح من
القوة والفتوة لا تقدر على مثلها المتخرجات في السوربون !
إن الصداقة لها منابع غير منابع العرفان ، والرجل العالم لا يصادق
إلا حين يرجع إلى الفطرة الأولى ، فطرة الإنسان الحساس .

فلا تلوّموا الشريف إن رأيتوه يرثي ناساً لم يسمح مقامه
الاجتماعي بذكر أسمائهم في الديوان ، فتلك وثبة فطرية لا تصدر إلا عن
كرام الرجال .

وان وقفات كهذه لأشرف من وقفاته وهو يرثي رجلاً من بني أمية
أو رجلاً من بني العباس ، لأن في بكاء العادلين من الخصوم لونا من الأثرة
وحب الاعلان ، أما بكاء المغمورين الجهولين فهو فيض من الطبع الصادق
والاحساس الامين .

ومثل الشريف في هذا الباب مثل الفنان الذي ينحت التماثيل ، فهو
دائماً يوهم الجمهور أنه يضع تمثالاً لامرأة مجهولة أو رجل مجهول ، هو يخدع
الناس حين يوهمهم أنه لا يتم بغير تمثيل المعاني ، ولو أبيض له أن يفصح
لقال إنه لا ينظر إلى النموذج ، وإنما يستوحى صورة هي بعض ما في
ضميره من دفائن الكنوز .

وقد اهتديت إلى هذا المعنى لطول ما عاشرت المثالين ، فقد صحبت
المسيوبلانشو وهو يضع تمثال العارية ، وصح عندي أن في التمثال شمائل

لم تكن في النموذج ، فأدركت ان المثال يستعين النموذج على تذكر ما كان فتن به في عالم العيان .

فالشريف يجسم معاني الاخوة وهو يبكي أصدقاءه الجهولين وهو أيضاً يشرع للناس مذاهب الوفاء ، وللشعر في صدر ذلك الرجل جوهر لا يملك مثله إلا من اصطفاهم الله للتعبير عن حقائق الوجود .

أيها السادة

انكم في غنى عن التذكير بما في آداب المجتمع من أوهام وأغاليط فلا تضق صدوركم حين يطوي الشريف أسماء فريق من الذين سكب على قبورهم شاييب الدمع السخين ، وإنما أرجوكم أن تمثلوا ديوان شعره شيئاً بمصانع الرسامين والنحاتين في القديم والحديث ، فليس يعلم إلا الله من الذين يعينهم فنان مثل احمد راسم أو فنان مثل محمود سعيد ، كما لا يعلم إلا الله من الذين كان يعينهم البحري وهو يفتتح قصائد المديح بالنسيب . إن قلب الشاعر كالغابة الشجراء ، لا يعرف مجاهلها غير الأيقاظ من الأدلاء ، وقد دللتكم على قلب الشاعر الذي اسمه الشريف لأنه أقدم صديق عرفته في بغداد ، وإني لأرجو أن يعذرني حين يراني نعمت عليه ، فما أذكر اننا تعاهدنا على كتان هذه الاحاسيس .

واليك شواهد من شعره في بكاء المغمورين ، قال من قصيدة :
مالي أودع كل يوم ظاعنا لو كنت آمل للوداع لقاء
وأروح اذكر ما اكون لعده فكانني استودعته الاحشاء
فرغت يدي منه وقد رجعت به

أيدي النوايب والخطوب ملاء
أحبائي الادنين كم ألقى بكم داء يمس فلا أداوي الداء

أحيا إخاءكم المهات وغيركم جربتهم فشكلتهم أحياء
إلا يكن جسدي أصيب فأنني فرقت فدفنته أعضاء
وقال من قصيدة ثانية

أقول وقد قالوا مضى لسبيله

مضى غير رعديد الحنان ولا نكس^(١)

كان حداد الليل زاد سواده

عليك ورد الضوء من مطلع الشمس

أرى كل رزء دون رزئك قدره

فليس يلاقيني ليومك ما ينسى

وقال من قصيدة ثالثة ، وهي في رجل كانت له شخصية ، ولا

تعرف السبب في طي اسمه عن الناس كغيره من شعراء

ما بعد يومك ما يسلوبه السالي ومثل يومك لم يخطر على بالي

وكيف يسلوب فؤاد هاض جانبه قوارع من جوى هم وبلبال

يا قلب صبراً فان الصبر منزلة بعد الغلو اليها يرجع الغالي

نقص الجديدين من عمري يزيد على

ما ينقصان على الأيام من حالي

مضى الذي كنت في الايام آمله

من الرجال فيا بعداً لا مالي

قد كان شغلي من الدنيا فذ فرغت

منه يدي زاد طول الوجد أشغالي

(١) النكس بالكسر المقصر عن غاية الكرم ، والجمع أنكاس .

تركته لذيول الريح مدرجة
ورحت اسحب عنه فضل أذيالي
ما بالي اليوم لم ألق به كدأ
أو أنزع الصبر والعلوان من بالي

أيها السادة

هناك جانب من غرائب الوفاء عند الشريف هو بكاء النساء ، وهذا
اغرب الجوانب ، وهو يحتاج إلى تأمل ودرس ، ولا نعرف بالضبط
كيف نشأ هذا عند الشريف ، فقد كان من المألوف في التقاليد العربية أن
لا يبكي من النساء غير المعشوقات ، وبكاء الامهات والحلائل باب من
النبيل ولكنه في شعر العرب قليل ، فقد لا يساوي واحداً من خمسين إذا
أحصينا ما قيل في الرثاء ، فكيف اتفق للشريف الرضي أن يكثر من تعزية
الناس في أمهاتهم وبناتهم وأخواتهم ؟

إن هذه الظاهرة ليس لها عندي غير تعليل واحد ، هو أن الشريف
الرضي كان (ابن امه) كما يعبر المصريون حين يداعبون من يفضون
لامهاتهم من الاطفال .

ونحن نعرف أن أيام البؤس في حياة الشريف مضت وهو في رعاية
أمه الرعوم التي باعت أملاكها وحليها لتقيه وتقي أخاه ذل العوز
والاحتياج .

والام الرعوم لم تجد من يؤرخ فضلها في اللغة العربية ، ويندر بين
كتاب العرب من يقول حدثني أمي وأنبأتني اختي واخبرتني حليلتي ،
وإن كان في شعرائهم من يقبل النعال في اقدم الملاح !

وما اريد ان اطيل القول فيما اثر عن العرب والهنود من بغض البنات

فذلك معروف ، وانما اريد ان اقف عند هذه النزعة النبيلة من نزعات الشريف ، وأنا اجزم بأنه كان يرى المرأة في صورة امه تلك الام التي وقته مكاره الحياة في السنين العجاف يوم اودع ابوه غياهب الاعتقال .
والحق ان اللغة العربية كانت تحتاج إلى من يجدون الامهات والاخوات والبنات على نحو ما وقع في اللغات الاجنبية ، فان في المرأة عناصر من العطف والتضحية لا يدركها إلا ذوو الألباب ، وصاحبنا الشريف قد وفق في هذه الناحية كل التوفيق .

ورثاء الشريف لامه يشهد بأنه كان يفهم قيمة هذا المذهب النبيل ، فهو يجعل موتها باباً لشماتة الاعداء إذ يقول :

كم عبرة موهتها باناملني وسترتها متجملا بردائي
أبدى التجلد للعدو ولو درى بتملطي لقد اشتفى اعدائي
والتصريح بان موت الام باب إلى الشماتة هو اعظم تمجيد لكرائم النساء .

وهو يصرح بان امه كانت تقيه النوائب ، وتنفق عليه وتواسيه ، فيقول :

فباي كف استجن^١ واتقي صرف النوائب ام باي دعاء
ومن الممول لي إذا ضاقت يدي^(١)

ومن الممل لي من الادواء^(٢)

ومن الذي إن ساورتني نكبة كان الموقى لي من الاسواء^(٣)
رزء أن يزدا ان طول تجدد ابد الزمان فناؤها وبقائتي

(١) الممول واهب المال (٢) الادواء جمع داء

(٣) الاسواء جمع سوء وهو الردى

قد كنت آمل ان يكون امامها
يومي وتشفق أن تكون وراني

إلى ان يقول :

لو كان يبلغك الصفيح رسائي^(١)

او كان يسمعك التراب ندائي

لسمعت طول تاوهي وتفجعي وعلمت حسن رعايتي ووفائي

كان ارتكاضي في حشاك مسبباً

ركض الغليل عليك في احشائي

وهذا البيت يتضمن صورة حسنة لا يصرح بها إلا شاعر يفهم الحقائق

فهو يرى حياته في بطن امه ديناً واجب الاداء . وكذلك صح لهذا الشاعر

الانساني ان يعزي بعض الناس في بنت ماتت بعد بنت فيقول من قصيد

طويل :

هذا العزاء وإن تحزن فلا عجب

إن البكاء بقدر الحادث الجلل^(٢)

ولكن ما بالناس نحصر اسباب هذه العاطفة فيما تلقاه الشريف عن امه

الرءوم ؟ ما الذي يمنع من افتراض ان تكون هذه المعاني اوحيت إليه من

التعرف إلى كرائم النساء ؟ ما الذي يمنع من التصريح بان اشراف الرجال

لا تخلو حيواتهم من مودات شريفة نبيلة يضمرونها لبعض العقائل

المصونات ؟ ما الذي يمنع من القول بأن في بنات الاعمام والاخوال ظلالات

من العطف نلوذ بها في هجير الحياة ؟ بل ما الذي يمنع من القول، بأن في

(١) الصفيح هنا هو القبر وجمعه صفائح

(٢) الجلل : العظيم ، وهو ايضاً الحقيق ، فهو من الاضداد .

بعض الاجنبيات تفحات من الرفق تنتسم بها أرواح الفردوس ؟
وهل قضى علينا سوء الطالع أن لا تكون صلاتنا بالنساء إلا شبهات
تحوطها شبهات ؟

إن تلك المعاني السود لا ينبغي أن تطيف بأخيلة الكرام من الرجال ،
فللرجل التبيل كل الحق في أن يشغل قلبه وذهنه بشواغل المودة الصادقة
لمن يعرف من أشرف النساء ، وهذا باب من أنس الضمائر والقلوب عرفه
الناس من قديم الزمان وإن جبنوا عن التصريح به فيما يكتبون وما
ينظمون .

وصديقنا الشريف الرضي كان يفهم هذه المعاني ، وأكاد أجزم بأنه
كان يضرر الاعزاز لكثير من عقائل الكرخ وبنقداد ، وأذهب إلى أبعد
من ذلك فأقول انه كان يصادق كثيراً من نساء البيداء ، فات لم تصدقوا
ذلك فحدثوني كيف صح له أن يقول في رثاء سيدة غيبها التراب :

على إي غرس آمن الدهر بعدما
رمى قادح الأيام في الفصن الرطب
ذوى قبل أن تذوى الغصون وعهده
قريب بأيام الربيلة والحصب^(٤)
كفى أسفاً للقلب ما عشت أنني
بكفي على عيني حثوت من القرب
جرت خطرة منها وفي القلب عطشة
رفعت لها رأسي عن البارد العذب

(٤) الربيلة على وزن سفينة السمن والنعمة ، والمراد بها وفرة الشجر

وقلت لجفني ردّ دمعاً على دم
 وللقلب عالج قرح نذب على نذب
 ومما يطيب النفس بعدك أني
 على قرب^(١) من ماء وردك أو قرب
 ألا لا جوى مسّ الفؤاد كذا الجوى
 ولا ذنب عندي للزمان كذا الذنب
 خلا منك طرفي وامتلا منك خاطري
 كأنك من عيني نقلت إلى قلبي
 إي والله، كذلك تسجل مودات الكرائم من النساء، ولو أفنينا
 الاعمار في تخليد مآثر الحرائر وفضلهن على أرباب العقول لما بلغنا بعض
 ما نريد.

مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث
 الكويت

أيها السادة

إن المقام يضيق عن شرح ما عند الشريف من غرائب الوفاء،
 ويكفي في ختام هذه المحاضرة أن نشير إلى ما في شعره من رقة الحنين،
 فهو الذي يقول في رثاء بعض الأصدقاء :

أمسى كان من القنا باضالعي قرعاً ووخزا
 يا ثانياً للنفس بل يا ثالث العينين عزا
 عضو عثت فيه النية ما أجل وما أعزا^(٢)

وهو الذي يقول :

(١) القرب بالتحريك سير الليل لورد الغد، أو ان لا يكون بينك وبين
 الماء إلا ليلة (٢) عثت : عانت، من العيث وهو الأفساد

مصائبك لم يدع قلباً ضنيناً بغلته ولا عيناً جامداً^(١)
كان الناس بعدك في ظلام أو الأيام ألبست الحدادا
وكنت أفدت خلته ولكن أفادني الزمان وما أفادا^(٢)
فان لم أبكه قربي تلاقى مغارسها بكيت له ودادا
وهو الذي يقول في التوجع على من فقد من الأهل :

قف موقف الشك لا ياس ولا طمع

وغالط العيش لا صبر ولا جزع
وخادع القلب لا يود الغليل به إن كان قلب على الماضين يتخذع

سائل بصحي أنى وجهة سلحوا

عنا وأي الثنايا بعدنا طلوعوا^(٣)
غابوا فغاب عن الدنيا وساكنها مرأى أنيق عن ادنيا ومستمع
أبكيهم ويد الأيام دائبة

تدوف لي فضلة الكأس التي جرعوا^(٤)
لا أم تري انني مجر إلى أمد جروا اليه قبيل اليوم أو تزعوا
اعتادهم لا أرجي أن يعود لهم

إلي ماض ولا لي فيهم طمع
فا توهج أحشائي على نفر
كانوا عواري^(٥) للأيام فارتجعوا
ذوائب من لباب الجهد ما فجعوا

بمثل أنفسهم يوماً ولا فجعوا

.....

١) الغلة بالضم هي الظلم الشديد والمراد بها القوعة (٢) أفدت: استفدت.

٣) الثنايا جمع ثنية وهي الطريق في الجبل (٤) داف الشراب مزجه بشيء

(٥) في الديوان (عوادي) وهو تحريف

هل تعلمون على ناي الديار بكم
أن الضمير اليكم شيق ولسع^(١)
لكم على الدهر من أكبادنا شعل
من الغليل ومن آماقنا دفع
لواعج أفصحت عنها الدموع وقد
كادت تجمجمها الأحشاء والضلع
أترفت دمي حتى ما تركت له
غرباً يفيض على رزه إذا يقع^(٢)
ثم اضطررت إلى صبري فعذت به
وأعرب الصبر لما أعجم الجزع
ومن هذه الشواهد ترون أن شيقه كان يخاطب الأحباب الذاهبين ، كما
يخاطب الأحباب الغائبين ، وذلك فيض من قوة الاحساس .

«١» شيق مشتاق «٢» الغرب بالفتح عرق في العين يسقي ولا ينقطع

غراميات الشريف الرضي

أيها السادة

لقد شاع في المشارق والمغرب أن الشريف الرضي كان من المغرمين ،
فقد كان القدماء يضربون الامثال بقصائده الحجازيات ، فيقولون مامعناه :
لا تصقل نفس المتادب إلا إن حفظ هاشميات الكميت وخريات أبي نواس
وزهديات أبي العتاهية وتشبيهات ابن المعتز ومدائح البحثري وحجازيات
الشريف الرضي^(١) .

فالشريف كان معروفاً عند القدماء بصدق اللوعة والصبابة ، وكانت
أشعاره في الحب كؤوساً يعاقرها المتيمون .

ولكن مرت أجيال وأجيال والناس منصرفون عن ذلك الجانب
المشرق من شعر الشريف ، لأن الحياة الإسلامية قد شابها أقداء الترمت
والجمود ، ولم يبق من رجال الدين من تؤثر عنه أطايب الفكاكة والظرف ،
أو تروى عنه غرائب الأحاديث .

وإني لأشعر بالتهيب وأنا أشرح هذا الجانب من عبقرية الشريف
الرضي ، ولكن يشجمني أني أتكلم في بغداد التي وسع صدرها مئات
المذاهب والآراء في الدين والاجتماع .

وأكاد أجزم بأن الشريف الرضي لو عاش في غير العراق لما استطاع

(١) لم يتسع الوقت لمراجعة هذا النص . وقد قرأته منذ أكثر من عشرين
سنة في دائرة المعارف للبستاني ورأيت به بعد ذلك في عدة مؤلفات .

أن يجمع بين الادب والدين ، لأن الجماهير الاسلامية في غير العراق لم تكن تسمح لرجل من أساتذة العلوم الدينية أن يطيل القول في فتنة الحدود وسحر العيون .

وليس معنى هذا أن العراق خلا خلوآ تاماً من التنكر لأخلاق الظرفاء من رجال الدين ، لا ، ولكنه كان أرق وأظرف من مصر التي لم يعرف علماءها غير فناء الاعمار في التدريس والتأليف ، والتي تسقط فيها هيبة العالم إن اتهمه حاسدوه بأنه أديب يحفظ بعض ما قيل في وصف الملاح . كان الشريف الرضي يحب ويعشق ، وقد اتسع عصره وبلده لسماع ما قال في الحب والعشق ، ولكنه مع ذلك حبس عواطفه في قفص من حديد ، لأن المجتمع العراقي على تسامحه لم يكن يبيح لمثله غير التجمل والتوقر والاستحياء ، فكان الشريف يسقي منابذ الظرف من مزاجه الرقيق بقراءة ما ينظم معاصروه من أشعار المجون ، وهل نسيتم ما أشرنا اليه من اهتمامه بدراسة أشعار ابن حجاج ؟

لقد فطر الشريف الرضي على رقة الاحساس ، ولكنه منذ نشأته كان مسئولاً عن رعاية التقاليد ، وهذا السجن الاجتماعي هو الذي أخرج من وجدانه ذلك الشاعر المجيد ، لأن الشاعر لا ترهف إلا بقوة الاعتلاج ، فلو كان الشريف رجلاً مطلق الحرية في تصرفاته الشخصية لكان من الممكن أن يصير ماجناً يشبه الالوف ممن تنسموا أرواح دجلة والفرات ، ولكن قسوة المجتمع صهرته صهراً عنيفاً فأخرجت منه وترأ حناناً يشدو فيجيد .

كان الشريف يستطيع أن يملا الدنيا بالكلام عن التنسك والتشف والزهد ، وكان يستطيع أن يكون إماماً منقطع النظر في علوم اللغة

والدين ، وكان يستطيع أن يكون رجلاً تقبل يمينه لالتماس البركات ، ولكنه لو عرق فطرته لكان شيخاً تافهاً كالوف المشايخ الذين سمح الدهر الخبول بأن يكونوا من أساتذة الازهر الشريف ، فلم يبق إلا أن يتسامح مع فطرته بعض التسامح فيعلن بعض ما في صدره من الغرام المدفون ، ولكن كيف يعلن ذلك ؟ سيظل الرجل في حرب بين المجد والحب : هو في نفسه صالح لأن يكون من أقطاب الدولة ، ولكن ما هذه النوازع الدقاق التي تنزل به إلى الهوان في الحياة الغرامية ؟ أيصح أن يصبح الفارس المغوار أسيراً لعينين كحيلتين يشيع فيها سحر النعاس ؟ أيمن أن يكون المحارب الصوال فريسة للنحور العاجية التي تعجز عن حمل العقود ؟ ما هذه الصلات الطبيعية التي تجمع بين الأضداد فتقرن القلب القاسي بالقلب الرقيق ؟ ما هذه الغرائب التي تقتضي بأن لا يتم العشق بين رجل وامرأة مختلفين في العرض والطول على نحو ما كنا نرى في شوارع باريس ؟ إن الطبيعة تنتقم من الأوضاع والتقاليد ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون !

إن الشريف قد تزدهيه الكبرياء فيقول :

تضاجعني الحسناء والسيف دونها

ضجيعات لي والسيف أدناها مني

إذا دنت البيضاء مني لحاجة

أبي الأبيض الماضي فأبعدها عني^(١)

وإن نام لي في الجفن إنسان ناظر

تيقظ عني ناظر لي في الجفن^(٢)

«١» الأبيض هنا السيف

«٢» الجفن الغمد ، وفي البيت جناس

أغرّت فتاة الحيّ بما ألفته أغلغله دون الشعار من الضن
وقالت هبوه ليلة الخوف ضمه

فما عذره في ضمه ليلة الأمن

وهذه قطعة نفيسة من حيث المعنى والخيال ، فهل كانت من نفعات
الصدق ؟ أستبعد ذلك ، فالرجل لا يضاجع السيف في ليلة الوصل الا وهو
متكلف ، ولا سيما إن صرح بأنه في أمان .

إنما الصدق ان يفصح عن ذات نفسه فيصرح بأنه يلتقى الجمال بوجه
متجهم وقلب رقيق ، فيقول :

ومقبل كفى وددت لو أنه أو ما إلى شفتي بالتقبيل
جاذبته فضل العتاب وبيتنا كبر الملل وذلة الملل
ولحظت عقد نطاقه فكأنما عقد الجمال بقرطق محلول^(١)

جدلان ينفض من فروج قيصه
أعطاف غصن البانة المطلول

من لي به والدار غير بعيدة من داره والمال غير قليل
وهذه قطعة شرحنا ما تومىء إليه من الاسرار النفسية في كتاب
(مدامع العشاق) منذ سنين ، وهي شاهد على النزاع بين العقل والهوى
والهدى والضلال ، إن صح ان الصدق في التعبير عن خوالج القلب ثم
وإسراف .

الحق ان الشريف كان صورة للنزاع بين العقل والقلب ، العقل الذي
يوجب ان يكون الرجل من عبيد المجتمع ليسود المجتمع ، والقلب الذي
يوجب ان يكون الرجل عند وحي الفطرة والاحساس ، وقد صدق في

(١) الفرطق ثوب رقيق

التعبير عن هذه المعضلة النفسية حين قال :

ولقد أطلت إلى سلوك شقتي وجعلت هجرك والتجنب زادي
أهون بما حملتني من الضيق لو أن طيفك كان من عوادي
لا يبعدن قلبي الذي خلفته وقفاً على الاتهام والانجاد
إن الذي غمر الرقاد وساده لم يدركيف نبا عليّ وسادي
لولا هواك لما ذلت وإنما عزي يعيرني بذل فوادي
العزير بزل الفواد ؟؟

تلکم هي القصة الموجزة لحياة الشريف ، فهو في نزاع دائم بين عزة
الجاه وذلة القلب ، فان لم يكف هذان الشاهدان فانظروا كيف يقول :

يا صاحب القلب الصحيح أما اشتفى

ألم تشتفى الجوى من دمي قلبي المصدوع
هيئات لا تتكفن لي الهوى فضح التطبع شيمة المطبوع
كم قد نصبت لك الحباثل طامعاً فنجوت بعد تعرض لوقوع
وتركتني ظمان أشرب غلتي أسفا على ذاك اللمى الممنوع^(١)
قلبي وطرفي منك هذا في حمى قيظ وهذا في رياض ربيع^(٢)
كم ليلة جرعته في طولها غصص الملام ومؤلم التقرير
أبكى ويبسم والدجي ما بيننا حتى أضاء بثغره ودموعي
تفلى أنامله التراب تعللا وأنا ملي في سني المقروع
قر إذا استخجلته بعتابه لبس الغروب ولم يعد لطلوع
لو حيث يستمع السرار وقفتما لمعجبنا من عزه وخضوعي^(٣)

١٥ « اللى : سمرة في الشفة ٢٥ » القبط صم الصيف

٢٥ « السرار بالكسر هو التناجي في المر

أهوت عليك إذا امتلأت من الكرى
أني أبيت بليلة الملسوع
قد كنت اجزيك الصدود بمثله
لو أن قلبك كان بين ضلوعي

وهذه اشعار من فيض القلب ، والشريف في هذه الاشعار ليس هو
ذلك الشيخ الجليل الذي أنشأ مدرسة سماها (دار العلم) واقام فيها مكتبة
يتروود منها طلاب اللغة والدين ، وإنما هو إنسان يرى الدنيا بأعين الشعراء
الذين يدركون اسرار الوجود .

أيها السادة

إن النص على هذا المعنى ضروري في هذا البحث ، فالشريف الرضي
في غرامياته ليس من تلاميذ بغداد ، وإنما هو من تلاميذ البيداء ، وآية
ذلك ان الانفاس البغدادية لا نحسها عنده إلا في النادر القليل ، فهو بعيد
كل البعد عن أنفاس الشعراء الذين تمتعت آذانهم وعيونهم بضجيج بغداد
ومواكب بغداد ، وتعليل هذا سهل : فقد كان رجلا يفهم ان المفروض
عليه ان لا يعرف بنير التقى والعفاف ولم تكن دنيا
الناس في ذلك العهد تسمح لرجل مثله ان يخاطر بمركزه الادبي والديني
في سبيل الوجد والصبابة ، وإنما كان يقهر على ذلك قهراً بما يتوقد في
صدره من الغرام المشبوب ، وهو نفسه قد شعر بهذا الحرج حين قال في
دفع من اتموه بالخروج على أدب الاتقياء :

وأكذب بالتصون مدعيهم وألجم قائلهم بالعفاف

واريد ان اقول بصراحة إن الشريف الرضي كان يحاول التخلص
من مذاهب البغداديين في التشبيب ، لأن أكثر الشعراء في تلك الأيام كانوا

أسرفوا في العبث والمجون، وكان يرى من موجبات الكرامة أن يترفع
 في نسيبه عما ألف أولئك الشعراء من التبذل والاسفاف، وقد أوغل في
 التحفظ حتى كاد يهجر الشعر الرقيق، فلم يتفق له إلا في الندرة أن
 يقول:

يا مقلقي قلقي علي ك أظنه ذني اليكا
 أنت الشقيق فلو جنيد ت لما أخذت على يديكا
 أميت ثالث ناظري فكيف أقدى ناظريكا
 وكفالك أني لست أء قد خنصري إلا عليكا
 أو يقول:

يا ليلة كرم الزمان بها لو ان الليل باقي
 كان اتفاق بيننا جارا على غير اتفاق
 واستروح المهجور من زفرات هم واشتياق
 فاقتص للحقب المواضي بل تزود للبوافي^(١)
 حتى إذا نسمت رباح الصبح تؤذن بالفراق
 برد السوار لها فاح ميت القلائد بالعناق
 أو يقول:

كم مقام خضنا حشاه إلى اللم وجميعاً والليل ملقى الرواق
 ومزجنا خمر الرضا بين في الرثف فبرغم المدام تحت العناق
 قم تبادر مرمى الزمان بين فسهم الخطوب في الأفواق^(٢)

(١) الحقب جمع حقة بالكسر وهي المدة من الزمان . وأرجو القارىء أن يتأمل جمال هذا البيت .

(٢) الأفواق جمع فوق بالضم وهو موضع الوتر من السهم

واغتتمها قبل الفراق فما تم لم يوماً متى يكون التلاقي
نحن غصنان ضمنا عاطف الو جد جميعاً في الحب ضم النطاق
والآيات الاخيرة من قصيدة طويلة نص الديوان على أنها في معنى
سئل القول فيه ، فكانه يتهيب الحديث عن ليالي الوصل ، ومن الشعراء
من تجسّم تقاليد المجتمع فلا يتحدثون عن أهواء النفس إلا بطريق
التلميح .

صدقوني أيها السادة إذا حدثتكم أني تمبت في البحث عن صور
بغداد في غراميات الشريف الرضي ، فلم أجد غير أطياف ، كان
يقول :

أنا الفداء لظبي ما اعترضت له إلا وهتك شوقاً لي أستره
لاحظته والنوى تدمي ملاحظته (١)

بعارض من رشاش الدمع يطره
ما انفك من نفس للوجد يكتبه
تحت الضلوع ومن دمع يوفره
أهوى إليّ يداً عقد العناق بها والبين يعذله والحب يعذره
وقال تذكر هذا بعد فرقتنا فقلت ما كنت أنساه فأذكره

فهذه قطعة تذكر بابن المعتز ، أشعر خلفاء بغداد

والحق أيها السادة أن الشريف الرضي لم يكن يتكلم اللغة البغدادية إلا
حين يأسره الغضب أو الحزن .

(١) الملاحظ بفتح الميم الميمون ، وهي كذلك في قول الشاعر
يرمون بالخطب الطوال وقارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء

كان يقول :

مواقد نيرانهم قررة^(١) وسربال طاهيهم أبيض
إذا حركوا للمساعي أبوا وإن اتزلوا دارضيم رضوا

وكان يقول في وصف مغن دميم :

تقذى بمنظره العيون إذا بدا وتقيء عند غناؤه الأسماع
أبذاك نستشفي ومن نغماته تتولد الآلام والأوجاع
أم كيف يطربنا غناء مشوه أبداً نهال بوجهه ونزاع
نزوى الوجوه تفادياً من صوته حتى كان سماعه إسماع^(٢)

وكان يقول :

أيا للمجد من قوم لثام الأحرار على عرض يغار
فأشجمهم إذا فزعوا جباناً وأذكارهم إذا نطقوا حمار
لبونكم ندر لأبمديكم^(٣) وعندي الذين منها والنفار^(٤)
لغيري ضوء ناركم وعندي دواخنها السواطع والأوار^(٥)
وكان يقول في التحزن للأموات :

رجعت في إثرهم برغمي بعد نزاع إلى نزوع^(٦)
أبقى الجوى جرحه بقلبي ما عشت مكتومة النجيع
كم غابن الموت عن كريم وقارع الخطب عن قريع^(٧)

١٤ قررة بفتح القاف باردة

٢٤ الأسماع الشتم والتشنيع ٣٤ اللبون الناقة ذات اللبن

٤٤ الذين بكسر الذال ، ولعله لغة في الذان وهو العيب

٥٤ الأوار بالضم اللهب ٦٤ النزاع : الشوق ، والنزوع : اليأس

٧٤ القريع : السيد

بانوا فلم أنترح عليهم دمعي ولم أنتنّب ضلوعي
وأسفع الدمع للأعادي اني إذن فارغ الدموع
قلت إن الشريف لم يكن تلميذ بغداد وإنما كان تلميذ البيداء ،
ولكن هذا القول لا يخلو من اعتساف ، فقد كانت للشريف لفتات إلى معالم
العراق ، كان يصرخ :

أقول وقد جاز الرفاق بنى النقا
ودون المطايا مريخ وزرود^(١)
أتطلب يا قلبي العراق من الحمى ليهنك من مرمي عليك بعيد
وإن حديث النفس بالشيء دونه
رمال النقا من عالج لشديد^(٢)
ترى اليوم في بغداد أندية الهوى
لها مبدىء من بعدنا ومعيد
فمن واصف شوقاً ومن مشتك حشا
رمته المرامي اعين وخذود
تلفت حتى لم يبين من بلادكم دخان ولا من نارهن وقود
وإن التفتات القلب من بعد طرفه
طوال الليالي غحوكم ليزيد
ولما تدانى البين قال لي الهوى رويداً وقال القلب ابن تريد

(١) مريخ بضم اوله وسكون ثانيه وكسر الباء رمل من رمال زرود ،
وزرود رمال بين الثعلبية والحزيمية بطريق الحاج من الكوفة
(٢) عالج رمال بين فيد والقريات

أتطمع أن تسلي^(١) على البعد والنوى
 وأنت على قرب المزار عميد^(٢)
 ولو قال لي الغادون ما أنت مشته غداة جزعنا الرمل قلت أعود^٣
 أصبر والوعساء بيني وبينكم وأعلام خبت^٤؟ إنني لجليلد^(٥)
 فهذه القطعة تمثل أصدق الشوق إلى العراق، وتشهد بأنه كان مشغول
 القلب بأحبابه في العراق .

وهو أيضاً الذي يقول :

دعوا لي أطباء العراق لينظروا

سقامي ، وما يعني الأطباء في الحب ؟

أشاروا بريح المنديل اللدن والشذا

ورددت دماء النفس بالبارد العذب^(٥)

يطيلون جس النابيين ضلالة

ولو علموا جسوا النوايض من قلبي

والذي يقول :

ألا إن ليلى بالعراق كأنه طليح تجافاه الرجال ظليح^(٦)

مقيم يعاطيني الهموم وناظري معنى بأعجاز النجوم ولوع

«١» يقال سلا يسلو ، من باب نصر ، وسلى يسلي ، من باب رضي

«٢» عميد : أصيب عموده . فهو عميد ومعمود «٣» جزعنا الرمل : اجتزناه

«٤» الوعساء موضع بين الثعلبية والحزيمية على جادة الحاج ، وهي شقائق

رمل متصلة ، وخبث بفتح فسكون علم لصحراء بين مكة والمدينة

«٥» الدماء بالفتح هو بقية النفس «٦» الطليح هو البعير نال منه الأعياء

والظليح والظالع هو البعير يغمز في مشيه

والذي يقول :

سقى الله دهرأ حبانا الودا د مبتدها فشكرنا العراقا
والذي يقول في رجوعه من الحج يتشوف إلى قباب بغداد :

عسى الله أن ياوي لشمت^(١) تناهبوا

هباب المطايا نصها وانجذابها^(٢)

وجاسوا بأيديها على علل السرى

حرار أماعيز الطريق ولايها^(٣)

فيرمي بها بغداد كل مكبر إذا مارأى جدرانها وقبابها

فكم دعوة أرسلتها عند كربة^(٤) إليه فكان الطول منه جوابها^(٤)

فالشريف لم يكن ينكر بغداد ولا العراق ، ولكنه مع ذلك لم يكن

مقصور الهوى على بغداد والعراق ، فقد كانت له صابات بالبيداء ،

صابات غنمها واكتوى بنارها في طريقه إلى الحج ، وهو حج مرات ورأى

الظباء الحوالي والعواطل بالبيداء ، وربما كان الحج هو السبب الاول في

تفتح عبقرية الشريف ، فقد كانت تمر أشهر وهو يرأود الخيال فوق ظهر

جل أو سرة جواد ، ونحن نعرف فضل هذه الاسفار على الشعراء ،

فالشعر يحتاج إلى غناء ، وهو لا يتيسر في كل وقت لمن يعيشون في

الحواضر فوق مهاوي المشكلات السياسية، والمعضلات الاجتماعية، وإنما

١) الشمت جمع اشمت وهو من غيره السفر

٢) الهباب بالكسر النشاط ، والنص اقصى ما عند الناقة من السير

٣) الحرار جمع الحررة وهي الأرض ذات الحجارة السود ، والاماعيز جمع

امعوز بالضم وهي الارض الصلبة واللاب جمع اللابة واللوبة وهي الأرض ذات

الحجارة ٤) الطول بالفتح الجود

يحتاج الشعر إلى فراغ من هموم العقل ليستطيع الشاعر أن يعاقر الغناء ، وكذلك يمكن القول بأن الشريف لم يدرك كيف يكون اعتلاج الشوق الا وهو يسامر الخيال في الصحراء ، وقد نظر فرأى ثروة الأدب العربي لم تتكون إلا من أصول الأخيلة البدوية ، أخيلة الأعراب الذين اتسع وقتهم للغناء ، فمضى يتحدث عن مواطن ومعالَم ومنازل لا يمكن أن تتسع لها جميعاً مسالك الطريق إلى الحجاز ، وبذلك تحول الحب في قلبه إلى معركة وجدانية لا تعرف الرسوم والحدود، وإنما تتميز بما ترى القلوب من أشواظ وأقباس .

وكان للشريف في ذلك المذهب نجاة من فضول الباغين والعادين ، فهو يحنُّ إلى ديار لا يراها البغداديون إلا إذا استجدوا طيف الخيال ، وهو يذكر أسماء كان لها في أذهان الناس صورٌ قديمة ، لأن الشعراء الأوائل كانوا خلعوا عليها أفواجا من السحر الحلال .

كان طريق الحج فرصة للتعرف إلى طوائف من الحسن المكنوت وكان موسم الحج فرصة للتعرف إلى ألوان من الجمال تفرقت في بلاد الله ثم التقت في ساحات الحجيج ، فكان صاحبنا يطالع كتاب الحسن بعناية وإمعان ، وكان كتاب الحسن في موسم الحج مختلف السطور والخطوط فكانت فيه سطور شامية ، وسطور مصرية وتركية ، وسطور مغربية وأندلسية ، وكانت فيه كلمات بالحروف اليمينية والجاوية والهندية ، وكان الشريف من أقدر الناس على فهم الرموز من خطوط الجمال .

وهنا يبدأ الخطر على ذلك القلب الحساس

من هنا نعرف كيف كان الشريف كثير الأسمى والحنين ، فالذي يشهد مواكب الحسن من مختلف الشعوب في موسم لا يدوم غير أسابيع لا يستطيع

تزويد العين والقلب بغير الحشرات ، وهل تسمح طبيعة المجتمع لأمير الحج أن يقضي ليلة فاجرة أو عفيفة مع امرأة حسناء ؟ وكيف وهو مقتول الوقت بشرح آداب السعي والرمي والطواف ؟
الواقع أن تلك المآزق هي التي أوقدت صدر الشريف ، فقد كان حاله شبيهاً بحال من يقضي أسبوعين يزور فيها المعرض الدولي في باريس ، فيرى من غرائب الجمال ما يعشى الأبصار والقلوب ، ثم يعود وهو آثم الضمير طاهر الثياب .

ان اللغة العربية لا تعرف من الذين سجلوا مواسم الحج بقوة وعنف غير شاعرين : الاول صديقنا عمر بن أبي ربيعة ، عطر الحب ذكراه ! والثاني أستاذنا الشريف الرضي ، نصر الله مشواه !
أما عمر بن أبي ربيعة فقد كان مطعمين البسال ، لأنه كان حجازياً يشاهد من مواسم الحج ما يشاء ، ولأنه كان خلع العذار فلم يعد يبالي أين يقع هواه ، ولأنه كان اشتهر بالحب حتى كان ظريفات النساء لا يرين تمام الحج إلا بمشاهدة وجهه الجميل .

أما الشريف الرضي فانسان آخر ، هو رجل يجيء إلى الحج نائباً عن خليفة المسلمين ، هو رجل مسئول لا يليق به اللهو ولا المزاح ، ومعه من أهل العراق رجال لا تخفى عليهم مآثم العيون ، ولعل فيهم من ينافسه أو يعاديه ، فهو ينظر إلى الجمال المنشور فوق بساط الحج بقلب فاتك و طرف عفيف ، وقد يتفق أحياناً أن تعف العيون وتفتك القلوب !!
أيها السادة

لا تحسبوني أنفلسف على حساب الشريف ، فقد قضيت سنين وأنا أحاول فهم هذه الدقائق الوجدانية ، وأكاد أجزم بأن الشريف لم يكن

يعرف السكون ولو نزل إلى مغارات الكهوف ، لان لذكريات العيون والنحور والحدود ضجيجاً يوقظ الاموات ويصم الاحياء ، وهو قدرأى من الوجوه الوسيمة ، وسمع من الاصوات الرخيمة ، ما يسوق العقلاء إلى حظيرة المجانين .

وهل كان يمكن أن تتوفر تلك الثروة الشعرية لرجل يلهو ويلعب؟ هل كان يمكن أن يشهد الشريف غرائب صنع الله في مواكب الحجيج وهو في عنفوان الشباب ، ثم لا يحفظ في لوحة الذكريات ألف سورة من سور الصبحة والجمال ؟

معاذ الهوى والادب أن يكون الشريف الرضي عابثاً في الغرام، وهل في الغرام عبث ؟ وهل كان اللعب بالحب إلا كاللعب بالجر المتوهج ؟ ان العبث بالحب ممكن ، ولكنه مستحيل على رجل يعيش بالبيداء ، أو يمر بالبيداء ، فلاهل البيداء ومن يجاور البيداء عيون أسحر وأفتك من عيون الظباء ، وإني لأعجب كيف يعيش إنسان في العراق ثم لا يعشق وهو يرى عيون المها في كل مكان وفي كل حين ؟

ولكن الشريف صعب عليه أن يجعل العراق مرجع هواه ، لأن سياسة المجتمع كانت ترفض ذلك ، ولأن الرجل كان في ذاته شعوبي الهوى ، فكان في صدره سهام من مصر والشام والحجاز واليمن والمغرب والهند وفارس والعراق ، كان صورة للفؤاد الممزق الذي تعاورته سهام العيون .

أيها السادة

لا تلو موني في هذا اللف والدوران ، فانا أحاول أمراً يصعب اليه الوصول ، أحاول التصريح بان الاسماء التي وردت في شعر الشريف لم

تكن لها في ذهنه مسميات ، أريد أن أصرح بأنه كان يسلك المذاهب
الرمزية حين قال :

ولم تر كالعيون ظبا سيوف أرقن دماً وما رمن الجفونا
عوائد من تذكر آل ليلي كان لها على قلبي ديونا
قال ليلي لم يكونوا بالفعل آل ليلي ، ولعلمهم كانوا آل جميلة أو آل
ظمياء ١ - و (ذو الأثل) في قوله :

تذكرت أياماً بذى الأثل بعدما

تقضى أواني في الصبا وأوانها
يطيب أنفاس الرياح تراها ويخضل من دمع النسائم بانها
لم يكن بالفعل ذا الأثل ، ولعله كان محلة من محلات بغداد
وكذلك يمكن القول في (أراك الحمى)

يا أراك الحمى تراني أراكا أي قلب جنى عليه جناكا
أعطش الله كل فرع بنعما ن من الماطر الروى وسقاكا
أي نور لناظري إذا ما مرّ يوم وناظري لا يراكا
لا يرى السوء من رآك مدى الده

ر وحيآ الآله من حياكا
ورعى كل ناشق لك دلة صبا طلة على رياكا
أو ما تحدث به عن رامة إذ يقول :

وحبست في طفل العشية نفحة

حبست برامة صحبتي وركابي^(١)

١» الطفل بالتحريك هو الشمس قرب الغروب ، ورامة منزل بينه وبين
الرمادة ليلة في طريق البصرة إلى مكة

متللمين على الرحال كأنما مروا ببعض منازل الاحباب
في ساعة لما التفت إلى الصبا بعدت مسافته على الطلاب
وتارجت منها زلازل ريطقي^(١) حتى تعارف طيبها اصحابي
فكاننا استمبقت فارة تاجر^(٢)

وبعثت فضلها إلى أثوابي
أشكو اليك ومن هواك شكايتي
ويهون عندك أن أثبك ما بي^(٣)

يا ما طلي بالدين وهو محبب من لي بدائم وعدك الكذاب
فهل تظنون أن (رامة) وردت في هذا الشعر وهي حتمارامة ؟ أم
تحسبونها بقعة خياليه طافت بخيال الشريف ؟

وكذلك يمكن القول بتزوير المواضع في هذا القصيد :

خليلي هل لي لو ظفرت بنية

إلى الجزع من وادي الاراك سبيل

وهل أنا في الركب اليانين دالج

وأيدي المطايا بالرجال تميل

وفي سرعان الريح لي علمتها شفاء ولو أن النسيم عليل

وفي ذلك السرب الذي تريانه أحم غضيض الناظرين كحيل^(٤)

شهي اللمي عاط إلى الركب جيده

ختول لأيدي القانصين مطول

١٥ الربطة ملاءة كلها نسج واحد وقطعة واحدة ، والزلازل الاطراف

٢٥ فارة التاجر هي فارة المسك (٣) في الديوان (أن أبيت كما بي)

٤٥ احم : أسود العينين

وكم فيه من حو^(١) اللثات كأنما جرى ضرب ما بينها وشمول^(٢)
 علقناك يا ظبي الصريم طماعة^(٣)
 أعندك من نيل لنا فتليل
 أنل نائلا أو لافن^(٤) بنظرة فاني بالاولى الغداة قتيل
 واني إذا اصطكت رقاب مطيكم
 وثور^(٥) حاد بالرفاق عجول^(٦)
 أخالف بين الراحتين على الحشا
 وأنظر^(٧) أني ملتم فاميل
 أحن وتجزيني على الشوق^(٨) قسوة
 إلا غسال ما بيني وبينك غول
 وما زادني ذكر الاحبة عن كرى
 ولكن ليلى بالعراق طويل
 وقد يتفق له في قصيدة واحدة أن يشير إلى عدة معالم فيقول:
 يا منشظ الشيخ والحوذان من يمن^(٩)
 حيث فيك غزالا لا يحيني
 ترى الغريم الذي طال اللزوم به
 في الحي^(١٠) مول من بعدي فيقضيني
 إن الخلي^(١١) غداة الجزع عيد به إلى ضمير معنى اللب مفتون

(١) حو جمع حواء وهي السمراء ، والضرب بالتحريك العسل ، والشمول
 الحجر تبردها ربح الشمال (٢) الصريم : الرمل المنقطع
 (٣) ثور : هتف (٤) المنشظ : المنبت ، والشيخ والحوذان نباتات

لولا ظباء معاطيل سنحن لنا^(١)
ما كان يذهل عن عقل وعن دين
قد كان ينجو بنجد من عزيمته
فعارضته عيون الربوب العين
ماء النقيب ولو مقدار مضمضة^(٢)

شفاء وجدي وغير الماء يشفيني
ونشقة من نسيم البان فاح بها

جنح من الليل تجري في العرائن^(٣)
أسقى دموعي إذا ما بات في سدف
صريف أثل بداريا يغنيني^(٤)

هيات بابل من نجد لقت بعنت
عن المطي مرامي ذلك البين^(٥)

فالشريف في أمثال هذه الأشعار لا يعني بالضبط ما يقول ، فهو
يذكر مواضع ومنازل لا يعنيها بالذات ، وإنما يجعلها حجازاً بينه وبين
الواشين ممن يسوءهم أن يصرح بمواقع هواه في الكرخ وبغداد .

أيها السادة

لا تظنوا الشريف كان من المخادعين ، لا ، وإنما كان من المتجملين
فقد كان على جانب من الشجاعة حتى صح له ان يصرح بأن الحسن

«١» معاطيل غير حوال ، أي وحشيات

«٢» النقيب بالتصغير اسم مكان «٣» العرائن جمع عرين بالكسر

وهو الأنف «٤» داريا اسم موضع

«٥» البين بكسر الباء الناحية والفصل بين الارضين

يسببه في الجنسين فيقول :

واغيد محسود على نور وجهه هجرت سوى لحظ البعيد الجانب
وغيداء قيدت للعناق ملكتها فترهت عنها بعد وجد تراثي
ويقول :

ويا أهيفاً رمقته العيون وزفت عليه قلوب الامم
تضرم خداه حتى عجبت لعارضة كيف لم يضطرم
لئن لم تجد طائعا بالنوال لقد جاد عنك الخيال المم
ومثلك ظالة المقتلين تلاقى الجمال عليها وتم
لها في الحشا حافز كلما جرى الدمع دل عليه وتم
أقول لها والقنا شرع ويرغم من قومها من رغم
لنا دون خدرك نجوى الزفير ويرغم من قومها من رغم
وإلا فقرع صدور القنا ووقع الطبيا وصليل اللجم
ويقول :

وقد كنت آبي أن أزل لصبوة وأن تملك البيض الحسان عقالي
خيصاً من الاشجان لا يوضع الهوى

بقلي فلا اجتاز الغرام بيالي^(١)

الى ان تراءى السرب بين غزالة

ترنح في ثوب الصبا وغزال

فلما التقينا كنت أول واجد^(٢)

ولما افترقنا كنت آخر سالي

(١) يوضع الهوى ، من الايضاع وهو الامراع (٢) الواجد : المشتاق .

وليلة وصل بات منجز وعده حبيبي فيها بعد طول مطال
شفت بها قلباً أطيل غليله زماناً فكانت ليلة بليالي
فيا زائراً لو أستطيع فديته بأهلي على عز القبيل ومالي
ولكن هذه الشجاعة لها حدود يعرفها جيداً من يرشح نفسه لإمارة
الحج ونقابة الأشراف ومناصب القضاء ثم إمارة المؤمنين .

ومن أجل هذا كان تصويره للجوانب الحسية من الجمال تصويراً قليلاً
التهاويل ، لا رفت فيه ولا فسوق ، فلم يستطع أن يكون خليفة الشاعر
الذي قيل فيه : ما عصى الله بشعر أكثر مما عصى بشعر عمر بن أبي ربيعة ،
ولم يتحدث أحد بأنه قرأ غراميات الشريف فدعته نفسه إلى مراجعة
الضلال ، وإنما يستطيع ألوف من الناس أن يقولوا إن شعر الشريف حجب
اليهم الغرام النبيل ، وساقهم إلى ~~تجسيد~~ ^{مواسم} العيون في حكرائم
الأحاسيس .

لا تنظروا من الشريف أن يبيجكم بالأوصاف الحسية ، فما كان يملك
ذلك ، وكرمكم يتسع للصفح عنه ، وقد عرفتم كيف كان مركزه في المجتمع
بل أعذروه إن اكتفى بالأوصاف التي ردها الشعراء فقال :

لقين قلوبنا بجنود حرب تطاعن بالدمالج والبرينا^(١)
جلون لنا لآلىء واضحات أضان بها الذوائب والقرونا
عهدنا الدر مسكنه أجاج فكيف تبدل الثغب المعينا^(٢)
أوقال :

١) الدمالج جمع دملج على وزن جندب وهو المعضد، والبرين : الخلاخيل
مفردها برة على وزن ثبة .

٢) الثغب بالفتح هو بقية الماء في بطن الوادي ، والمعين : الجاري

عطون بأعناق الظباء وأشرقت وجوه عليها نضرة ونعيم^(١)
 أمطن سجوفاً عن حدود تقية صفا بشر منها ورق أديم^(٢)
 شفوف على أجسادهن رقيقة ودر على لباتهن نظيم^(٣)
 يجلن خلاخيل النضار وملؤها بوادي غيل بينهن عميم^(٤)
 تاطر أغصان الأراك أماها

وقد رق جلاب الظلام نسيم^(٥)
 غرامي جديد بالديار وأهلها

وعهدي بهاتيك الطول قديم
 يقولون ما أبقيت للمين عبرة
 ققلت جوى لو تعلمون قديم
 أيسمح جفني بالدموع وأعتدي
 ضنينا بها إني إذن للثم
 ولو بخلت عيني إذن لعتبتها
 فكيف ودمع الناظرين كريم
 أوقال :

هل ناشد لي بعقيق الحمى غزيراً مرّاً على الركب

«١» عطون : من المطو بالفتح وهو التناول ورفع الرأس واليدين ، وعطا
 الظبي : تناول إلى الشجر ليتناول منه

«٢» السجوف جمع سجع ، بالفتح ويكسر ، وهو السر ، والأديم الجلد .

«٣» اللبات جمع اللبة بالفتح وهي موضع القلادة من الصدر

«٤» البداوى : المنسوبات إلى البادية والقبيل بالفتح الساق الريان . والمعيم :

المتلي . «٥» التاطر : التثني

أفلت من قانصه غرة وعاد بالقلب إلى السرب
وأظما القلب إلى مالك لا يحسن العدل على القلب
يمجب من عجي به في الهوى واعجني منه ومن عجي^(١)
أقرب بالود وينأى به ويلى على بعدك من قربي
منعم يعطف منه الصبا لعب الصبا بالغصن الرطب
بلادة النعمة في طبعه وربما ناقش في الحب
أما اتقى الله على ضعفه معذب القلب بلا ذنب^(٢)
يا ماطلا لي بديون الهوى من دل عينيك على قلبي ا

وفي الأبيات الأخيرة بيت عجيب ، وهو :

بلادة النعمة في طبعه وربما ناقش في الحب
وقلما يتنبه الشريف إلى أمثال هذه المعاني ، فهو قليل التحليل لأهواء
الملاح ، ولكنه في هذا البيت تنبه إلى البلادة التي تراها أحيانا في الجمال
المترف ، ففي بعض منازل النعيم ألوان من الجمال تشبه في مداركها جمال
التهايل ، والذكاء في أهل الجمال قليل الوجود ، ولكن هذه أثره نفسانية
فالشعراء يحبون أن تضج الدنيا لهم حين يظهرون ، وهم ينسون أن الجمال
لو أعلن شعوره بهم في جميع الاحايين لانقلبت الدنيا إلى مسازح من
العبث والمجون .

(١) المعجب بفتح العين التصجب ، والمعجب بالضم التيه والازدهاء

(٢) معذب بصيغة الفاعل

وصف السود الملاح

أيها السادة

حدثتكم منذ أشهر أن ابن سكرة كان أولع بجارية سوداء فقال فيها
ألوف الأبيات، وحدثتكم أن الشريف الرضي تآثر ذلك الشاعر في وصف
السود الملاح، وفي هذا المساء يتضح لكم أن الشريف وقف عند حده في
الوصف، فلم يتعد الكلام عن اللون، إذ قال على لسان من سأله مدح
جارية سوداء:

لاموا ولو وجدوا وجددي لقد عذروا سي

وذنّب من لام مظلماً غير مغتفر
لما تمالوا على عذلي أجبتهم بعز معترف لا ذل معتذر
أهوى السواد برأسي ثم أمقته فكيف يختلف اللونان في نظري
تأبي طلائع بيض ذر شارقها
في عارضي أن تكون البيض من وطري
إني علقت سواد اللون بعدكم علاقة تشمت الظلماء بالقمر
لو لم يكن فوق لون البيض مارقت
صبغ الليالي على الاجياد والعذر
جعلته لسواد الرأس تذكرة
أن تفقد العين يرض القلب بالأثر
والليل أستر للخالي بلذته والصبح أفضح للساري على غرر

وللقتى في ظلام الليل معنرة
وما له في الضحى إن ضل من عنبر
لا أجمع الحب للبيض الحسان إلى
ما بيض الدهر والايام من شعري
وكيف يذهب عن قلبي وعن بصري
من كان مثل سواد القلب والبصر
فما هذا الكلام؟ وما هذا المنطق؟ ان الشريف في هذه القصيدة يعبث
عبث الاطفال¹

فهل من الحق ان الرجل يعشق السوداء لان سوادها يذكره بسواد
الناصية؟
وهل من الحق ان الرجل يبغض البيضاء لان بياضها يذكره ببياض
الشيبة؟

ترك هذا : وتنظر قوله من كلمة ثانية :

أحبك يا لون الشباب لأنني رأيتكما في القلب والعين توأما
سواد يود البدر لو كان رقعة بجلده أو شق في وجهه فما
لبغض عندي الصبح ما كان مشرقا
وحبب عندي الليل ما كان مظلما
سكنت سواد القلب إذ كنت شبهه
فلم أدر من عز من القلب منكما
وما كان سهم الطرف لولا سواده
ليبلغ حبات القلوب إذا رمى

إذا كنت تهوى الظبي ألمي فلا تعب
جنوني على الظبي الذي كله لمي
فماذا ترون في هذه الايات ؟ هل غرست في قلوبكم الميل إلى السواد
في الملاح ؟

ولنسايره مرة ثالثة فننظر كيف يقول :
أذات الطوق لم أقرضك قلبي على ضني به ليضيع ديني
كفالك حلي جيدك أن تحلى بأطواق النضار أو اللجين
سكنت القلب حيث خلقت منه
فأنت من الحشا والناظرين
أحبك ان لونك لون قلبي وإن ألبست لونا غير لوني
عديني وامطلي وعدي فحسي وصالا أن أراك وأن تريني
نظرتك نظرة لما التقينا على وجلين من هجر وبين
كافي قد نظرت سواد قلبي بوجهك ظاهراً لسواد عيني

الحق ان اشعار الشريف في النساء السود كلها لعب في لعب ، وقد
جاء في اللديوان أنه سئل أن يقول في السواد كما قال ابن الرومي فقال ،
والسكوت كان أولى وأوجب ، لأن الشريف لم يكن يستطيع أن يجاري
ابن الرومي في هذا الميدان ، وكيف وابن الرومي شاعر فاجر لا يضيره
أن يذكر الخصائص الاصلية في المليحة السوداء ؟ وهل كان
يكفي أن يقال ان السواد أفضل من البياض كما فعل الشريف ، وكان
من الغافلين ؟

إن قصيدة ابن الرومي في محبوبته السوداء قصيدة فريدة في الشعر

العربي، وما كان يجوز للشريف أن يتورط في معارضته ، لأن الفصل في هذه القضية ما كان يمكن لشاعر يتقنع بالحياء ، ومركز الشريف في المجتمع لم يكن يسمح له بأن يخلع قناع الحياء .

الواقع أن الشريف لم يكن يستطيع أن يفضل لونا على لون ، أو جنساً على جنس ، لأن هذا التفضيل لا يتيسر إلا لجماعة من الشعراء سيصرون فيما يقال من حطب الجحيم .

والشريف فيما نرجح كان رجلاً « طيباً » يصف الجمال بالسماع !



مركز تحقيقات ودراسات إسلامية

عفاف الشريف

أيها السادة

رأيت ما كان يحيط بشاعرنا من المهرجات ، ورأيت انه حرم نفسه
أعظم لئلا يتغنى بها المشذبون ، فلم يصف مراتع الانس ، وملاعب العيش ،
ولم يتحدث عن أسرار الهوى في الكرخ أو بغداد .

وقد آن أن تعرفوا بوضوح أن شاعرنا لم يكن له بد من الحديث
عن العفاف ، العفاف المطبوع أو العفاف المصنوع ، ومن المؤكد عندي
ان الشريف كان من المتخيلين ، ولم يكن من المنافقين ، فهو قد عشق
بالفعل ، وكيف لا يعشق والعراق بفطرته مفطور على تقلب القلوب ؟
ألم تروا كيف يتلاعب جوه من صحوا إلى غيم ، ومن برد إلى قيظ ؟ ألم
تروا إلى أهله كيف يفضبون ويبتسمون في لحظة واحدة ؟ ألم تلاحظوا
ان العراق تفرد بمزية غريبة هي الإسراف ، ففيه ظهر أعظم النساك ،
وفيه نبغ أكابر الفساق ؟

إن هذه الطبيعة المزدوجة هي الشاهد على تقلب القلوب ، والقلوب
لا تتقلب إلا بقوة الاحساس ، والاحساس القوي هو منبع العشق ،
والعشق على جموحه هو أساس النظام في حياة الرجال .

وكان من حظ الشريف ان يكون صورة طريفة لذلك الازدواج
فلم يكن من النساك ولا من الفساق ، وإنما كان قلبه مسرحاً لتقلب
الاجواء العراقية ، فكان فاسق النظر عفيف الخطرات ، خطرات القلب

والروح .

ولم يكن عفاف الشريف باباً من عفاف الضعفاء اصحاب الحب العنري
فالمعذريون في حقيقة الامر كانوا مرضى لا يحسنون صيال الفحول ، اما
الشريف فكان رجلاً قوياً، وكانت فحولته تدعوه إلى التفكير في شريف
المصاهرات ، وهو قد تزوج بالفعل وأنجب ، فلم يبق إلا ان يكون عفافه
باباً من التصون ليسلم من السنة السفهاء ، والتصون هو في ذاته قوة ، لأن
كبح النفس يحتاج إلى نضال ، وقد ناضل صاحبنا في سبيل شرفه فلم يمت
إلا وهو مرموق الجلال .

أيها السادة

لا تحسبوني أتفلسف ، فانا في هذه المحاضرات من خدام الحقائق و حولي
عيون وارصاد تصدني عن شطط الخيال .

وقد تأملت ما قال الشريف في العفاف مرات ومرات قبل أن أدون
الكلام الذي تسمعون ، وصح عندي أن غراميات ذلك الرجل كانت
عراكاً في عراك .

هو عفيف ، ولكن حديثه عن عفافه يشعرنا بأنه كان يجاهد هواه
جهاد المستميت ، وانظروا كيف يقول :

تذكرت أياماً بذي الاثل بعدما تقضى أواني في الصبا وأوانها
يطيب انفاس الرياح ترابها ويخضل من دمع الغمام بانها
ولما عطفت الناظرين بلفتة الى الدار عبرة العين شانها
ليالي تثني عواطف صبوتي إلى بدويات تثني لداتها

ولا لذة إلا الحديث كأنه لال على جيداء واه جمانها^(١)
عفاف كما شاء الآله يسرني وإن سيء منه بكرها وعوانها
فما رأيكم في هذه الآيات ؟ أعلنوا رأيكم بصراحة ، فليس بيني وبينكم
حجاب ، ألا ترونها جميعاً قوية ، ألا هذه الشطرة :

عفاف كما شاء الآله يسرني

وإنما أستضعف هذه الشطرة لاني أعتقد أن مشيئة الله أقامت إقحاماً
في هذه الآيات مراعاة لأهواء الجهلاء !
وهذه الآيات :

يشكو الحبيب إلي شدة شوقه وأنا المشوق وما بين جناني
وإذا همت بمن أحب أمالي حصر يعوق وعفة تنهاني^(٢)
لله ما أغضت عليه جوانحي والشوق تحت حجاب قلبي عان^(٣)
فهل ترون فيها إلا اعتلاجاً في اعتلاج ؟ هل ترون إلا رجلاً يخشى ثورة
المجتمع على من يرشح نفسه لأعظم المناصب الدينية ؟
وهذه الآيات :

ولما أبى الأظمان إلا فراقنا وللبين وعد ليس فيه كذاب^(٤)
رجعت ودمعي جازع من تجلدي

يروم تزال للجوى فيهاب
وأثقل محمول على العين دمعها إذا بان أحباب وعز أيا

«١» جيداء : وصف من الجيد بالتحريك وهو دقة العنق مع طول ، والجمان
على وزن غراب الأوز ، وأحدثه جمانة

«٢» الحصر بالتحريك هو المي في المنطق

«٣» عان : أسير «٤» كذاب بكسر الكاف وفتح القال بدون تشديد

فن كان هذا الوجد يعمر قلبه فقلبي من داء الغرام خراب
 ومن لعبت بيض الثغور بعقله فعندي أحر الباردين رضاب^(١)
 يعف عن الفحشاء ذيلي كأنما عليه نطاق دونها وحجاب
 إذا لم أنل من بلدة ما أريده فما سرني أن البلاد رحاب
 فهل ترون هذه الأبيات إلا صورة من صور النضال بين المجد والحب؟
 ان الشاعر يصرح باللوعة ، ثم يثور على هواه فيعلن أن قلبه من داء الغرام
 خراب ، ليصح له أن يقول إن المجد غاية مناه ، وليس من الكثير على مثله
 أن يدوس الهوى في سبيل المجد ، فتلك ثوره نفسية عرفها أحرار الرجال
 ولكن من الواجب أن نتذكر هذا لنعرف أن صاحبنا لم يؤثر العفاف وهو
 طائع ، وإنما اختار العفاف لأنه أصلح الصفات لبلوغه من المجد ما يشتهي
 وللمجد شهوة أقوى وأفعل من شهوة الجمال .

ثم اسمعوا الايات الآتية فهي أغرب :

وأبقت لي الأيام حزماً وفطنة ووقرن جاشي بالامور الغرائب
 توزع لحمي في عواجم حمة وبان على جنبي وسم التجارب^(٢)
 وأرض بها بعت الصباة والصبا

وناهض قلبي اهم من كل جانب

وزور من الأضغان نحوي كأنما

يلاقهم شخصي لقاء المحارب^(٣)

(١) الرضاب بضم الراء هو الريق

(٢) العواجم جمع عاجم وهو الذي يعجم العود ، أي يعضه ليختبر صلاحيته

لعمل الرماح ، والرسم في الأصل الكمي ، ومنه اليمس وهو المكواة

(٣) للزور بفتح الزاي هم الزقرون

أناسيهم بغضاهم غير غافل وأسألهم معروفهم غير راغب
وإني لأطويهم على عظم دائم وأقعد منهم بين رام وجالب
ألا رب مجد قد ضرحت قذاته^(١)

وكان على الأيام جم الشوائب
وسر كتمت الناس حتى كتمته
ضلوعي ولم أطلع عليه مآربي
وأغيد محسود على نور وجهه
هجرت سوى لحظ البعيد المجانب
وغيداء قيدت للعناق ملكتها فتزهدت عنها بعد وجد ترائبي
وما عفة الانسان إلا غباوة
إذا لم يكافح داء وجد مغالب

ألا ترون قوة النفس في هذا الشعر الغريب؟ ألا تشهدون عثير المعركة
بين العقل والقلب؟ ان الرجل يصرح بأن العفة ضرب من الغباوة والجهل
ولا يرى لها أية قيمة إلا إن كانت باباً من الكفاح، الكفاح ضد أدواء الوجد
المغالب. والشاعر بهذه الوثبة الشعرية يؤرخ قلبه أعظم تاريخ، فهو
يدرك نور الوجوه - ولبعض الوجوه أنوار - ويدرك حلاوة العناق -
وفي بعض العناق حلاوة تزلزل الجبال - ولكنه بجانب ذلك يتذكر مطالبه
العالية في ساجات المجد، والمجد فيه نور، وفيه رضاب، وفيه عناق،
وفيه كل ما تشتهي نفس الفحول، وهل يشقى الناس أنفسهم في سبيل
المجد إلا إذا رأوه أروع وأفتن وأملح وأعذب من جميع ما تفرع بهم به -
بوارق الحسن الفتان؟

(١) ضرح القذاة منها ونحاما

ولكن هذا الجبار المتمرد على الحب قد يتفق له أن يرق فيقول:
 بقر بعيني أن أرى لك منزلا بنعمان يزكوتر به ويطيب^(١)
 وأرضا بنوآر الاقاحي صقيلة تردد فيها شمال وجنوب
 وأي حبيب غيب الناي شخصه
 وحال زمان دونه وخطوب
 تطالت الاعلام بيني وبينه وأصبح نائي الدار وهو قريب
 لك الله من مطلولة القلب بالهوى
 قتيلة شوق والحبيب قريب
 أقل سلامي إن رأيتك خيفة وأعرض كما لا يقال مريب
 وأطرق والعينان يومض لحظها اليك وما بين الضلوع وجيب^(٢)
 يقولون مشغوف الفؤاد مروع^(٣)
 ومشغوفة تدعي به فتجيب^(٣)
 وما علموا أنا على غير ريبة بقاء الليالي نغتدي ونؤوب
 عفاني من دون التقية زاجز
 وصونك من دون الرقيب رقيب
 عشقت ومالي يعلم الله حاجة
 سوى نظري والعاشقون ضروب

١٥ «١» يرى القارئ في صفحة ١١٩ من هذا الجزء ان الشريف دعى على
 (نعمان) بالعطش ، وهو الآن يعطف عليه ، وهذا يؤيد ما قلناه من أن النص
 على هذه المنازل قد لا يدل على انه يعنيه بالذات - ونعمان اسم لعدة مواضع ،
 أشهرها نعمان الأراك وهو بين مكة والطائف

٢٢ «٢» كلمة (ما) في هذا الشطر اسم موصول

٢٣ «٣» في الديوان (تدعو به فيجيب)

ومالي يا لمياء بالشعر طائل
سوى أن أشعاري عليك نسيب^(١)
أحبك حباً لو جزيت ببعضه أطاعك مني قائد وجنيب
وفي القلب داء في يديك دواؤه
ألا رب داء لا يراه طبيب

وهذه قطعة تصافح القلوب ، ولكن ماذا صنع صاحبنا الشريف ؟
لقد ترفق بحبوبيته فمنحها شطراً من الفضل إذ جعل تصونها أعنف
الرقباء ، وهذا معنى إنساني نبيل ، وهل ينكر منصف أن من النساء من
يجاهدن الهوى كما يجاهدن أعفاء الرجال ؟ هل ينكر منصف أن هناك نساء
نعاشرن طوال السنين وفي قلوبنا وجد مشبوب ثم نكتفي منهن بمجلاوة
الانس وبشاشة الحديث ؟

لا تقولوا ان الشريف يتكلف العفاف ، فان حاله يختلف عن حال أبي
نواس وأمثال أبي نواس ممن لا يرون الوجوه الصباح إلا في المواقير ،
فان التبذل في وصف ليالي الانس يقبل من شاعر لا يرى وجه الدنيا إلا
في مراديب الحانات ، أما الشعراء الذين تسمح لهم مقاماتهم في المجتمع
بان يكونوا على صلوات مع كرائم « العائلات » فلم شان آخر ، لانهم
يدخلون بيوتاً لها قدسية الحاريب ، وليس من التزيد أن أقول اني عرفت
هذا النوع من الحياة فرأيتة أغرب الالوان في عالم الشعر والخيال ، وله
لذة أنضر وأعمق من لذة العبث والمجون ، ولكن أين من يدرك كرائم
المعاني ؟

(١) لمياء : اسم امرأة ، من اللمى وهو سمرة الشفتين ، والعرب يحبون سمرة
الشفاه ، وما أحسبهم على ضلال !

ثم اسمعوا أيضاً كيف يقول :
وله قلبي ما أرق على الهوى وأصبي إلى لثم الحدود والنواضر
يحن إلى ما تضمن الخمر والحلى^(١)

ويصدق^(٢) عا في ضمان الأزر

ولا غدونا للوداع وتقرت

صروف النوى دون الخليط المجاور

عنيت من القلب العفيف بعاذل^(٣)

ومن خدع الشوق السفيه بعاذر

عشية لا عرس الوفاء برملى لدينا ولا أم الصفاء بعافر

ومن لم ينل أطماعه من حبيبه رضى غير راض بالخيال المزاور

وكنت أذود الدمع إلا أقله لسقيا حتى من بعد بينك دائر

وإني لا أرضى إذا ما تحملت إليه مرايبع السحاب المواطر

فهل رأيتم أدق من هذا الوصف؟ وهل رأيتم أظرف من هذا العاشق

المتناق؟ ما هو الفرق بين ما يضمن الخمر، وما يضمن الأزار، يا مولانا

الشريف؟

الفرق بعيد جداً، فالحنين إلى ما يضمن الخمر هو من النوازع التي

يتفرد بها أصحاب الأذواق الرقاق، أما التطلع إلى ما يضمن الأزار فهو من

شهوات الأذواق الغلاظ!

ثم انظروا صورة النزاع بين العقل والقلب، انظروا كيف يبتلى

(١) الخمر جمع خمار بكسر الخاء، والحلى جمع حلية (٢) في الديوان (يصدق)

وهو تحريف (٣) عنى يضى - من باب ضرب - شقى يشقى

الرجل بقوتين : قوة العاذر من الشوق السفيه ، وقوة العاذل من القلب
العفيف

لقد سمعتم بما سماه القدماء خيال البحرى ، ولعلكم قرأتم تفصيل ذلك
في كتاب (مدامع العشاق) ولكن ألا ترون أن الشريف بلغ الغاية في
وصف تفاهة الفرح بالطيف حين قال :

ومن لم ينل أطباعه من حبيبه رضى غير راض بالخيال المزاور
تأملوا عبارة (رضى غير راض)

وبعد هذه القطعة أبيات أرى إمتاع أسماعكم بها ، فهي عندي مسن
ووثبات الخيال .

كليفي إلى ليل كان نجومه تغازل طرفي عن عيون الجاذر
أمر بدار منك مشجوة الثرى

بمجرى نسيم الانسات الغرائر^(١)

تمر عليها الريح وهي كأنها تلفت في أعطاف تلك المقاصر

ألا ترون يا أدباء بغداد كيف يزعم شاعركم ان للطبيعة احاسيس ؟

ألا ترون كيف يدعي ان الرياح تمر بتلك الدار فتتلفت إلى ما فيها

من مقاصير ؟

ليت الوقت يسمح بأسماعكم فقرات من كتاب (التصوف الاسلامي)

لتروا بقوة المنطق ان الشريف لم يكن عابثاً ، وإنما كان يحس ماسيقوله

انصار القول بوحدة الوجود بعد مئات السنين . وهل يعقل أن تمر الريح

بالوادي الجديب ، كما تمر بالوادي الحصب ؟ هل يعقل أن تمر النسبات

(١) مشجوة : مجروحة

بوجوه اهل البلادة كما تمر بوجوه ارباب القلوب ؟
وهل اختلت الموازين في الدنيا حتى نصدق أن الارض التي تدوسها
البهائم كالارض التي تتخطر عليها أقدام الأطباء ؟

ترك هذه الفلسفة الوجدانية ، ومنتقل إلى قول الشريف :

يا وقفة بوراء الليل اعدها كانت نتيجة صبر عاقر الوطر
والوجد يغصني قلباً اضن به والدمع يمنع عيني لذة النظر
طرقتهم والمطايا يستراب بها والليل يرمقني بالانجم الزهر
اصانع الكلب ان يبدي عقيرته^(١)

والحي مني إذا اغفوا على غرر^(٢)

وفي الخباء الذي هام الفؤاد به نجلاء من عين الغزلان لاالبقر^٣

ابرزتها فتخاصرنا مباحنة^(٤) عن الحيام نغني الخطوب بالازر

ثم اثنتيت ولم ادنس سوى عقب

على جنوبي لريا بردها العطر

وفي هذه القطعة الفاظ طريفة كمبارة (عاقر الوطر) ونعوذ بالله

من الوطر العاقر ، ونسأله السلامة من عقم الاماني ! وفيها ايضاً سياسة

يحسنها المحبون ، وهي مصانعة الكلاب ، ولا بد لكل عاشق من مصانعة

الكلاب ، بل لا بد لكل رجل من مصانعة الكلاب^١

ولكني احب ان انوه بتلك المحاصرة ، فما يليق ان يعيش صاحبنا

عيش المحروم في جميع الاحوال ، وهل يتفق العقاف مع المحاصرة ؟ تلك

إحدى المعضلات ؟

(١) العقيرة يراد بها الصوت (٢) التردد بالتحريك هو التعرض للهلاك .

(٣) في الديوان (والبقر)

ان العفاف هنا ليس صورة للعفاف الذي يمضغه ادعياء الدين ،
ولانما هو عفاف الشاعر الذي يرى ما دون الرذيلة مباحاً في مباح ،
ويكفي لغفر ذنوبه ان يتمتعنا بهذا البيت :

ثم اثنتيت ولم ادنس سوى عقب

على جنوبي لريا بردها المطر^(١)

الله أكبر ! ما هذا السحريا اطرف الفاسقين !

ثم ماذا ؟ ثم يقول في مخاطبة الظباء :

انا من علمت الغداة تقية ازري وضامنة العفاف مازري

فاعرفن كيف شمائي وضراي وانظرن كيف مناقبي وماثري

كماقد الجبل الاشم معاقتي ومجاور البيت الحرام مجاوري

وكان يمكن أن نعيب عليه النص على المآزر في هذا الكلام النفيس ،

ولكن ماذا يصنع والناس في سرهم وجهرهم يطوفون حول ذلك الجمر

المدفون!

وحسبه من الشرف ان يقول :

ومجاور البيت الحرام مجاوري

فهذا كلام لا يقوله إلا الفتيان الشرفاء ، وفيه صور لا تخفي على اللبيب .

ثم يقول :

وكم ليلة بتنا على غير ريبة علينا عيون للنهي ومسامع

نفض حديثاً عن ختام مودة معاقلنا احشاؤنا والاضالع

يكاد غراب الليل عند حديثنا يطير ارتياحاً وهو في الوكر واقع

خلونا فكانت عفة لا تعفف وقد رفعت في الحي عنا الموانع

١٥٠ لريا : الرائحة المطرة

سلوا مضجعي عني وعنهما فانتنا رضىنا بما يخبرن عنا المضاجع
فالى من توجه هذا الكلام ايها الفاجر العصف ؟
وما رأيك إذا خبرناك اننا سالنا تلك المضاجع فانباتنا ان اكاذيبك
الطريفة لن تمنع من دخولك الجنة مع الصادقين ؟ !
ايها السادة
تذكرو ان الشريف شاعر ، وللشعراء اضاليل افضل من الهداية
واكاذيب اشرف من الصدق ، وعبث ماجن هو في جوهره انضر واطيب
من الجدد الرزين .



مركز تحقيقات كميونير علوم اسلامي

حجازيات الشريف

ايها السادة

سمعتم فيما سلف ان الشريف الرضي تفتحت عبقريته بفضل طريق الحج ، وموسم الحج ، ورأيتم أقباساً من جذوات وجدته المشبوب .
ونريد اليوم ان نتكلم بالتفصيل عن قصائده الحجازيات .
ولي مع تلك الحجازيات تاريخ ، فقد القيت عنها محاضرة في نادي الموظفين بالقاهرة منذ سنين ، ثم كتبت عنها بعد ذلك فصولا مطولة في جريدة البلاغ ، وقد حاولت إحضار تلك الفصول من القاهرة ، ولكني لم استطع . فانا اكتبها للمرة الثالثة ، وذلك عناء اتقبله في سبيل الشاعر البكاء الذي خلد مواسم العيون والقلوب .

ايها السادة

ان أسلافنا لم يخطئوا حين جعلوا حجازيات الشريف من فرائد الشعر العربي ، فهي قصائد تفردت بغرائب من الاحاسيس ، والشريف في هذه القصائد من فحول الابتكار والابداع ، فهو لا يكرر ما سبق اليه الشعراء ، وإنما تتفجر عبقريته عن ممان طريقة تشوق الاذواق والعقول .
والشريف في الحجازيات كابي نواس في الخمريات ، فإن أبا نواس ألح إلحاحاً شديداً في وصف الصبياء ، وكانت لجاجته في وصفها خليقة بان تقذف به في مهاوي الاسفاف ، ولكنه مع ذلك تماسك وظل دائماً من المبدعين .

وكذلك الشريف، فهو لم يكتف في وصف موسم الحج بقصيدة أو قصيدتين أو ثلاث قصائد أو سبع قصائد، وإنما قال وأعاد، ثم قال وأعاد حتى بلغت قصائده في الحنين إلى موسم الحج نحو الأربعين .

وأنتم تدركون أيها السادة خطر هذا الاسراف، فقد كان كفيلاً بأن يسوقه إلى مدارج الابتذال، ولكن الشاعر ظل قوياً، وظلت معانيه جديدة على الزمان، فهو في حجازياته قادر على أن يبهر بيرون وجوت وميسيه، ومن اليهم من الشعراء الذين جعلوا الحب شريعة إنسانية لها من الشعر فرقان وانجيل .

واني لأخشى أيها السادة أن يكون بهذه الإشارة ظلمت الشريف فالشعراء العشاق في فرنسا وانجلترا وألمانيا والنمسا وإيطاليا عاشوا في بلاد لا تدعي أنها تحرس الدين والتقاليد في الأدبية الأدبية، أعني أنهم نظموا قصائد الحب في بيئات يغلب عليها المرح، ويصرفها الفتون، فالشاعر كانت تسوقه المغريات إلى التشبيب، والملاح اللاتني يدرن الأدبية الأدبية إدارة الكؤوس كن يطلبن بالقول أو بوحى الملاحظ أن تكون لمن سيرة كالجداول المعطرة في قصائد الشعراء، فلم يكن من المستغرب ولا المستبعد أن تتسع مذاهب القول في وصف الوسامة والجمال .

أما الشريف فكان ينظم الحجازيات في مواطن لا يجوز فيها رفث ولا فسوق، وينشدها بين أقوام يصطحبون ويغتبقون بالتسييح والتكبير والتهليل .

فأنصفوا الحق أيها السادة واعترفوا بأن الحجازيات ما كانت تصدر عن شاعر يعيش في بيئة مثقلة بالتحرج والتعنف والتنسك إلا إن كانت جذوات صدره أقوى وأعنف من أن تطفئها شأبيب التحنف بين زمزم

والحطيم .

أتم اليوم في عصر يسمونه (القرن العشرين) ويزعمون أنه حرر
المشاعر والقلوب من ربق التقاليد ، فهل فيكم شاعر يملك من الجرأة ما كان
يملك الشريف منذ نحو ألف نسمة ، يوم كانت قالة السوء تصرف رجلا مثله
عن ولاية المظالم وإمارة الحج وتقابة الاشراف ؟ هل يستطيع طلعت حرب
وهو رجل حر الذهن والعقل أن يضيف إلى الشريط السينمائي : شريط
الحج ، منظراً يمثل موقعة غرامية في سفح عرفات ؟ انه لو فعل لقامت
قيامه المترمتين في مصر والمغرب والشام واليمن والحجاز والعراق وقال
القائلون انها دسيمة يراد بها انتهاك المناسك ، والفض من هيبة الاسلام .
تصوروا ايها السادة أن وصف الحسن الذي ينثر أيام الصيف على
الشواطئ المصرية يضيف الشاعر أو الكاتب إلى عصبة الماجنين ، وإن
صح لأحد شعرائنا أن يقول في شاطئ الاسكندرية :

رعاه الحب من شط جميل خفيف الروح مصقول أنيق
بهي الرمل تحسبه سجوفا مطرزة بحبات العتيق
أطوف به فيغلبني خشوعي كاني طفت بالبيت العتيق
أيا حرم الأطباء أنرت روحي بمشكاة من الحسن الرفيق
ولو كشفت غشاوتهم لقالوا صبايا الخلد تسبح في الرحيق

إنه لا مفر من الاعتراف بأن الشريف كان مثال الجرأة والشجاعة
حين استطاع أن يؤرخ هواه في أيام الحج بقصائده المجازيات ، وهذه
الجرأة كانت من فيض الشاعرية ، فان الشاعر الحق أشجع الناس ، وأقدرهم
على الاستهانة بالكلية والحتوف .

قد تقولون : ان عمر بن أبي ربيعة سبقه إلى هذه الجرأة ، ونجيبان

الفرق بعيد بين الشاعرين : فعمربن أبي ربيعة نشأ في صدر الاسلام يوم كان ديناً سمحاً لا تتقله الاوهام التي أتقلته فيما بعد حين حمل أوزار الواغلين الذين تقلوا اليه أوضار الترمتم والجمود، فيما ورثوا عن اصولهم في الشرق أو في الغرب ، من بلادات المترهدين، وغباوات المتكشفين ، ورقاعات المتنسكين ، كان عمر بن أبي ربيعة يعيش بين أمراء وخلفاء كانوا في حقيقة الامر من أشرف الفتيان ، وكان الناسكون لعهد رجالاتا طرفاء لا ينكرون حقوق الافئدة والقلوب .

أما الشريف فعاش في الصدر الثاني من القرن الرابع بعد أن حمل الاسلام ما حمل من عسير التقاليد، وبعد أن كانت بغداد قد عرفت ألواناً من الترهده والتكشف تجعل الغزل في مواسم الحج ضرباً من اللهبوالفجور مع استثناء الطرفاء من الصوفيين العراقيين الذين أطلقنا بأخبارهم في كتاب (التصوف الاسلامي) .

ذلك فرق بين العصرين : عصر صديقنا عمر وعصر استاذنا الشريف .

وهناك فرق بين الرجلين : فعمربن أبي ربيعة كان في ياس من المجد السياسي ، فلم يكن ينتظر أبداً ان يكون له مجال في سياسة الدولة الاسلامية التي استبد بها الامويون ، وكذلك اقبل على دنياه ينهب منها ما تسمح به مواسم الحج من التطلع إلى الحدود النواضر، والعيون الفواتك ، ويخلق لنفسه آفاقاً من السيطرة الوجدانية تعوض ما فاته من السيطرة السياسية والانسان حيوان لئيم يهمله أن يسيطر في أي ميدان .

أما الشريف فكان له حال غير تلك الحال ، كان الشريف علوياً ، والعلويون كانت لهم مطامع سياسية توارثوها من جيل إلى جيل، والذي

يراجع ما فصلناه في كتاب (المدائح النبوية) يعرف ان اولئك القوم كانوا بلغوا غاية الغايات في رياضة أبنائهم وأحفادهم وأسباطهم على الايمان بانهم مظلومون وان الدنيا لا تصلح إلا ان رجع اليهم الامر في قيادة المسلمين ، وقد وصلوا في ذلك إلى غاية لا تحتمل ولا تطاق فكانوا يتصورون ان الدنيا - إن لم يسوسوها - ستظل ظلمات من فوقها ظلمات .

وكان الشريف الرضي يرى نفسه أهلاً للخلافة الاسلامية ، وساعده على ذلك مركز أبيه في المجتمع ، وتشرفه بالانتساب إلى علي بن أبي طالب وكان لعلي بن أبي طالب سلطة روحية هائلة في تلك العهود ، ويكفي أن نحدثكم ان الخليفة القادر أذاع في الناس انه رأى في منامه نهر الصليق قد اتسع حتى صار عرض دجلة دموعاً وانه سار على حافته فرأى عليه قنطرة عظيمة فأراد أن يعبر فانبثق النهر من حوله فرأى شخصاً يناديه اتريد ان تعبر؟ فقال :نعم ،فمد يده حتى وصلت اليه واخذه فمعب به وهاله الفعل فسأل من يكون هذا المتفضل بنجاته ؟ فقال صاحب اليد الكريمة : علي بن أبي طالب ، هذا الامر صائر اليك ، ويطول عمرك فيه ، فأحسن إلى ولدي وشيعتي .

وهذه الرؤيا الصحيحة او المخترعة تشهد بان العلويين في ذلك العهد كان ينصب لهم ميزان ، وكان الخلفاء العباسيون يرون من السياسة ان يداروهم بالثناء على جدتهم امير المؤمنين .

وكانت الظروف تسمح بعض السامح بان يتطلع الشريف إلى الخلافة فقد كان له في ذات نفسه خصائص ترشحه لذلك المنصب : كان من اسباط الرسول ، وكان متفوقاً في العلوم النقلية والعقلية ، وكان جميل الوجه جداً ، بحيث استطاع بعض اساتذته ان يقول انه لم يستبح النظر إلى وجهه

إلا بعد ان اخضر شاربه ونبت عارضاه ، والجمال كان من الصفات الماثورة
عن الرجل الذي اعز العرب في بقاع الارض ، وخذ لغتهم على وجه الزمان
الرجل الذي اسمه احمد عليه السلام ، وحشرنا في زمرة اصفياثه يوم يقوم
الحساب .

كان ذلك ايها السادة حال الشريف ، فتصوروا كيف جاز لرجل له
مثل تلك الاماني ان يفضح نفسه بين الناس فيصرح بأنه من عبيد النحور
والحدود والعيون ؟

ان ذلك لا يقع إلا في حالين اثنين : حال الشعر وحال الجنون .

وما اعتقد ان الشريف كان من المجانين ، فلم يبق إلا أن يكون من
الشعراء .

وما ادعوكم الى الخروج على تقاليد المجتمع لتعربدوا في معاقرة
الحسن عربدة الشريف ، لا ، وإنما ارجوكم ان ترحموا وتمطفوا عليه ،
فهو من سلالة قل فيها الشعر جداً ، حتى صار من كنايات العرب ان يقال :
فلان من نسل الرسول ، ويعنون انه لا يصلح للانتساب الى الشعراء ،
وما كان من الحق ان ينسلخ اسباط الرسول من الشاعرية ، وانما السبب
في ذلك ان القبائل التي كانت ترشح نفسها للملك لم تكن ترى الشعر مما
يليق بالملوك والخلفاء ، وذلك باب من القول فصلته في كتاب (النثر الفني)
فلا اعود اليه في هذا المساء ، ويكفي ان تذكروا ان الشاعرية لا تزكو إلا
إن عاش الشاعر عيش البلبل يتنقل كيف يشاء بين أمالسيد الافانين ،
والتأهب للملك يوجب ان يصير الرجل من عبيد المجتمع ، فيعيش كرئيس
الجمهورية الفرنسية لا يلقي اية كلمة في أي محفل إلا بعد استئذان .

واريد ايها السادة ان اقول ان الشريف الرضي لم يكن يصلح لغير

الشعر، واخشى ان اقول ان امارته للحج لم تكن إلا منحة يتفضل بها عليه الخلفاء العباسيون ليكون الفتى الذي اسمه الشريف الرضي خليفة للشيخ الذي اسمه ابو احمد الموسوي .

ولكن شاعرنا جمع بين المزيتين ، فكان أميراً للحج ، أميراً فقيهاً يقدم إلى الحجيج العراقي ما يبصره بالمشاعر والمناسك ، وكان شاعراً يتلف على الحسن تلهف الظامىء إلى الورد المنوع .

فان اختال علينا اهل الادب والذوق من اللاتينيين والسكسونيين والجرمانيين بان عندهم قسيسين ورهبانا يدركون اسرار الادب الرفيع فنسقول ان عندنا « شيخاً » يؤدى الفرائض والنوافل ويقراً الاوراد ، وهو مع ذلك شاعر حساس يفوق جوت ويرون ولامرتين .

فان سألوا : ومن هو ذلك الشيخ الشاعر ؟

قلنا هو الشيخ الذي ذهب لأداء فريضة الحج فبهرتة الصباحة فقال:

نظرتك نظرة بالحيف كانت

جلاء العين مني بل قذاها

ولم يك غير موقفنا فطارت

بكل قبيلة منا نواها

فواها كيف تجمعنا الليالي

وأها من تفرقنا وآها

واقسم بالوقوف على ألال

ومن شهد الجمار ومن رماها

واركان العتيق وبانيها

وزمزم والمقام ومن سقاها

لأنت النفس خالصة فان لم
تكونيها فانت إذن مناها
نظرت ببطن مكة ام خشف
تبغم وهي ناشدة طلاها
واعجبني ملامح منك فيها
فقلت اخا القرينة ام تراها
فلولا اني رجل حرام
ضمت قرونها ولثمت فاها
تلكم إحدى طلائع الحجازيات، فلتتناولها بشي من التحليل ولنبدأ
بهذين البيتين :

ولم يك غير موقتنا فطارت
بكل قبيلة منا نواها
فواها كيف تجمعنا الليالي
وأها من تفرقتنا وآها

فذلك شاعر يطوف بالبيت فتقع عينه على غرائب الحسن، ثم يكشف
الواقع غشاوة هواه، إذ يعرف انها لحظة لن تعود . ومن الذي يضمن
للشاعر ان يسمح الزمان اللعوب بأن يرد إليه هوى قلبه بعد عام او
عامين ؟ وهل يمكن ان تسمح ظروف العيش لانسانة هاجرت في سبيل
الحج من الاندلس او المغرب او مصر او الشام ان تعود لتلك المواقف
مرة ثانية ؟ من الذي يضمن لك حين تقع عينك على وجه جميل في بلد
غريب ان تجود الايام برؤيته مرة ثانية ولو في عرض الطريق ؟ وهل
تعرف المقادير قلب الشاعر فتعطف على جواه ؟

إن الشريف يؤلف المقاطع من قلبه الممزق وهو يقول :

فواهاً كيف تجمعنا الليالي
وآها من تفرقنا وآها

وإن حاله لشبيه بحال صديق أعرفه بعض المعرفة، ولعله يلبس إهابي، وربما كانت معرفتي بذلك الصديق هي السر في اهتمامي بجهازيات الشريف وكان ذلك الصديق رأى فتاة ألمانية بقطار المترو في باريس ، فدعاها إلى معاقرة الحديث ساعة أو ساعتين ، فاعتذرت بأنها على سفر ، ثم قالت وهي قواسيه :

On se verra, peut être !

وقد ركب صديقنا المترو ألف مرة ، وحج باريس مرات ، ولم يسمح الزمن بأن تقع عينه مرة ثانية على تلك العيون ، فواحر قلباه !
واتفق لذلك الصديق أن يدعو فريق من أصفياه إلى زيارة نورمنديا في كل عام مرة ، ولكن الزيارة الأولى لبساتين التفاح كانت في الوقت الذي فرغ فيه من دراسته بالسوربون ، فكانت أيامه بتلك البساتين أول العهد وآخر العهد . وقد رجع إلى فرنسا بعد ذلك ، ولكنه وا أسفاه كان يصل بعد (مايو) شهر الأزهار والرياحين ، وقد علمت ان شواغله في دنياه لن تسمح له أبداً برؤية نورمنديا في شهر مايو ، إلا أن يصبح من تقاليد الحكومات أن ترسل البعثات لتثقيف الذوق والوجدان !

يكفي هذا في الطواف حول هذين البيتين ، ونترك لأذواقكم درس الحسن في بقية القطعة ، وننتقل إلى الأبيات الآتية وقد قالها في مدينة الرسول في المحرم سنة ٢٩٤ :

وما كنت أدري الحب حتى تعرضت
عيون ظباء بالمدينة عين
فوالله ما أدري الغداة رميننا
عن النبع أم عن أعين وجفون
بكل حشا منا رمية نابل
قوي على الأحشاء غير أمين
جلون الحداق النجل وهي سقامنا
ووارين أجياداً وسود قرون
ولولا العيون النجل ما قادنا الهوى
لكل لبان واضح وجبين
يلجلجن قضبان البشام كشية
على ثغب من ريقهن معين
ترى برداً يعدى إلى القلب برده
فينقع من قبل المذاق بحين
تماسكت لما خالط اللب لحظها
وقد جن منه القلب أي جنون
وما كان إلا وقفة ثم لم تدع
دواعي النوى منهن غير ظنون
نصت المطايا أبتغي رشد مذهبي
فأقلعن عني والغواية دوني

فما رأيكم في هذه الابيات ؟ قد تقولون إن فيها معاني مألوفة، وهو كذلك، ولكن هل تغيب عنكم قوة إحساسه بالمألوف من تلك المعاني ؟

أرجوكم أن ترجعوا إلى الفصل الذي أنشأناه عن المبتذل والطريف في الجزء الأول من كتاب النثر الفني لتعرفوا بوضوح كيف يكون المعنى مالوفاً ثم يكون صاحبه أشعر الناس لأنه أحسنه أقوى إحساس .

ومن الذي ينكر قوة الشاعرية في هذا البيت :

يلجلجن قضبان البشام عشية

على ثغب من ريقهن معين

من الذي ينكر أن كلمة (يلجلجن) على ثقلها وقعت أجل موقع

في هذا البيت ؟

ومن الذي ينكر طرافة الخيال في هذا البيت :

ترى برداً يعدى إلى القلب برده

مرقبتع من قبل المذاق بحين

والمهم عندي هو النص على عبقرية السحر في هذا البيت :

وما كان إلا وقفة ثم لم تدع

دواعي النوى منهن غير ظنون

المهم ان تتصوروا مبلغ إحساسه بالوحشة لفقد الجمال ، وان تذكروا

كيف يتشوق ويلتاع .

وهذه الأبيات :

تذكرت بين المازمين إلى منى غزالا رمى قلبي وراح سليما

لئن كنت أستحلي مواقع نبله فاني الأقي غبهن ألبا

أصاب حراماً ينشد الاجر حسبة

فما عاد ماجوراً وعاد أنيا

غلو كان قلبي بارئاً ما ألتته ولكن أسقاماً أصبن سقيا

إذا بلّ من داء أعادت له المها نكاساً إذا ما عاد عاد مقياً
يظنونني استطرفت داء من الهوى

وهيهات داء الحب كان قديماً
قنصت بجمع شادنا فرحمته وأخفق قناص يكون رحياً
أغدو مهيناً بالحبائل ساعة غزالاً على قلبي الغداة كريماً
ترأت لنا بالخيف نفح لطيمة سرت عنك إلا عبقة ونسيا
ولم أر مثل الماطلات عشية ذوات يسار ما قضين غريماً
وهذه أبيات هادئة النفس ، ولكن ما رأيكم في هذا البيت :

أصاب حراماً ينشد الأجر حسنة
فما عاد ماجوراً وعاد أثماً

ان الشريف كان يتوهم انه كحمام الحرم لا يطرد ولا يصاد ، وكان
يجهل ان الحرم يباح فيه صيد القلوب ! .. وهذا البيت :

قنصت بجمع شادنا فرحمته وأخفق قناص يكون رحياً
فهو يمثل الحسرة اللاذعة التي يحسها من يرحم الجمال ، فيضيع منه
الجمال .

وهذا البيت :

ولم أر مثل الماطلات عشية ذوات يسار ما قضين غريماً
وهو يمثل لؤم الملاح : فهن يملكن الوفاء ، ثم لا يقدمن غير الصدود .
وفي منطق الشريف أن المليحة يقبح منها المظل لأنها موسرة ، موسرة
بالحسن والصباحة ، والشاعر لا يطلب غير الانس بالحسن والصباحة ،
والجود لا يتلف المحاسن كما يتلف الاموال ا

وما رأيكم في هذه القصيدة التي سارت في المشرقين والمغربين
وعارضها جمهور من الشعراء :

يا ظبية البان ترعى في خمائله ليهنك اليوم ان القلب مرعاك
الماء عندك مبنول لشاربه وليس يرويك إلا مدمع الباكي
هبت لنا من رياح الغور رائحة بعد الرقاد عرفناها برياك^(١)
ثم انتنينا إذا ما هزنا طرب على الرحال تعللنا بذكراك
سهم أصاب وراميه بذبي سلم من العراق لقد أبعدت مرمك
وعد لعينيك عندي ما وفيت به

يا قريب ما كذبت عيني عيناك
حكيت لحاظك ما في الريم من ملح^(٢)

مررت يوم القباء فكان الفضل للحاكي
كان طرفك يوم الجزع يخبرنا
بما طوى عنك من أسماء قتلاك
أنت النعيم لقلبي والعذاب له فما أمرك في قلبي وأحلاك
عندي رسائل شوق لست أذكرها
لولا الرقيب لقد بلغتها فاك
سقى مني وليالي الحيف ما شربت
من الغمام وحياتها وحياك
إذ يلتقي كل ذي دين وماطله
منا ويجمع المشكوة والشاكي

(١) الغور . اسم لعدة مواضع

(٢) الملح جمع ملححة بضم الميم وهو ما يستملح ويستطاب

لما غدا السرب يعطو بين أرحلنا
 ما كان فيه غريم القلب إلاك^(١)
 هامت بك العين لم تتبع سواك هوى
 من علم العين أن القلب هواك
 حتى دنا السرب ما أحييت من كمد
 قتلي هواك ولا فاديت أسراك
 يا حبذا نفحة مرت بفيك لنا ونطفة غمست فيها ثناياك
 وحبذا وقفة والركب مقتفل على ثرى وخذت فيه مطاياك^(٢)
 لو كانت اللمة السوداء من عددي
 يوم الغميم لما أفلت أشراكي^(٣)

فماذا ترون في هذه القصيدة الغصاء؟ خبروني ماذا ترون فانها تسمو
 على كل تحليل؟

أياكون السحر في أن يصبح القلب مرعى تلك الغزاة؟ أياكون
 السحر في أن لا يرويا الماء المبذول وإنما يرويا الدمع المسفوح؟ أم يكون
 في أن يعرف العاشق مهب الريح بما تحمل عنها من نفحات؟ وما هو ذلك
 السهم الذي يبعد مرماه فيصيب وهو بذني سلم أحشاء من في العراق؟

إن هذه من الحقائق النواصع، لو تعلمون، فالعاشق تقوى عنده
 ذاكرة النظر ويتصور ملامح معشوقه على بعد الديار وعلى بعد السنين
 فتغزوه الملامح الفتانة في كل وقت، كلما أدار أبصار فكره على ما رأت

(١) يعطو: من العطو وهو التناول ورفع الرأس واليدين (٢) مقتفل: من
 النفقة والمراد بها الاغفاء، والوخد: السير (٣) الغميم موضع

عيناه في عالم الفتون . والجاهل هو الذي لا يعرف ذلك ، الجاهل هو المحروم من نعمة الخيال الوثاب الذي يمثل ما نأى وما بعد وكأنه مشاهد ملموس، والشعراء بهذه المنحة الربانية يتمتعون بالمحاسن في صور مختلفات ويشهدون المنظر الفاتن ألوف المرات ، على حين لا يراه الجاهل غير مرة واحدة، إن كان الجاهل يدرك ما يراه ، وأكثر أهل الارض جهلاء ، وإن ظفروا بأعظم الالقاب ، وعلى الله رزق الدواب .

ويحدثنا الشاعر عن وعد العيون ، وللعيون وعود .

فهل يسمح الشريف بأن نعرض على ما نسبه إلى محبوبته من خلف الوعد ؟

هل يصدقنا الشريف إذا حكمتنا بأن العيون عالم منفصل عن عالم القلوب ؟

هل يصدقنا الشريف إذا جز منا بأن العين تعد وتخلف ، وتبرم وتنقض ، في غيبة القلب ؟

إن الناس يظنون منذ ألوف السنين ان العيون رسل القلوب ، فليعرفوا منذ اليوم ان العين خلق عجيب لا يعرف أسراره غير علام الغيوب .

ولعل الشريف فطن إلى ذلك حين استدرك فقال :

يا قرب ما كذبت عيني عيناك

و حين قال :

كأن طرفك يوم الجزع يخبرنا بما طوى عنك من أسماء قتلاك ، فهو يرى للعيون أعمالا يجهلها أهل العيون . والامر والله كذلك ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون .

ويقول :

حكى لحاظك ما في الريم من ملح

يوم اللقاء فكانت الفضل للحاكي

فيرينا ان الحلاوة في عيون النساء أمتع من الحلاوة في عيون الأطباء
والحق في هذه القضية ان عيون الغزلان في غاية من الروعة ، ولكنها
محرومة من صفة أساسية في عيون الملاح ، وهي الافصاح ، أو ما يعبر عنه
الفرنسيون بكلمة *Regard expressif* فعين الطيبة تروءك ، ولكنها لا
تحدثك ، أما عين المرأة فتروءك وتفضي اليك في لحظة واحدة بألف
حديث وحديث ، ولعل الشريف قصد إلى ذلك حين قال : فكان
الفضل للحاكي .

وانظروا كيف سجل مناسك الحج يهدين البيتين :

سقى مني وليالي الحيف ما شربت

من الغمام وحيها وحياك

إذ يلتقي كل ذي دين وماطله منا ويجمع المشكو والشاكي

فهل رأيتم أظرف من هذا الكلام ؟ وهل تدركون ما فيه من دقيق
الاشارات ؟ اغفروا لي هذه الهفوة ، فما اهتمكم بالجهل ، والعياذ بالذوق ،
ولنا أريد أن اهجم على الشريف فأقول انه كان يتخذ ايام الحج مواعيد
غرام ، واخشى ان اقول انه لم يكن يفارق مناسك الحج إلا على ميعاد .
وهذا يفسر حرصه على إمارة الحج بالأصالة عن نفسه او بالنيابة عن أبيه ،
ولا تستكثروا ان يحج الرجل ليرى امرأة يهواها ، او ان تحج المرأة لترى
رجلاتهواه ، فقد كنا ننظم المواعيد في القطار بين ليون وباريس ،
مواعيد لعام او عامين ، ثم نفي فنلتقي بعد عام أو عامين ، وللقلوب

غرائب لا تدركها العقول .

وما الذي يمنع من مجازاة أبي عمرو بن العلاء في الحكم بين الأعشى

ولبيد ؟

أتذكرون ما قال أبو عمرو بن العلاء ؟

انه قال : لبيد رجل صالح ، والأعشى رجل شاعر

وكذلك أحكم بأن الشريف رجل شاعر وليس برجل صالح .

وهل قلّ الصالحون في الدنيا حتى نشرفهم بالشريف ؟

إن الأغبياء يعدون بالالوف ، والوف الالوف ، وإمارة الحج تولاهما

مئات ممن يحسنون التسبيح والتهليل ، فليكن فيهم رجل واحد يفهم أن

الحج معرض من معارض الجمال في أمة قامت تقاليدها على الاستهانة

بجمال .

لتكن حجازيات الشريف هي الشاهد على أن ماضينا لم يكن كتلة من

الجمود ، وإنما كان ماضي أمة حية تدرك دقائق الأحاسيس تأملوا هذه

الصورة .

لما غدا السرب يعطو بين أرحلنا

ما كان فيه غريم القلب إلّاك

هامت بك العين لم تتبع سواك هوى

من علم العين أن القلب يهواك

ثم انظروا كيف يضل المرء بين الحسان وليس له فيهن إلا محبوبة

واحدة ، وذلك أظرف أنواع الضلال .

وتأملوا قوله :

وحبذا وقفة والركب مقتفل على ثرى وخذت فيه مطاياك

فهذا البيت يشهد بأن شاعرنا كان ينتهب الفرص التي يغفو فيها الركب
ليمتع القلب اليقظ بما يوحى الهوى من انتهاب القبلات .

...

وما رأيكم في هذه الأبيات :

أيها الرائح المغد تحمل حاجة للمعذب المشتاق^(١)
أقر عني السلام أهلي المصلى^(٢) فبلاغ السلام بعض التلاقي^(٣)
وإذا ما مررت بالحيف فاشهد ان قلبي اليه بالأشواق
وإذا ما سئلت عني فقل نض وهوى ما أظنه اليوم باقي
ضاع قلبي فانشده لي بين جمع ومني عند بعض تلك الحداق
وابك عني فطالما كنت من قبل أعير الدموع للعشاق
ما رأيكم في إحساس من يحكم بأن « بلاغ السلام بعض التلاقي » ما
رأيكم فيمن يشعر بالانس حين يمر بخاطر من هوواه^١

والشاعر واثق بأن هناك قلباً تسأل عنه حين يغيب ، وما أسعد من
يشعر بأن في الدنيا قلباً تسأل عنه حين يغيب ! وشاعرنا لا تفارقه السيطرة
العلوية فهو يحب أن يبكيه الأحباب فيوصي الرسول بأن يحدثهم أنه
أصبح في حكم الفنانين عساه يظفر منهم بزفرة أو شهقة أو أنين .
وما هذا البيت :

ضاع قلبي فانشده لي بين جمع ومني عند بعض تلك الحداق
أتعرفون كيف تضيع القلوب ، وكيف ينشدها الناشدون ؟؟ أتخسون
المعنى الملفوف في هذه الكلمة « عند بعض تلك الحداق » أفهمون من هذا

(١) المغد : المسرع (٢) المصلى : اسم موضع

(٣) في الديوان (وبلاغ السلام بعد التلاقي) والصواب ما أثبتناه

ان الرجل كان له في الحجاز هوى خاص ؟

وهذا البيت :

وابك عني فطالما كنت من قبل ل أعير الدموع للعشاق

أنت كنت تعير الدموع للعشاق ؟

ليت العباس بن الاحنف كان رآك قبل أن يقول :

تُرف البكاء دموع عينك فاستمر

عيناً لغيرك دمعها مدرار

من ذا يعيرك عينه تبكي بها أرأيت عيناً للدموع تعار

لقد بكى المشاق عنك ، وبكوا ثم بكوا ، فان لم تصدق فأنصت من

عالم الغيب لترى كيف يسمع أهل العراق آياتك هذه مرات في كل يوم

من حنجرة أم كلثوم . *مرزوقية كوكب الشرق*

...

وهذه الايات :

حي بين النقا وبين المصلى وقفات الركائب الأنضاء^(١)

ورواح الحجيج ليلة جمع ويجمع مجامع الأهواء

وتذكر عني مناخ مطبي بأعالي منى ومرسى خباتي^(٢)

وتعمد ذكري إذا كنت بالحية فالظبي من بعض تلك الأطباء

قل له هل تراك تذكر ما كان يباب القبية الحمراء

قال لي صاحبي غداة التقينا تتشاكي حر القلوب الظماء

كنت خبرتني بأنك في الوجد عقيدي وان داءك دائي

(١) الأنضاء : المهازيل

(٢) مرسى من أرسى إذا أقام ، ومنه (مجراها ومرساها) .

ما ترى النفر والتحمل للبين فإذا انتظارك للبكاء^(٣) :

لم يقلها حتى اثنت لما بي أتلقى دمعي بفضل ردائي
إن الشاعر يحس معنى الحياة في وقفات الركائب الأنضاء ، لأن السفر
لا ينضى الركائب إلا بعد أن تصل بالعاشق إلى هواه ، فهو يطرب لوقفاتها
في قرار واطمئنان .

والشاعر يوصي رفيقه بأن يتذكر عنه مناخ مطاياها ، وتلك لفتة
شعرية لا يدركها إلا الأقلون .

وكما حدثنا عن « بعض تلك الحداق » يحدثنا عن « بعض تلك الظباء »
فيقول :

وتعمد ذكري إذا كنت بالحيد ف لظبي من بعض تلك الظباء
قل له هل تراك تذكر ما كان ^{تذكر} يباب القبيبة الحمراء
وعبارة « ما كان » عبارة لطيفة يوشىها التوق ، وهي أروع من
عبارة ابن المعتز إذ يقول :

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسال عن الخبر
لأن ابن المعتز أحاط بعبارته بالشبهات .

أما الأبيات الأخيرة فهي تشعركم بأن الشريف لم يكن يودع مناسك
الحج بالتلبية والتكبير ، وإنما كان يودعها بزفرة الملتاع على ما يفارق من
خدود وعيون .

أيها السادة

ما رأيكم في هذا القصيد المرقص :

(١) النفر هو تفرق الحاج عن منى

من معيدي أيا مي يجزع السمرات
 وليالي يجمع ومنى والجمرات
 وظباء . حاليات كظباء عاطلات
 رائحات في جلاليه ب الدجا مختمرات^٢
 راميات بالعيون النج ل قبل الحصيات
 ألعقر القلب راحوا أم لعقر البدئات
 كيف أودعت فؤادي أعينا غير ثقات
 أيها القانص ما أحسن ت صيد الطيبات
 فأتك السرب وما زودت غير الحسرات
 يا وقوفاً ما وقفة ن في ظلال السلما^٣
 موقفاً يجمع تفتيا ن الهوى والفتيات
 فتشاكى ما عانا بكلام العبرات
 نظر يشغل منا كل عين بقذاة
 كم نأى بالنفر عنا من غزال ومهاة
 آه من جيد إلى الدا ر كثير اللفات
 وغرام غير ماض بلقاء غير آت
 فسقى بطن منى والح يفسوب الغاديات
 وزماناً نائم العذا ل مأمون الوشاة
 في ليال كاللالي بالغواني مقمرات

(١) السمرات بضم الميم جمع سمرة وهو اسم موضع ، والسر في الاصل
 ضرب من الشجر (٢) المختمرات لابسات الخمار
 (٣) السلما جمع سلمة بالتحريك وهي ضرب من الشجر .

غرست عندي غرس الشوق مرور الجناة
أين راق لغرامي وطبيب لشكاتي

ما رأيكم فيمن يرى أن يسمي هذه القصيدة « أنشودة الحجيج » ؟
لا تعجبوا من هذا الاقتراح فمواسم الحج تحتاج إلى ضروب من
الاناشيد، مواسم الحج في شوق إلى من يرجعها إلى عهدها الأول يوم
كانت أقدم ما عرف الناس من المعارض الدولية، مواسم الحج تحتاج إلى
شاعر كالشريف يفرق بين عقر البدنات وعقر القلوب، وتحتاج إلى
شاعر يعلم الناس أدب الصيد فيقول :

أيها القانص ما أحسن ما صيد الطيبات
فاتك السرب وما زودت غير الحشرات

وتتشوف إلى من يتلف على أيامها فيقول :
آه من جيد إلى الدار كثير اللفات
وغرام غير ماض بقاء غير آت
وأعظم الحشرات ان تشوف إلى أنس لن يعود، ويرحم الله أرباب
القلوب !

...

وهذه القصيدة التي تسجل لوعة القلب إلى ما شهد في طريق الحج من
أسباب الفتون :

خذي نفسي يا ريح من جانب الحمى
فلاقي بها ليلا نسيم ربا نجد
فان بذاك الحمى إلفا عهدته
وبالرغم مني أن يطول به عهدي

ولولا تداوي القلب من ألم الجوى
 بذكر تلاقينا قضيت من الوجد
 ويا صاحبي اليوم عوجاً لتسألاً
 ركبياً من الغورين أنضاؤهم تخدي^(١)
 عن الحمي بالجرعاء جرعاء مالك
 هل ارتبعوا واخضر وادبهم بعدي
 كأن بعيني بعدم عائر القذى^(٢)
 إذا أنا لم أنظر إلى العلم الفرد
 شممت بنجد شيخة حاجرية
 فأمطرتها دمي وأفرشتها خدي
 ذكرت بها ريا الحبيب على النوى
 وهيهات ذا يا بعد بينها عندي
 وإني لمجلوب لي الشوق كلما تنفس شاك أو تألم ذو وجد
 تعرض رسل الشوق والركب هاجد
 فتوقظني من بين نوامهم وحدي
 فقلت لأصحابي ألا تتزافروا رويدكم إن الهوى داؤه يعدي
 وما شرب العشاق إلا بقيتي
 ولا وردوا في الحب إلا على وردي
 والقصيدة واضحة لا تحتاج إلى من يدل على ما فيها من محاسن ،

(١) الركب مصغر ركب ، وتخدي تسرع (٢) العائر : كل ما اعل
 العين ، وفي الديوان (غائر) بالفتن المعجمة وهو تحريف

ولكن لا بد من النص على هذه العبارة :

هل ارتبعوا واخضر وادبهم بعدي

فانها تصور فهمه لمعاني السعادة في البوادي ، وقد يكون في الارتباع

والاخضرار إشارة إلى ما يتخوفه من أن يأنس الاحباب بغير هواه بعد
الفراق .

ثم انظنوا احساسه بالفروسية في الحب اذ يقول :

تعرض رسل الشوق والركب هاجد

فتوقظني من بين نوامهم وحدي

وما شرب العشاق الا بقتي

ولا وردوا في الحب الا على وري

وحدثوني عن شعوركم بهذا المعنى الطريف ، فذلكم شاعر يرى أن

أطياف الشوق تعرفه بين الركب بسياه ، ويعتقد أن العشاق لا يردون

في الحب الا على ورده ولا يشربون الا بقاياها ، والعشاق كالأنبياء لا تجود

الدنيا بهم في كل يوم ، وانما تسمح بهم من جيل الى اجيال :

...

وما رأيكم في هذه الابيات :

تحمّل جيراننا عن منى وقالوا النقا بيننا موعد

وهل نافع قول ذي غلة وقد بعد الركب لا يبعدوا

تنادوا بأن التنائي غداً لك السوء من طالع يا غد

فله ما جمع المازما ن وجمع لقلبي والمسجد

يضاع فينشد قعب الغبوق وقلبي يضاع ولا ينشد^(١)

(١) القعب بفتح فسكون هو القدح الضخم

وغيداء من ماطلات الديون لها بالحمى زمن اغيد
تريع كما التفتت ظبية بندي البان عن لها المورد^(١)
نظرت وهيهات من ناظريك ظباء تهامة يا منجد
ويا ربما والهوى ضلة ترى العين ما لا تنال اليد
ألا ترون هذه الحسرة الدامية ؟ ألا تحسون اللوعة في هذا البيت :
تنادوا بان التناهي غدا لك السوء من طالع يا غدا !

وأى لوعة ألم وأوجع من لوعة المفارق الذي لا يعرف متى يعود ؟ أي
لوعة ألم وأوجع من لوعة من يودع ناساً لا يدري أيلقاهم مرة ثانية أم
يكون أنسه بهم آخر العهد في دنياه ؟
وهذا البيت :

ويا ربما والهوى ضلة ترى العين ما لا تنال اليد
وهل في الدنيا أفظع وأشنع من أن ترى العين ما لا تنال اليد ؟ إن هذا
أصل الشقاق والتزاع بين طوائف الانسان والحيوان ، وكل شقاء في عالم
الفوق والوجدان يرجع إلى أصل واحد : هو أن ترى ولا تملك . وهل
يعرف أحد حقيقة اللوعة في قلب الشاعر الذي يرى امرأة جميلة وهو
يعرف أن لن تناهها يده ، وأنها مع ذلك قد تكون ملكاً لرجل سخي لا
يدرك أسرار الجمال ؟

ترك هذا الشطط ومنتقل إلى هذه الأبيات :

ألا يا ليالي الخيف هل يرجع الهوى
اليكن لي لا جازكن ندى القطر

(١) تريع : ترجع .

فيا دين قلبي من ثلاث علي منى
 مضين ولم يبقين غير جوى الذكر
 ورامين وهنا بالجمار وإنما رموا بين أحشاء المحبين بالجمر
 رموا لا يبالون الحشا وتروحووا
 خلين والرامي يصيب ولا يدري
 وقالوا غداً ميعادنا النفر عن منى
 وما سرتني أن اللقاء مع النفر
 ويا بؤس للقرب الذي لا ندوقه
 سوى ساعة ثم البعاد مدى الدهر
 فيا صاحبي إن تعط صبراً فأنني
 تزعت يدي اليوم من طاعة الصبر
 وإن كنت لم تدر البكا قبل هذه
 فميعاد دمع العين منقلب السفر
 وهذا شعرو واضح ، ولكن لا بد من التذكير ببعض المحاسن ، كان
 تنص على الخيال في هذا البيت :

ورامين وهنا بالجمار وإنما رموا بين أحشاء المحبين بالجمر
 وما هو بخيال ، وإنما هو حقيقة تراها العيون ، ومن الذي ينكر أنه
 يتمنى أن يكون شيطاناً ترجمه بعض الأنامل الرقاق ؟ فهل يستكثر على
 الشريف أن يقول أن بعض الراميات لا ترمي بالجمار وإنما ترمي الأحشاء
 بالجمر المشبوب ؟

ما هذه البدعة الطريفة التي تفرد بها الحج الاسلامي ؟ ما هذا التلطف
 الظريف الذي شرعه الاسلام وهو يوجب على المرأة المليحة أن تمسك

حصصها لرمي الجهار ؟

أما خطر بيال أحد الفقهاء أن يتصور أن المعصم الجميل قد يكون
أفتن وأخطر من الشيطان الذي يرجه الحجاج ؟

ليت الدهر يسمح بأن نرى مرة كيف ينعم صديقنا الشيطان وهو
يتلقى الرميات من أيدي الملاح ! إن حظه لو تعلمون عظيم !

وهذا البيت :

رموا لا يبالون الحشا وتروحووا

خلين والرامي يصيب ولا يدري

والمهم هو النص على أن الرامي قد يصيب وهو لا يدري ، ذلك منطلق
الشريف ! والأغرب منه أن تنص على أن الرامي قد يقصد هدفاً واحداً
فيصيب هدفين !

وهذا البيت :

ويا بؤس للقرب الذي لا ندوقه

سوى ساعة ثم البعاد مدى الدهر

فذلك هو المعنى الاصيل الذي يدور حوله الشريف في سائر
الحجازيات .

...

وهذه الأبيات وقد قالها عند دخول الحجيج إلى مدينة السلام في

شهر صفر سنة ٢٩٥ .

عارضاً بي ركب الجحاز أسائلا ه متى عهدك بسكان سلع^(١)
 واستملاً حديث من سكن الخي ف ولا تكتباه إلا بدمعي
 فاني أن أرى الديار بطرفي
 فلعلي أرى الديار بسمعي

هل ترون؟ ألا تحسون لوعة المشتاق إلى أنفاس الأطباء بالحجاز؟ ذلكم
 شاعر فاته أن يحج فلم يبق أمامه إلا أن يتنسم أرواح القادمين ليرى الديار
 بأذنيه وقد فاته أن يراها بعينيه؟ والعاشق يستبيح كل شيء حتى الانس
 بالخيال، وهو والله مظلوم فقد ينشد القدح الضائع ولا ينشد الفؤاد
 المفقود... وهذه الأبيات:

إني علقت علي مني لمياء يقتلني لماها
 راحت مع الغزلان قد لعبت بقلبي ما كفاها
 تبغي الثواب فمهجتي هذي القريحة من رماها
 وقف الهوى بي عندها وسرت بقلبي مقلتها
 بردت علي كأنما ظل الغمامة عارضها

«١» معارضة الراكب هي السير حيال الراكب، وسلع بفتح اوله وسكون
 ثانيه جبل او موضع بقرب المدينة تتصل به قصة وجدانية فقد سمع يزيد بن عبد
 الملك جاريته تنفي هذه الابيات:

لمعرك انني لأحب سلما لرؤيتها ومن يجوار سلع
 تقر بقربه عيني واني لأخشى ان تكون تريد فجمي
 حلفت برب مكة والمصلى وأيدي السابحات غداة جمع
 لأنت على التناهي فاعلميه احب إلي من بصري وسمعي
 ثم رأها تنفس الصعداء فقال . لم تتنفسين؟ والله لو أردته لفعلته حجراً
 حجراً . فقالت . وما أصنع به؟ انما اردت ساكنيه ا

شمس أقبل جيدها يوم النوى وأجل فاها
 وأذود قلباً ظامناً لو قيل وردك ما عداها
 ولو استطاع لقد جرى مجرى الوشاح على حشاها
 يا يوم مفترق الرفا ق ترى تعود للثقاها
 قالت سيطرقك الحيا ل من العقيق على نواها
 فعدى بطيفك مقلة إن غبت تطمع في كراها
 إني شربت من الهوى حمراء صرف ساقياها
 يا سرحة بالقاع لم يبلى بغير دمي ثراها
 ممنوعة لا ظلها يدنو إلي ولا جناها
 أكذا تذوب عليكم نفسي وما بلغت مناها؟
 أين الوجوه أحبها وأود لو أني فداها
 أمسي لها متفقداً في العائدين ولا أراها
 واهاً ولولا أن يلو م اللاثمون لقلت آها

ما رأيكم في هذا الشعر المرقص؟ وما هي التعابير التي تفصح عما فيه
 من فتون؟ ما رأيكم في العذوبة التي تتموج بين ألفاظه ومعانيه كما
 يتموج البريق في الشيا العذاب؟

حدثوني عند أي بيت تقف لتحدد غرائب البيان؟
 انظروا هذا البيت :

إني علقت علي منى لمياء يقتلني لماها

تجددوا المعنى قديماً مبذولاً تناهيه مئات الشعراء . ولكن ألا توافقون
 على أن الشريف أداه تأدية رشيقة حتى كاد يصبح من المبتكرات ؟
 وهذا البيت :

راحت مع الغزلان قد لعبت بقلبي ما كفاها
وهو أيضاً معنى قديم ، ولكن هل تدركون الصورة الشعرية التي
تتمثل في قوله :

لعبت بقلبي ما كفاها
وهو يريد انها لم ترح مع الغزلان إلا بعد أن شبعت لعباً بذلك
القلب الخفاق ، وهل تشبع الأطباء من اللعب بالقلوب !
وهذا البيت :

وقف الهوى بي عندها وسرت بقلبي مقلتها
فقد يمكن رجع صدره إلى قول دجبل :
وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي
متأخرت عنده ولا متقدم

ولكن من النى يجهل قيمة اللطف في هذه الشطرة:
وسرت بقلبي مقلتها
وهذا البيت :

بردت عليّ كأنما ظل الغمامة عارضها
والبرد كلمة لها في التشبيب مدلول خاص ، وهي تشبه الكلمة
الفرنسية *Fraicheur*

وهذا البيت :
شمس أقبل جيدها يوم النوى وأجل فاما
هو أيضاً معنى قديم ، ولكن لا يكذب من يقول إنه من مبتكرات
الشريف .
وهذا البيت :

وأذود قلباً ظامئاً لوقيل وردك ما عداها
وما أحسبكم تطالبونني بالتنبيه على ما في هذا البيت البارع من
جمال ، فاني أخشى أن تفسده الشروح ، وانظروا كيف عقب عليه
بهذا البيت :

ولو استطاع لقد جرى مجرى الوشاح على حشاها
وأحب أيها السادة أن تتأملوا الحسن في هذه الايات :

يا سرحة بالقاع لم يبلى بغير دمي ثراها
ممنوعة لا ظلها يدنو إلي ولا جناها
أكذا تذوب عليكم نفسي وما بلغت مناها
أين الوجوه أحبها وأود لو أني فداها
أمسي لها متفقداً في العائدين ولا أراها
واهاً ولولا أن يلو م اللائمون لقلت آها

أتدركون قيمة العذوبة في هذا القصيد ؟

أعتذر مرة ثانية وثالثة ورابعة عن الارتباب في أذواقكم ، فشلي
لا يسيء الظن بأذواق أهل العراق ، وإنما أعجب حين أرى من يتهمني
بالتعصب للشريف ويطالبني بكشف ما عنده من عيوب ، وأنا والله
مستعد لكشف عيوب الشريف ، ولكن متى ؟ بعد أن يعرف الناس
محاسن الشريف .

أليس من العجب العاجب أن لا يعرف هذه القصيدة مغن في تونس
أو مراكش أو الجزائر أو صنعاء أو مكة أو المدينة أو دمشق أو بيروت
أو القاهرة أو بغداد ، وما إلى أولئك من الحواضر العربية ؟
لو كانت هذه القصيدة العذبة مما نظم ميسيه أو بيروت أو جوت

لكانت على جميع الألسنة في بلاد الفرنسيس والانجليز والالمان، ولكنها
وا أسفاه من نظم شاعر يجهله أكثر العرب وينكره بعض أهله في
العراق .

أنا لا أقول بأن الشريف ابتكر جميع معانيه، فلاكثرها اصول عند
أسلافه من الشعراء، ولكني مع ذلك أقول بأن جميع معانيه من المبتكرات
لأنه يحسها بأقوى وأعنف ما تتصورون من الاحساس، وقد دعوتكم من
قبل إلى مراجعة كتاب النثر الفني لتروا كلمة الحق والصدق في المبتذل
والطريف، ولتعرفوا أنني في إنصاف هذا الشاعر لم أكن من العابثين .

وهل أستطيع مرة ثالثة أن أدلكم على الحسن في هذين البيتين:

أين الوجوه أحببها وأودّ لو أني فداها
أمسى لها متفقداً في العائدين ولا أراها

إن المعنى فيها مأخوذ من قول بعض الشعراء .

ما أقبح الناس في عيني وأسمجهم

إذا نظرت فلم ابصرك في الناس

ولكن الصورة مختلفة كل الاختلاف .

وأنا أيها السادة أقدر منكم على تجريح الشعراء، لأنني قضيت عشرين
سنة أو تزيد في تعقب الالفاظ النثرية، والاخيلة الشعرية، وأستطيع
أن أهجم على شاعر مثل المتنبي فأثبت ان معانيه كلها من الحديث المعاد،
ولكني لو فعلت لكنت من الظالمين، لأنني أعرف ان المتنبي أحسن
معاني شعره أصدق إحساس، وأؤمن بأنه لم يكن يغير على معاني
سواه، وإنما كانت يفترع المعاني افتراعاً، وإن أنس بها من قبله
كثير من الشعراء .

وهل تظنونني أجبن عن مصارحتكم بكلمة العدل في هذه القضية
وأنا الذي جبهت بها أساتذتي في السوربون في محضر جمهور يعد
بالمئات ؟

هل تظنونني أجبن عن التصريح بأن النقاد القدماء كانوا يلعبون
حين أتعبوا أنفسهم وأتعبوا قراءهم فيما سموه بالسرقات الشعرية ؟
لقد آن لنا أن نقيم النقد الأدبي على قواعد علم النفس ، وأظنني
وصلت في ذلك إلى بعض ما أريد .

ثم تنتقل إلى هذه الآيات :

يا رفيقي^١ قفا نضويكما بين أعلام النقا والمنحنى
وانشدا قلبي فقد ضيعته باختياري بين جمع ومنى
عارضاً السرب فإن كان فني بالعيون النجل يقضي فانا
إن من شاط على الحاظها ضعف من شاط على طول القنا^٢
تجرح الاعين فينا والطلی قاتل الله الطلی والأعينا^٣
ثم كانت بقاء وقفة ضمنيت للشوق قلبا ضمنا^٤
وحديث كان من لذته احد يصني الينا أذنا^٥
غادروني جسداً تظهره لهم الشكوى ويخفيه الضنى
حبذا منكم خيال طارق مر بالحي ولم يلهم بنا
باخل بخل الذي أرسله سئل النيل وما جاد لنا
سرحة أعجلها البين وما لبث^٥ الظل ولا ذيق الجنى

١ شاط . احترق وهلك ٢ الطلى بالضم . الاعناق واصولها ، المفرد
طلية او طلابة ٣ ضمن فعل ماض من الضمنة بالضم وهي المرض ٤ احد
بضمين اسم جبل كانت به موقعة مشهورة جداً ٥ في الديوان (لبس)
وهو تحريف .

مارأت عيني منذ فارقتكم يا نزول الحمى شيئاً حسناً
وهذه أبيات تدركون ما فيها من روعة الخيال ، ويكفي أن تقف
عند هذا البيت :

وحدث كان من لذته أحد يصفي الينا أذنا
وليس من العجيب أن تصفى الجبال لأحاديث المحبين ، فقد صح
لأحد شعرائنا أن يقول :

وقف النجم وألقى باله ليمدّ الملح من قلبي وقلبك
ويح هذا النجم مما هاله في ضمير الليل من حي وحبك

على أن صبايات الشريف في مواسم الحج ، وفي طريق الحج ، ولم تكن
كلها من الوجد العابر الذي يمر مروراً لطيف ولا يبقى من نعيمه غير
العقايل ، فقد حدثنا أنه طاف بمعاني الوصل ، إذ قال :

يا ليلة السفح ألا عدت ثانيه سقى زمانك هطال من الديم^(١)
ماض من العيش لو يفدى بذلك له

كرائم المال من خيل ومن نعم^(٢)
لم أقض منك لبانات ظفرت بها
فهل لي اليوم إلا زفرة الندم
فليت عهدك إذ لم يبق لي أبداً
لم يبق عندي عقابيلاً من السقم^(٣)

١٥ : ألا : كلمة تعويض مثل هلا (٢٥) نعم بالتهريك وقد تسكن عينه :
الابل والشاة ، أو هو خاص الابل ، والجمع أنعام (٣٥) العقابيل : بقايا العدة
والعداوة والمشق ، وما يخرج على الشفة غيب الحمى ، والشدائد . واحد الكل
عقبولة وعقبول بضم العين ، وهو ذو عقابيل ، أي شرير .

تعجبوا من تمنى القلب مؤله وما دروا أنه خلو من الألم
ردوا علي ليالي التي سلفت لم أنسهن ولا بالعهد من قدم
أقول للآثم المهدي ملامته

تق الهوى وإن استطعت الملام لم^(١)

وظبية من ظباء الانس عاطلة

تستوقف العين بين الخمص والمضم^(٢)

لو أنها بفناء البيت سانحة

لصدتها وابتدعت الصيد في الحرم

قدرت منها بلا رقبى ولا حذر

على الذي نام عن ليلي ولم أنم

بتنا ضجيعين في ثوبي هوى وتقي

يلفنا الشوق من فرع إلى قدم

وأمت الريح كالغيري تجاذبنا

على الكتيب فضول الریط واللم^(٣)

يشي بنا الطيب أحيانا وآونة يضيئنا البرق بجتازاً على إضم^(٤)

وبات بارق ذلك الثغر يوضح لي مواقع اللثم في داج من الظلم

وبيننا عفة بايعتها بيدي على الوفاء بها والرعي للذمم

«١» لم يثبت الفاء في جواب الشرط للضرورة «٢» الخمص : ضمور البطن ،

والمضم بالتحريك لطف الكشح ، والكشح ما بين الحاصرة الى الضلع الخلف .

«٣» الریط : الثياب ، واللم جمع لمة بالكسر ، وهي الشعر الجاوز شحمة

الأذن ، والمعنى ان الريح كانت تداعب العاشقين بمجاذبة الشعر والثياب

«٤» اضم على وزن عنب : جبل ، والوادي الذي فيه المدينة النبوية يسمى

أسفله إضم .

يولع الطلّ بردينا وقد نسمت

رويحة الفجر بين الضال والسلم^(١)

وأكرم الصبح عنها وهي غافلة

حتى تكلم عصفور على علم^(٢)

فقت أنفض برداً ما تعلقه

غير العفاف وراء الغيب والكرم

والمستنى وقد جدّ الوداع بنا كفا تشير بقضبان من العنم^(٣)

وألثمتي ثغراً ما عدلت به

أرى الجنى بينات الواابل الرذم^(٤)

ثم انثنينا وقد رابت ظواهرنا وفي يواطنتنا بعد من التهم

يا حبذا لمة بالرمل ثانية^(٥) ووقفه بيوت الحي من أمم^(٦)

وحبذا نهلة من فيك باردة يعدي على حر قلبي بردها بغمي

دين عليك فان تقضيه أحي به وأن أبيت تقاضينا إلى حكم

عجبت من باخل عني بريقتة وقد بذلت له دون الأناام دمي

ما ساعفتني الليالي بعد بينهم إلا بكيت ليالينا بني سلم

ولا استجدّ فؤادي في الزمان هوى

إذا ذكرت هوى أيامنا القدم

١٥ ولع الطلّ البرد : رقه ، والضال والسلم مما تنبت البادية

٢٥ المراد بالعلم - بالتحريك - المكان المرتفع ٣٥ العنم بالتحريك :

شجرة حجازية لها ثمرة حمراء يشبه بها البنان المحضوب ٤٥ المراد من أرى

الجنى عصير الفواكه ممزوجاً بماء الفيث . والواابل : المطر . والراذم : المتدفق .

٥٥ اللمة بالفتح هي المرة من اللام ، أي المرور ٦٥ من أمم - بالتحريك

- أي من قرب .

لا تطلبين لي الأبدال بعدم فان قلبي لا يرضى بغيرهم
والحسرات في هذه القصيدة حسرات شاعر، وهي أقوى من حسرات
André Chénier على الجدائل المتوجة، والاقدام المارية . وصورة
الشاعر مع محبوبته فوق الرمل وبين وشاية الطيب والبرق ، وفي هداية
الشعر البراق ، وفي حراسة العفاف ، صورة جذابة جداً ، وصورة التوديع
الذي عاناه بعد ذلك أرق وأظرف ، وأسف الشاعر على تلك الليلة بنذيب
القلوب .

والفتوة في صدر الشريف هي التي أنطقته بهذه المعاني ، فمن المؤكد
أن الدنيا لعنده لم تكن مخلو من أغبياء يصعب عليهم أن يدركوا كيف
يصح العفاف لمن يبيتان ضجعين ، هو رجل خلق للشعر والخيال لا
يصلح للنجاح في المعترك السياسي ، ولكنه يؤدي لوطنه وقومه خدمات
يمجز عنها السياسيون ، لأنه يخلق ثقافة الذوق ، ويروض النفوس على
الاريجية ، ويفرس فيها الشوق إلى حب الحياة .

ومن الواضح أن حجازيات الشريف لا تصلح دستوراً للحجاج ،
فقد يجب أن تكون لهم شواغل غير التطلم إلى النحور والمباسم والعيون ،
ولكن هل يدعي الشاعر أنه يضع الشرائع للناس ؟ وهل للشاعر شريعة
واضحة الرسوم حتى يفكر في سن الشرائع ؟

إن الشعراء كالأنهار يجلو لهم الاعوجاج ، أما ترون نهر دجلة يمضي
يمنة ثم يرجع يسرة ؟ أما ترون نهر السين كيف يسير على غير هدى ؟
وبفضل ذلك الاعوجاج حسنت مواقع المدائن التي تقوم على شواطئ
الانهار والبحار ، ولو كان شاطئ البحر الذي تقوم عليه مدينة
الاسكندرية يعرف الاعتدال لكان من المستحيل أن تظفر الاسكندرية

بذلك الموقع البديع الذي يمكن الناظر من أن يراها في الليل وهي كالعقد على نحر المحيط ، وشواطئ الاسكندرية لم تجمل إلا بفضل ذلك الاعوجاج .

كنت أستطيع أن أناقش الشريف فيما ادعاه من العفاف ، فاعيد التي جاءت في الجزء الثاني من كتاب البدائع؟ كلمة استاذنا الدكتور منصور فهمي الذي يرى أن الشهوة قد تخرج من العيون .

ولكن ما رأيكم في أن الله عز شأنه لم يضع عقوبة للشهوة التي تخرج من العيون ؟

أنكون غير من الله ؟

إن الشريف رجل شاعر ، ولا يعيبه أن لا يكون من الصالحين ، فإن الصلاح المطلق لا يتم إلا لأهل البلادة والجهل .

كم كنت أتمنى أن أحاسب الشريف على ما ادعاه لنفسه من العفاف ، ثم صدني عن ذلك شعوري بأنه لم يكن منافقاً ، وأنا رجل يرى الكفر أهون من النفاق .

أيها السادة

لقد طال القول في حجازيات الشريف، وما نريد الاستقصاء ، فلنختم البحث بقصيدته الياثية وقد قالها قبل أن يموت بأربع سنين ، قالها عند توجه الناس إلى الحج في ذي القعدة من سنة ٤٠٠ وهو يتلف على مواقع عينيه في أرض الحبيج .

أقول لركب رائحين لعلكم

تحلون من بعدي العقيق الياثيا

خذوا نظرة مني فلاقوا بها الحمى
 ونجداً وكشبان اللوي والمطاليا
 ومروا على أبيات حمي برامة فقولوا الذي يبتغي اليوم راقيا
 عدمت دوائي بالعراق فر بما وجدتم بنجد لي طبيبا مداويا
 وقولوا لجيران على الخيف من مني
 ترام من استبدلتمو بجواريا
 ومن حل ذلك الشعب^(١) بعدي وراشقت
 لواحظه تلك الظباء الجوازيا^(٢)
 ومن ورد الماء الذي كنت وارداً
 به ورعى الروض الذي كنت راعيا
 فوا لهفتي كم لي على الحمى شهقة^(٣)
 تذوب عليها قطعة من فؤاديا^(٣)
 صفا العيش من بعدي لحمي على النقا
 حلفت لهم لا أقرب الماء صافيا
 فيا جبل الريان إن تعر منهمو
 فاني ساكسوك الدموع الجواريا
 ويا قرب ما أنكرتم العهد بيننا
 نسيتم وما استودعتم الود ناسيا
 أنكرتمو تسليمنا ليلة النقا وموقفنا نرمي الجمار لياليا

«١» الشعب بالكسر : الطريق في الجبل ، ومسيل الماء في بطن أرض ، أو
 ما انفرج بين الجبلين «٢» الظباء الجوازيا التي يغنيها المشب عن الماء
 «٣» ارجع الى تحليل هذه المعاني في كتاب (مدامع العشاق)

عشية جاراني بعينيه شادن
 حديث النوى حق رمى بي المراميا
 رمى مقتلي من بين سجفي غبيطه^(١)
 فيا رامياً لا مسك السوء راميا
 فيسا ليتني لم أعل نشزاً اليكمو
 حراماً ولم أهبط من الأرض واديا
 ولم أدر ما جمع وما جمرتا مني ولم ألق في اللاقين حياً يمانيا
 ويا ويح قلبي كيف زايدت في مها^(٢)
 بذى البان لا يشرين إلا غواليا
 ترحلت عنكم لي أمامي نظرة وعشر وعشر نحوكم لي وراثيا
 ومن حذر لا أسال الركبت عنكمو
 وأعلاق وجددي باقيات كاهيا
 ومن يسأل الركبان عن كل غائب
 فلا بد أن يلقى بشيراً وناعياً
 وما مغزل أدماء تزجي بروضة
 طلاقاصراً عن غاية السرب وانيا^(٣)
 لها بغفات خلفه تزعج الحشا كجس العذارى يختبرن الملاهيا

(١) الغبيط على وزن امير هو المركب (٣) في الديوان (منى)
 (٣) المغزل : ذات الغزال ، والادماء وصف من الادمة بالضم وهي لون
 مشرب سواداً او بياضاً ، المذكر آدم على وزن افعل ، وبه سمي ابونا آدم ، ولم
 يكن بالتأكيد من الظباء ! والطلا بالفتح - ولد الظبي حين يولد ، والصغير
 من كل شيء . والواني : التمهل من الضعف .

بحور اليها بالبغام فتنثني

كما التفت المطلوب يخشى الاعاديا^(١)

باروع من ظمياء قلباً ومهجة غداة سمعنا للتفرق داعيا^(٢)

تودعنا ما بين شكوى وعبرة

وقد أصبح الركب العراقي غاديا

فلم أرى يوم النفر أكثر ضاحكاً ولم أرى يوم النفر أكثر باكياً

هذه أيها السادة انشودة القلب الحزين . وبها نختم الحجازيات ، وكنتم

أحب أن أتناولها بالنقد والتحليل ، ولكنني عرضت لها قبل ذلك في

مؤلفاتي عدة مرات ، وما أدري أين عرضت لها فقد كثرت مؤلفاتي

وطالت ، وربما كنتم تعرفون عن مؤلفاتي أكثر مما أعرف فأرجعوا إلى

ما كتبت في تحليل هذه القصيدة إن كنتم تذكرون !

(١) بحور : يرجع (٢) ظمياء : معشوقة الشاعر ، وهو اسم اصطفاة الشريف

وتلميذه مهبأر ، وبه سميت ظمياء وصيفة « ليلي المريضة في العراق » شفاها الله

بكاء الشباب
بكاء الشباب
بكاء الشباب

أيها السادة

رأيتم غراميات الشريف ، وحجازيات الشريف ، فلم يبق إلا أت
تروا ما صنع في بكاء الشباب ، وأنا أستعير هذا العنوان المفجع من كتاب
(مدامع العشاق) لأن الشريف يبكي شبابه بكاء لم يتفق لشاعر قديم أو
حديث ، وما ظنكم بشاعر لم يعش أكثر من سبع وأربعين سنة ، ثم اتفق
له أن يبكي شبابه في أكثر من سبع وأربعين قصيدة !

ما ظنكم بشاعر مؤجج الاحساس ، مرهف الذوق ، مفطور القلب
يبكي دنيا الحب بكاء الأطفال ، ويخشع أمام ذكريات الشباب خشوع
المؤمن أمام المهراب .

ما ظنكم بشاعر لا يمسي ولا يصبح إلا وهو على موعد من
عيون الطباء ، ثم يروعه الشيب فجأة فيفهم أن الدهر يؤذنه بالقاء
السيف وطبي اللواء !

ما ظنكم بشاعر عرف ملاعب الهوى على شواطئ دجلة وشواطئ
الفرات ، وساقه القلب إلى معاقره العيون في شتيت البقاع ، وذاق أطايب
الحلوات في مكة والمدينة وبغداد ، ثم ينظر فإذا هو مهدد بالرحيل عن
فردوس الصباية العاتية والوجد المشبوب !

ما ظنكم بشاب حاد الشباب عنيفه ، كما عبر الدكتور طه حسين وهو
يصف بعض الشبان ، ما ظنكم بشاب هذا حاله يتلفت فيرى دنيا
العافية تهجره وتجفوه بلا ذنب ولا جريرة ، فيوقن أن دنيا المحبين إلى
زوال !

ما ظنكم بشاعر يؤمن بأن الله لم يخلق أجمل من الشباب ، ولم يبدع
أنضر من الحب ، ثم ينظر مرتاعاً إلى مصيره في الشباب ومصيره في
الحب !

ما ظنكم بشاعر يعيش عزيزاً بين الملاح ، ثم يعترف بالذل والضم حين
يرى في فوديه ثلاثع البياض والبياض يعشق في كل موضع إلا في
الرأس ، البياض يعشق في الحدود والصدور والمعاصم والمباسم ولكنه في
الشعر بغيض ممجوج .

البياض في الزهر بشير الانس والابتهاج ، ولكنه في الشعر نذير
الحزن والاكتئاب .

ولن أنسى ما حييت تلك اللوعة التي سمعتها من المسيو ماسينيوس في
باريس سنة ١٩٢٩ وكنا نقرأ بعض الأشعار الغرامية فتنهد وقال : لقد
فارقت شبابي ! فقلت : لا تجزع ، فان الشاعر العربي يقول :

يقولون هل بعد الثلاثين ملعب

فقلت وهل قبل الثلاثين ملعب

لقد جلّ خطب الشيب إن كان كلها

بدت شيبة يعرى من اللهو مركب

فتنهد مرة ثانية وقال : ان الشاعر قال الثلاثين ولم يقل الخمسين !
وساعيش دهري كله أتحسر على مصائر من عرفت من الرجال في

باريس ، الرجال الذين رأيتهم يبالبغون في التلطف مع النساء ، وما أتص
الرجل الذي لا تبقي له الأيام من مزية غير التلطف والترفق في معاملة
الملاح !

أيها السادة

أتحسبونني أبكي شبابي ؟ وهل عرفت نعيم الشباب ، حتى أبكي

الشباب ؟

إنما أريد أن أهنيء قلوبكم إلى إحساس الفجيعة التي سيتوجع منها
الشريف ، الفجيعة القاسية التي تصور سقوط السماء على الأرض وغيض
البحار وزوال الجبال ! أريد أن أصنع مثل الذي صنعت وأنا أتكلم
عن عمر ابن أبي ربيعة بالجامعة المصرية في أواخر سنة ١٩١٨ وكنت
يومئذ طالباً لا يدري عواقب ما يصنع ، فقد دعوت المستمعين إلى استقدام
صباياتهم ليدر كواما تصنع الصباية بالشاعر اللعوب ، واليوم وأنا ألقى
محاضرتي بكلية الحقوق في أوائل سنة ١٩٢٨ أدعوكم إلى استقدام صباياتكم
... أستغفر الحب ، بل أدعوكم إلى استقدام أساكم وشجاكم لتدر كواما
يصنع الحزن على الشباب بشاعر كان وهاج الشباب .

ومعاذ الأدب أن أدعوكم إلى انتهاب ما توحى الغواية والفتون ، وإن
كنت أتمنى أن يكون فيكم خلفاء لعمر بن أبي ربيعة والشريف الرضي ،
فقد كان عمر على ضلاله رجلاً شهياً ينزه شعره عن الترف ، ويرفع عن
مدح الخلفاء ، في زمن كان شعراؤه عبيد الخلفاء ، وكان الشريف الرضي
على غرامه الأثيم - إن كان في الغرام لثم - رجلاً شهياً يحسب له في مصائر
الأمور ألف حساب ، ولم يميت إلا وهو مهيب جليل .

فان عجزتم عن اللحاق بهذين الشاعرين فلا أقل من أن تدر كوا ما يهدد

اللغة العربية من القحط : قحط العواطف والقلوب ، فان اللغات لاترقى
بالثروة اللفظية التي يغرم بها النحويون والفقهاء ، وإنما ترقى اللغات بمن
يبدعون في وصف المشاعر والأحاسيس ، ولكم أن تذكروا كيف ارتقت
الانجليزية بأمثال شلي وبيرون ، وكيف ارتقت الفرنسية بأمثال ميسيه
ولامرتين .

وهل عاشت العبرانية وقد تقوض ملكها منذ أزمان وأزمان إلا بفضل
اللوعة المبتوثة في سفر أيوب ؟ ولو أن اللغة العبرانية وقفت عندما يحسن
اليهود في الميادين الاقتصادية لأدركها الموت منذ مئات السنين ، ولكنها
مضت تشرح آلام اليهود ومآتهم ومآسيهم وأحزانهم وأشجانهم فعاشت
على وجه الزمان .

إنما ألح في شرح هذا المعنى وألح فراراً من شر المتزمتين ، فقد يقولون :
لقد رأت بغداد أديباً يزِين اللهو والمجون .

وما أنا بلاه ولا عابث ولا ماجن ، وإنما أنا رجل يبكي مصير لغته
بين اللغات ، ويؤذيه أن تصبح لغته جافة جامدة غبية بليدة لا تتكلم عن
غير أسعار القطن وأسعار الحبوب ، ولا تروج إلا بحرب المهجاء في الجرائد
والمجلات .

أريد أيها السادة أن تتعبوا قليلاً في إنهاض لغتكم ، وهي لن تنهض
إلا يوم تصبح قيثارة تعبر عن المآسي الإنسانية ، وأخطر المآسي هي
مآسي القلوب ، ولن تصلوا إلى هذه الغاية إلا يوم تدوسون النفاق بأقدامكم
كما داسه عمر الحيام الذي خلق للغة الفارسية الوفاً وملايين من الأنصار
والمعجبين .

لست بلاه ، أيها السادة ، ولست بماجن ولا عابث ، كما قد يتوهم من

لا يفهمون.

والذين قرأوا منكم كتاب (حب ابن أبي ربيعة) يذكرون أنني دعوت منذ سنين إلى التنبيه إلى أثر المرأة في تلوين العواطف والاحاسيس، وهي دعوة أجد أثرها اليوم عند بعض الادباء في مصر، ولكن أدباء مصر على علمهم وذكائهم لا يهتمون بأسرار القلوب، كما يهتمون بأهواء العقول.

...

فما الذي يمنع من إيجاد نهضة أدبية وذوقية في العراق؟

ما الذي يمنع من أن تتذكروا ماضيكم الجميل يوم كانت علماءكم أعلم الناس، وشعراؤكم أشعر الناس؟

ما الذي يمنع من أن تقوم المنافسة بين القاهرة وبغداد؟ المنافسة القوية التي يسمونها الشعر والفن والخيال؟

أتروني أجندت الاعتذار عن نفسي؟

أنا أريد أن أتقلكم إلى الاجواء الروحية التي عاش فيها الشريف وهو

يبكي صباه.

أنا أريد أن ندرك معا سرائر هذا الروح الحزين لنعيش معه لحظات

في فردوس الوجدان.

ويجب أن تتفق أولا على أن الشاعر قد يزور عواطفه في بعض

الأحيان، فتكون مداخه مثلا ضربا من المجاملة أو الرياء، حتى الحب

قد تزور فيه العواطف فيكون الدمع في عين العاشق كالسم في ناب الثعبان

وبعض الهبين يبكون ليخدروا فرائسهم فتعجز عن المقاومة، كما يلدغ

الثعبان ليخدر الفريسه ثم يبتلعها بلا عناء.

إن تزوير العواطف مما يعرف الشعراء، ولا أستثني الشريف،

ولكن هناك عاطفة لا تزوير فيها ولا رياء ، وهي سورة الحزن على الشباب .

لكم أن ترباوا في صدق الشاعر حين يحب أو يبغض ، وحين يمدح أو يعاتب ، ولكن الارتياح في صدقه حين يبكي صباه أمر غير مقبول .

وأعيدكم أن تروا في هذا البكاء لو نأ من الضعف ، لا ، فهو من فيض القوة ، وأظني حدثكم فيما سلف أن الحزن على ما نفقد هو الشاهد على قوة شعورنا بقيمة ما نفقد . والحزن عاطفة كاد يتفرد بها الانسان من بين سائر الحيوان .

فبكاء الشريف على شبابه هو دليل القوة والحيوية ، وهو يصور إدراكه لمعاني السعادة في الحياة ، ويرينا كيف كانت الدنيا في عينيه وفي قلبه وفي خياله وفي رؤياه ، فالتقصائد التي سندرستها معاً في هذا المساء هي عنوان الصدق وعنوان الحيوية ، وهي من شعر العافية لا من شعر المرض ، كما يتوهم بعض من يعقلون .

أيها السادة

نزل الشيب ضيفاً ثقيلاً برأس الشريف وهو في الثالثة والعشرين ، والشيب في مثل تلك السن لا يخيف ، ولكن شاعرنا تفجع فقال :

يا ذابلاً صوح فينانه قد آن للذابل أن يختلي^(١)
حط برأسي يققا أيضا كأنما حط به منصلا
قل لعذولي اليوم ثم صامتاً فقد كفاني الشيب ان اعذلا

(١) الاختلاء هو القلع والنزع

طببت به نفساً ومن لم يجد إلا الردى اذعن واستقبلا
فهو يرى الشيب نذير الموت ، وإن كان لا يزال في ذروة صباه ،
ويشير على العذول بالصمت وبالنوم ، فالشيب أقوى زاجر وأعنف
عذول .

ثم يراجع نفسه فيرى الشيب نبت الحلم والسيادة :

رأت شعرات في عذارى طليقة

كما افتقر طفل الروض عن أول الوسمي

فقلت لها ما الشعر سال بعارضي

ولكنه نبت السيادة والحلم



يزيد به وجهي ضياء

وما تنقص الظلماء من بهجة النجم

ثم تنقله الأيام إلى سن السابعة والعشرين فيقول :

وأما على عهد الشباب وطيبه

والغصن من ورق الشباب الناضر

سبع وعشرون اهتصرن شيبتي

وألن عودي للزمان الكاسر

كان المشيب وراء ظل قالص لأخ الصبا وامام عمر قاصر

تعشو إلى ضوء المشيب فتتهدي

وتضل في ليل الشباب الغابر

لو يفتدى ذلك السواد فديته بسواد عيني بل سواد ضمائري^(١)

(١) المراد من سواد الضمائر سواد القلب ، أو ما يسمونه حبة القلب ، وهي

في كلامهم سوداء .

أبيض رأس واسوداد مطالب ؟

صبراً على حكم الزمان الجائر !

فاذا ترون؟ هذا شاعر يرحب بالمشيب لو انه ظفر بحقوق المشيب
وهي السيادة والملك ، ولكنه يجمع بين النكبتين : بياض الرأس وسواد
البخت !

وبعد أن جاوز الثلاثين بقليل وقع له حادث مزعج في الحجاز فقد
حلق شعره في منى ، ثم تطلع إلى الشعر وهو مرمي على الارض فرأى
الحصل البيض تختلط بالحصل السود ، فتوقع ان يكون ذلك آخر العهد
بغلبة السواد على البياض .

لا يبعدن الله برد شيبية القيته بمنى ورحت سليبا

شعر صحبت به الشباب غراتقا^(١)

والعيش مخضر الجناب رطيبا

بعد الثلاثين انقراض شيبية عجباً اميم لقد رأيت عجيبا

قد كان لي قططاً يزين لتي شروى السنان يزين الانبوابا^(٢)

فاليوم اطلب الهوى متكلفاً حصراً والقي الغانيات مريباً

لو كان يرجع ميت بتفجع

وجوى شققت على الشباب جيوبا

وائن حننت إلى منى من بعدها فلقد دفنت بها الغداة حبيباً

ثم ينقله الدهر إلى السابعة والثلاثين فيقول :

راحت تعجب من شيب الم به

وعاذر شيبه التهام والاسف

«١» الغرائق الشاب الابيض

«٢» القطط بالتحريك الشعر القصير الجمعد ، وشروى : مثل

ولا تزال هموم النفس طارقة
 رسل البياض إلى الفودين تختلف
 إن الثلاثين والسبع التوين به عن الصبا فهو مزورٌ ومنعطف
 فهاله صبوة يبكي بها طلال ولا له طربة يعلى بها شرف
 ابن الذين رموا قلبي بهمهم
 ولم يداووا لي القرف الذي قرفوا^(١)
 يشكو فراقهم القلب الذي جرحوا
 منى وتبكيهم العين التي طرفوا
 ويعطيب لشاعرنا أن يوازن بين جنائيات الليالي، وعنده أن جنائية
 الشيب أقطع من جنائية الفراق :
 قل لليالي قد ملكت من قفاستكي^(٢)
 ولنغيرك الخلق الكريم الأسجح^(٣)
 من أي خطب من خطوبك اشتكي
 وعن أي ذنب من ذنوبك اصفح
 إن أشك فملك من فراق أحبتي
 فليسوء فملك في عذارى أقسبح
 ضوء تشمش في سواد ذوائي لا استضيء به ولا استصبح
 بمت الشباب به على مقه له بيع العليم بأنه لا يربح^(٤)
 لا تتكرن من الزمان غريبة إن الخطوب قليبها لا يترح^(٥)
 وهو قد أشار مرة إلى بلواه بالشيب والعنل :

(١) القرف قشر الجرح (٢) السجاجة هي السهولة واللين والاعتدال
 (٣) المقه : الحب (٤) القليب : البئر

قل للمواذل مهلا فالشيب غداً
يغدو عقلاً لذي القلب الذي طمحا
هيات أحوج مع شبي إلى عنل
فالشيب أعذل من لامي ولحا
وتكرير هذا المعنى يشهد بأنه كان يعرف أن الجمهور لا ينظر إلى
غرامياته بعين الارتياح . وهو يبادر باقتهاب اللذات ويراه إماراة يتولاها
الرجل بالشباب ويعزل عنها بالشيب :

سواد الرأس سلم للتصافي
وبين البيض والبيض^(١) الحروب
وولاك الشباب على الغواني فبادر قبل يعزلك المشيب
وهو لا يعجب من أن يعمش بعد فراق الأحباب ، لأنه عاش بعد
فراق الشباب :

غدا في الجيرة الغادين لي جميعاً ثم راجعني وثابا
لئن فارقتها وبقيت حياً
لقد فارقت بعدم الشباب
ويرجع إلى التفكير في النكبتين : بياض الرأس وسواد البخت ،
فيقول :

صحبنا الدهر والأيام بيض ونحن نواضر سود الشعور
فلما اسودت الدنيا برزنا لها بيض النوائب بالقتير^(٢)

(١) النساء البيض والشعرات البيض

(٢) القتير : الشيب

وتقهره البلية، بلية الشيب، على عرفان الحق، فيذكر أن الشيب
قد يفسد ما بينه وبين الحسان من وثيق الصلات.

ياقاتل الله الغواني لقد سقنتي الطرق بعيد الجمام^(١)
أعرض عني حين ولي الصبا واختلج لهم بقايا العرام^(٢)
وشاعت البيضاء في مفرقي شعشة الصبح وراء الظلام
سيان عندي أبدت شيبة في الفودأ وطبق غضب حسام^(٣)
ألقي بذل الشيب من بعدها من كنت ألقاه بدل الغلام
ترى جيم الشيب لما ذوى تراجع العظم بعد الثغام^(٤)
كم جدن بالأجياد لي والطلبي فالיום ييخلن برد السلام
وكنت إن أقبلت أسمعني قماع الحلي وراء القرام^(٥)

ويرى تعبيره بالشيب لوماً وقلة أدب، لأنه لم يبتدع الشيب حتى
يحاسب عليه :

تعيرني شبي كاني ابتدعته ومن لي أن يبقى بياض المفارق
وإن وراء الشيب ما لا أجوزه بعائق تنسي جميع العوائق
وليس نهار الشيب عندي بزمع
رجوعاً إلى ليل الشباب الغرائق^(٦)

(١) الطرق : الماء الذي خوضته الابل ، ومثله المطروق . والجمام : الماء
الصافي (٢) العرام : القوة والفتك (٣) يريد ان وقع الشيب برأسه مثل وقع
السيف (٤) الجيم الكثير من كل شيء ، ومثله الجم ، والعظم على وزن زبرج الليل
المظلم ، والثغام على وزن سحب : نبت أبيض ، ولون ثاغم : أبيض كالثغام .
(٥) القرام على وزن كتاب ستر رقيق (٦) الغرائق بضم الغين الشاب
الابيض الجميل .

ويؤكد لهجوبته أنه لم يفوف برد الشيب ، وإنما فوفته الأيام :
 لا تأخذيني بالمشيب فإنه تفويف ذي الأيام لا تفويفي^(١)
 لو أستطيع نضوت عني برده ورميت شمس نهاره بكسوف
 كان الشباب دجنة فتمزقت عن ضوء لا حسن ولا مالوف
 ولئن تعجل بالنصول فخلفه روحات سوق للمنون عفيف
 وإذا نظرت إلى الزمان رأيتك تعب الشريف وراحة المشروف
 وتوجهه سخرية الغواني فيقول :

تشاهقن لما أن رأين بمفرقي
 بياضاً كان الشيب عندي مسن البدع
 وقلن عهدنا فوق عاتق ذا الفقى
 رداء من الحوك الرقيق فا صنع ؟
 ولم أر عضباً عيب منه صقاله وكان حبيبا للقلوب على الطبع^(٢)
 وقالوا غلام زين الشيب رأسه
 فبعداً لرأس زانه الشيب والنزع^(٣)
 تسلى الغواني عنه من بعد صبوة
 وما أبعد النبات المهشم من النجع^(٤)
 وكن يخرقن السجوف إذا بدا
 فصرن يرقعن الخروق إذا طلع

١١٥ : التفويف : التلويح

٢٢ : الطبع بالتحريك هو الوسخ الشديد من الصدا والشين العيب

٢٣ : النزع بالتحريك هو الحصار الشعر من جانبي الجبهة

٤٤ : النجع جمع نجمة بالضم وهي طلب الكلا في موضعه

ويرى دنياه كلها تذهب بذهاب الشباب : فلا حب ولا قتال ، يرى
نفسه كالقوس بلا وتر ، والثعبان بلا ناب ، والغصن بلا ورق ، والقمديلا
سيف ، والحميلة بلا أزهار :

من شافعي وذنوبي عندها الكبر ؟

إن المشيب لذنوب ليس يفتفر
راحت تريح عليك المم صاحبة

وعند قلبك من غي الهوى سكر
رأت بياضك مسودا مطالعه ما فيه للحب لا عين ولا أثر
وأبي ذنب للون راق منظره إذا أراك خلاف الصبغة الأثر
وما عليك ونفسي فيك واحدة إذا تلون في ألوانه الشعر

أنسك طول نهار الشيب آخره هوى

وكل ليل شباب عيبه القصر
إن السواد على لذاته لعمى كما البياض على علته بصر
البيض أوفى وأبقى لي مصاحبة

والسود مستوفزات للنوى غدر^(١)
كنت البهيم وأعلاق الهوى جدد
وأخلفتك حجول الشيب والغرر^(٢)

وليس كل ظلام دام غيبه يسر خاطبه أن يطلع القمر
أما تريني كصل تحت هضبه بالرمل أطرق لانايب ولا ظفر

(١) مستوفزات للنوى : متطلعات للفراق (٢) البهيم : ما لا شية فيه من
الحيل ، وأخلفته : أبلته ، والحجول جمع حجل وهو بياض في قوائم الفرس ،
والغرر جمع غرة وهي بياض في الجبهة

مسالماً يامن الأقران عدوته
 ملقى الحنية عرى متنها الوتر^(١)
 كالفرع ساقط ما يعلوه من ورق
 والجفن أفرد عنه الصارم الذكر
 إن أشهد القوم لا أعلم نجيبهم
 ماذا قضاوا ويجمجم دوني الخبر^(٢)
 كان الشباب الذي أنضيت منده^(٣)
 عقب الخيلة لما صوح الزهر
 من بعد ما كنت أستسيها شففا
 أمست تراع بي الغزلان والبقر
 لم أدر أن الصبار تبلى خبيثته^(٤)
 وأن منصات ذاك العون يناطر^(٥)
 إن أمس لا يتقي زجري ولا غضي
 ولائد الحي مملولا لي العمر
 فقد أرد العفرني عن أكيلته^(٦)
 وأزجر الضيفم العادي فينزجر

فما رأيكم في هذه القصيدة ؟

إن جامع الديوان لم يذكر متى قالها الشريف ، ولكن يظهر من روح
 الشاعر أنه قالها بعد الأربعين ، ونراه مع ذلك يمتلك عزيمته أقوى

(١) الحنية . القوس (٢) يجمجم : يكتم (٣) المنديل على وزن مقعد هو الحنف
 (٤) الخيصة كساء اسود مربع له علمان (٥) المنصات : المستوى ،
 ويناطر : ينحني (٦) العفرني : الاسد ، واللبوة عفرناة

امتلاك ، وهل يستطيع رجل فان أن يقول هذا البيت :

راحت تريح عليك الهم صاحبة

وعند قلبك من غي الهوى سكر

ففي هذا البيت صورة شعرية يدرك قيمتها من تستبيهم كرائم المعاني

والشاعر يؤكد لمحبوبته أن قلبه لم يتلون ، وإن كان شعره تلون :

وما عليك ونفسي فيك واحدة إذا تلون في ألوانه الشعر

ويغالط نفسه فيزعم أن السواد عمى على ما فيه من لذات ، وأن

البياض بصر على ما فيه من علات ، ويزعم ان الشعر الأبيض أوفى لأنه

لا يفارق الرأس ، وأن الشعر الأسود غادر لأنه هجر وطنه في الرأس ثم

لا يرجع .

ان السواد على لذاته لعنى تكبير كما البياض على علاته بصر

البيض أوفى وأبقى لي مصاحبة

والسود مستوفزات للنوى غدر

ويبالغ في تضليل نفسه فيزعم أنه كان كالجواد البهيم يوم كان أسود

الشعر ، ثم عاد كالجواد الاغر المحجل منذ اختلط البياض بالسواد

كنت البهيم وأعلاق الهوى جدد

وأخلفتك حجول الشيب والغرر

ثم يفيق فيقول :

وليس كل ظلام دام غيبه يسر خاطبه أن يطلع القمر

ثم يقع الحزن على صدره وقوع الصواعق ، صواعق الغدر التي تتفزع

من هولها صدور الاوفياء ، فيقول :

أما تريني كصل تحت هضبه بالرمل أطرق لانا ب ولاظفر

وهذا بيت قليل الامثال ، وهو يصور جزع الشريف على صباه، وهل
هناك صورة تخزن وتوجع كصورة الصل وهو يطرق بارمل إطراق
المساكين لأن الشيخوخة أسقطت ما كان يملك من أنياب حداد ؟

مسالماً يامن الاقران عدوته ملقى الحنية عرى متنها الوتر
وهل رأى الرءون أذل من القوس وهي معرأة من الوتر .

ثم ماذا ؟ ثم يرى الشريف أنه أمسى :

كالفرع ساقط ما يعلوه من ورق

والجفن أفرد عنه الصارم الذكر

فهل تحسون جزع الغصن حين يسقط عنه الورق ؟ لقد أحسست هذا
المعنى منذ أعوام قبل ان يقول بعض العلماء باحساس النبات . وهل
تحسون جزع الغمد على فراق السيف ؟ ار جوان لا يطويكم الموت قبل
ان تدركوا هذه المعاني ، فإحب لاحدكم ان يلقي الله إلا وهو من
الاذكياء .

ثم ماذا ؟ ثم يبكي شاعرنا فيقول :

إن اشهد القوم لا اعلم نجيتهمو ماذا قضاوا ويجمعم دوني الخبر

وهذا البيت مزعج ، وهو يردني إلى حادثة لن انساها طول حياتي ،
يوم رأيت ابناء عمي يطوون بعض الاخبار عن ابي ، فمضيت اتوجع في
مقال نشرته بجريدة البلاغ ، ثم وقعت مخاوفي مع الاسف القتال فمات ابي
بعد اسابيع :

رحمك الله يا ابي ، وطيب مثواك !

ثم ماذا ؟ ثم يقول الشريف :

كان الشباب الذي انضيت منده
 عقب الخيلة لما صوح الزهر
 وانتم تعرفون مصائر الحائل بعد ذبول الأزهار وهلاك الرياحين
 ثم ماذا؟ ثم يذكر الشاعر خلاصة حياته فيقول :
 من بعد ما كنت استسيي لها شغفا
 أمست ترعاع بي الغزلان والبقر
 لم ادر ان الصبا تبلى خيسته وان منصات ذاك العوديناطر
 إن امس لا يتقي زجري ولا غضي
 ولاند الحى مملولا لي العمر
 فقد ارد العفري عن اكيلته وازجر الضيغم العادي فينزجر
 وليس في الدنيا ألم ولا اوجع من ان يصبح الرجل بلا حول ولا
 طول بعد ان كان ينتهب طعام الاسود .
 وليس هذا كل ما عند الشريف في بكاء الشباب ، فله وقفات يحلل
 فيها مصائر الرجال ، كان يقول :
 وطيف حبيب راع نومي خياله وعرفني طول الليالي مله
 وما زارني إلا ليخجل طيبه
 نسيم الصبا او يفضح الليل ظلمه
 تطلّع من ارجاء عيني دمعها
 وما كان لولا الوجد ينقاد سجمه
 الا هل لحب فات اولاه رجعة
 وإن زاد عندي او تضاعف وسمه .

« ١٠ » الظلم بالفتح بريق الاسنان

ليالي اسري في اصيحاب لذة ومخ الدجارار وقدق عظمة
وأغدو على ريعان خيل تلفها صدور القنا والنقع عال أحده
رأيت الفتى يهوى الثراء وعمره
يرى كل يوم زائداً منه عدمه
عقيب شباب المرء شيب يخصه
إذا طال عمر او فناء يعمه
طليعة شيب بعدها فيلق الردى برأسي لها تقع وبالقلب كلمه^(٢)
اغالط عن نفسي حمامي وإنما اداري عدواً مارقاً في سهمه
وليس يقوم المرء يوماً بحجة
إذا حضر القدار والموت خصمه
فوا عجباً للمرء والداء خلفه^(٣) ومن حوله القدار والموت امه^(٤)
يسر بماضي يومه وهو حتفه ويلتذ ما يغذى به وهو سمه
ورود من الآجال لا يستجمنا وورد من الآمال لا نستجمه

فماذا ترون في هذه القطعة ؟ ماذا ترون ؟ حدثوني فاني اخشى ان
تقولوا انها من الحديث المعاد ، ففيها معان عرفها الشعراء قبل الشريف ،
وهذا حق ، ولكن تذكروا ما حدثتكم به في المحاضرة الماضية ، تذكروا
اني قلت لكم إن اساس الابتكار هو الاحساس ، فالعاشق الذي يخاطب
هواه فيقول « احبك » لا يتهم بالمحاكاة والتزييف بحجة ان هذه الجملة قالها
قبله الناس منذ اجيال واجيال ، وكذلك كان شاعرنا ، فهو يحس المعاني
اصدق احساس .

(١) الرار هو الذائب من المخ (٣) النقع الغبار ، والكلم : الجرح

(٢) امه : امامه

وقد فهمت من جملة حاله أنه كان يشكو مرضاً يكتمه عن الأطباء ،
ولذلك شواهد كثيرة في شعره فكتمها عنكم ، وبسبب ذلك المرض المكتوم
لم يعيش نصف ما عاش أبوه ، وقد حملته تلك العلة على بغض العيش ، وهذه
القطعة تمثل إحساسه بما كان يعانيه ، وقد كان مع ذلك قليل البخت فلم يجد
من يتوجع على بلواه ، ولو فكرتم لرأيتم أنه طاف حول المعاني التي فصلها
ناظم « سفر أيوب » ولكن ناظم « سفر أيوب » وجد من ينصفه بعد
مئات السنين ، وجد الشاعر الفرنسي العظيم « لامرتين » الذي كتب عن
« سفر أيوب » كتاباً وجدانياً حملي وأناطالِب في باريس على أن أبيع
ساعتي وطائفة من ثيابي لأشترى نسخة أنيقة من التوراة .
أراكم تستغربون هذا الحديث ؟ لا بأس ، فهو والله غريب ، فمن أدب
هذا الزمان أن ننسى ماضينا وأن نتصرح بأن الأدب الحق لا يكون إلا عند
اللاتينيين والسكسونيين والجرمان .

ارجعوا إلى هذه القطعة مرة أو مرتين أو مرات ، ثم انظروا كيف
بكى شاعرنا مصير الانسانية ، وكيف توجع لمصير الرجال .
انظروا إلى هذين البيتين :

عقيب شباب المرء شيب يخصه
إذا طال عمر أو فناء يعمه
طليعة شيب بعدها فيلق الردى
برأسي له تقع وبالقلب كلمه

انظروا إلى هذين البيتين ثم اسألوا أنفسكم كيف جمع مصائر الرجال
في بيتين ، وكيف لوّن هذه الصورة تلويحاً أخذاً تنفطر له القلوب القاسية
وتززعج منه راجحات العقول .

وهذا البيت :

فوا عجباً للمرء والداء خلفه ومن حوله الاقدار والموت أمه
فهو يصور الانسان في حومة حرب مع الداء ومع الاقدار ومع
الموت .

ثم ؟ ثم ماذا ؟

ثم يتوجع الشاعر ويلتاع حين يرى مصيره بين العذال وعند الملاح
فيقول :

يا عنذولي قد غضضت جاحي فاذهباً حيث شئتاً بزمامي
بعد لوئي عمامة الشيب أختال ليردي بطلاة وعرام !!
خفضت تزوة الشباب وحال لهم بين الحشا وبين الغرام
غالطوني عن المشيب وقالوا لا ترع انه جلاء الحسام
أبها الصبح زل ذمياً فما أظ لم يومي من بعد ذاك الظلام
أرملت شمسة المنيرة فودي فمن لي بظل ذاك الغمام
قلت ما أمن على الرأس منه

صارم الجد في يد الايام
إن ذني إلى الغواني بشمي ذنب ذئب الغضا إلى الآرام
كن يبكين قبله من وداعي فبكاهن بعده من سلامي

أترون كيف قال الشاعر « يا عنذولي » والشعراء جميعاً يقولون
« يا خليلي » والبيت الاول مختلس برفق من قول مالك بن الريب .

خذاني فجراني بيردي اليكما

فقد كنت قبل اليوم صعباً قيادياً

ولكن هذا الاختلاس هو الشاهد على براعة الشريف ، فقد نقل موقف

الموت إلى موقف الشيب ، وصح له أن يقول :

يا عدولي قد غضضت جماحي فاذهباً حيث شئتاً بزمامي
وإلى أين يذهب العاذلان بزمام الشاعر الأشيب ؟ إلى أين ؟ إلى المساجد ؟
ولكن الشاعر كان يتقرب إلى ربه وهو شاب بالتأمل في ملكوت النحور
والثغور والحدود والعيون ، واليوم يتقرب إلى ربه بالعظة والاعتبار
فيكبر ويسبح كلما رأى جنازة في الطريق !

ويرى الشاعر أن لا مجال لبرد البطالة وبرد الفتك بعد أن لبس عمامة
الشيب ، وكيف يفتك أو يصول بعد أن خمدت تزوة الشباب وحالهم
بين حشاه وبين الغرام ؟ ويذكر أنهم غالطوه فزعموا أن الشيب جلاء
الحسام فيصرخ كما صرخ من قبله مئات الشعراء :

أيها الصبح زل ذمياً فما أظن تكلم يوماً من بعد ذلك الظلام
أرمدت شمك المنيرة فودي فمن لي بظل ذلك الغمام
ثم يذكر ما أجاب به من غالطوه :

قلت ما أمن من على الرأس منه

صارم الجد في يد الأيام

ولكم أن تتأملوا عبارة « صارم الجد » فهي من غرائب التعابير .

ثم يحدد مصيره فيقول :

إن ذنبي إلى الغواني بشيبي ذنب ذئب الغضا إلى الأرام

كن يبكين قبله من وداعي فبكاهن بعده من سلامي

وهو يصور الشيب أفضع تصوير فيرى موقفه وهو أشيب موقف
الذئب من الأرام ، وكان موقفه وهو شاب موقف الذئب من الأرام
أيضاً ، ولكن الفرق بين الموقفين بعيد ، فقد كانت الأرام في عهد شبابه

تشتبي أن يفترسها ، ثم أصبحت وهو أشيب يؤذيها الاقتراس .
ثم ماذا ؟ ثم يرى أن لا مفر من تحية الشيب لأنه رسول الموت
فيقول :

ألا حيّ ضيف الشيب إن طروقه
رسول الردى قدامه ودليله
لقد كان يبكي لشعري نزوله فقد صار يبكي لعمرى رحيله
ومعنى ذلك أنه كان يبكي أولاً لما حل بالشعر ، فصار يبكي لما حل
بالعمر ، فواحر قلباه !

ثم يعود إلى تحليل تلك التحية في موطن آخر فيقول:
وطارق للشيب حبيته سلام لا الراضي ولا الجاذل
أجرى على عودي ثقاف الهوى

جري الثقافين على الذابل
واعدني عقر مراحي له لا در در الشيب من نازل
فاليوم لا زور ولا طربة نام رقيي وصحا عاذلي
أترون كيف يرى الشاعر ما صنع الشيب في تثقيف هواه ،
ولكن أي تثقيف ؟ لقد هذبه تهذيباً ألياً فاقتلع الاناييب التي يتوقد
بقوتها الصيال .

أترون هذا الميعاد « واعدني عقر مراحي له » وهل هناك موعد أشام
من هذا الموعد ؟ انه موعد فاجع ، الموعد الذي يعقر فيه مراح الشباب ،
فواحر قلباه !

ثم ؟ ثم ماذا ؟

ثم يرى الشاعر لقاء الشيب أفضح من لقاء العدو فيقول :

ما لقائي من عدوي كلقائي من مشيبي
موقد ناراً أضاءت فوق فودي عيوبي
وبياض هو عند البية ض من شر ذنوبي

وهذا حق ، فنحن نحارب الاعداء بعزائم الشباب ، فبأي سلاح نحارب
يوم يودّع الشباب .

وفي موطن آخر يعالج الشاعر هذه المعضلة فيقول :

أشوقاً وما زالت لمن قباب وذكر تصاب والمشيبي تقاب
وغير التصابي للكبير تملته وغير الغواني للبياض صحاب
وما كل أيام الشباب مريرة ولا كل أيام الشباب عذاب
أؤمل ما لا يبلغ العمر بعضه كان الذي بعد المشيب شباب
وطعم لبازي الشيب لا بد مهجتي
أسف على رأسي وطار غراب

أيها السادة

أخشى أن يطول القول إذا مضينا في استعراض حسرات الشاعر
على صباه وهو يبكي نصيبه من الغواني ، فلننتقل إلى موضوع آخر وهو
جزعه من الشيب بسبب ما سيضيع من حظوظه في المعالي ، وكان الشاعر
يدخر صباه ليصيب به أعظم الاغراض من هموم الرجال ، وانظروا
كيف يقول :

ورب دار أوليها بجانبه وبني إلى الدار أطراب واشجان
إذا تلفت في أطلالها ابتدرت للعين والقلب أمواه ونيران
كلم بقلبي أداويه ويقرفه طول ادكاري لمن لي منه نسيان
لا للوائم إقصار بلائمه عن العميد ولا للقلب سلوان

على مواعيدهم خلف إذا وعدوا وفي ديونهم مطل وليأت
هم عرضوا بوفاء العهد آونة حتى إذا عذبوني بالتي خانوا
لا تخلدن إلى أرض تهون بها بالدار دار وبالجيران جيران
أقول للركب قد خوت ركائبهم

من الكلال ومرّ الليل عجلان
مدوا عليّها واستمعجوا طلباً إذا رضي بالهوننا معشرها نوا
نرجو الخلود وبقينا على ظمن والدار قاذفة بالزور مطمان

إن قلص الدهر ما أضفاه من جدة
فصحة الدهر إعطاء وحرمان
كم من غلام ترى أظفاره مزقاً
والعرض أملس والاحساب غران

إذا الفقى كان في أفعاله شوه
لم ينن أن قيل إن الوجه حسان
لا تطلب الغاية القصوى فتحرّمها
فان بعض طلاب الربح خسران

والعزم في غير وقت العزم معجزة
والازدياد بغير العقل نقصان

وهذه الايات من قصيد طويل ، وهي تريكم انه كان يدخر الشباب
مظائم الاعمال :

انظروا ايضاً كيف يتوجع على ما ضاع من أمانيه في المعالي بسبب
الشيب فيقول :

فؤادي بنجد والفتى حيث قلبه اسير وما نجد إلي حبيب
 وما لي فيه صبوة غير اني خلعت شبابي فيه وهو رطيب
 بلي ، إن قلبي ربما التاح لوحه فهل ماؤه للواردين قريب
 الأهل تردّ الريح يا جوّ ضارح
 نسيمك يحلو لي لنا وبطيب
 وهل تنظر العين الطليحة نظرة اليك وما في الماقين غروب
 وما وجد أدماء الأهاب مروعة
 لاحشائها تحت الظلام وجيب
 ترود طلا اودت به غفلاتها وفي كل حيّ للهنون نصيب
 بغوم على آثره وقد اكتسى ظلام الدياجي غائط وسهوب
 فلما أضاء الصبح لاح لعينها دم بين ايدي الضاريات صبيب
 كوجدي وقد عرّى الشباب جواده
 وغير لون العارضين مشيب
 ولكنها الايام اما قليبيها فمكد واما برقها فخلوب
 إذا ما بدأ الأمر افسدن عقبه
 وعفّي على إحسانهن ذنوب
 فله دري يوم انفت^(١) قوله لها في رؤوس السامعين ديب
 وله دري يوم اركب همة إلى كل ارض اغتدي واؤوب
 وكم مهمه جاذبت بالسير عرضه
 وغالته بالعزم وهو غلوب

(١) في الديوان (انعت)

وليل رأيت الصبح في اخرياته

كما انسل مسن سر النجاد قضيب

سريت به اوفي على كل ربوة وليس سوى نجم علي رقيب

وأزرق ماء قد سلبت جامه يعوم الشوى في غمره ويغيب

وهاجرة فلتت بالسير حدها ولا ظل إلا ذابل ونجيب

ويوم بلا ضوء يترجم تقعه عن الروع والاصباح فيه مريب

حبست به قلباً جرياً على الردى

وقد رجفت تحت الصدور قلوبه

وطعنترمح قد خرطت نجيبها كما ماج فرغ في الاناء ذنوب^(١)

وضربة سيف قد تركت ميينه وحاملها عمر الزمان معيب

نظرت إلى الدنيا بعين مريضة ومالي من داء الرجال طيب

ومن كان في شغل المنى ففراغه

مثال الاماني او ردى وشعوب

فمالي طول الدهر أمشي كائني

لفضلي في هذا الزمان غريب

إذا قلت قد علقت كفي بصاحب

تعود عواد بيننا وخطوب

وهذه أبيات تفيض بالاحساس وقوة الروح ، وهي تشعركم بان

الشاعر كانت له من شبابه غايات اشرف من الانس بالقواني .

ان شاعرنا ، ايها السادة ، لم يبك شبابه وهو عابت ، وإنما بكاه

(١) الفرغ مخرج الماء من الدلو والذنوب بالفتح هو البئر

لأنه كان الوسيلة إلى إدراك ما في الدنيا من صبوات وأبجاد ، والصبوة
والحمد معنيان من اشرف المعاني ، والشاعر الحق هو الذي يدرك قيمة
الصبوة وقيمة الحمد .

كان شاعرنا إماماً في الفتوة وفي الفروسية ، فارحموه إن رأيتموه
بيكي على شبابه بكاء الاطفال ، فليس في الدنيا ما يستحق ان تذال في
سبيله دموع الرجال غير الشباب .

وقد يما قيل إن أبا العتاهيه أشعر الناس لأنه قال :

روائح الجنة في الشباب

أيها السادة

لقد طوّفت بكم حول المناحة التي أقامها الشريف على صباح
والآن أنظر فأراكم فريقين : فريق الشباب وفريق الكهول .

أما الكهول فاني ارجو ان لا يصنعوا مثل صنيع الشريف فيقتلوا
عزائمهم بكثرة النوح على الشباب ، فان لله حكمة عالية حين قضى بأن لا
يحمل نبيه الرسالة إلا بعد الأربعين ، ليعرف من لم يكن يعرف ان شباب
العزائم لا يتدىء إلا بعد الأربعين .

وأما الشبان الذين وانظبوا على هذه المحاضرات من طلبة دار المعلمين
العالية وطلبة كلية الحقوق وأدباء بغداد ، فان لي في سبيلهم مع الله كلمة ،
ولي في سبيل الحمد معهم كلمة .

أما كلمتي مع الله تباركت أسماؤه فهي دعوة أرجو ان تستجاب .
ادعوا الله ان تعيشوا يا تلاميذي ويا حواربي حتى تشيب نواصيكم
ادعوا الله ان يبقيةم جميعاً حتى تطول بلواكم بالشيب ، ادعوا الله ان
تعيشوا حتى يشيب أبناؤكم وانتم اقوياء .

ادعوا الله ان يمنحكم البركة في العمر ، والبركة في العافية ، فلا
يدرككم الشيب إلا ولكم في بلادكم منازل عالية تحقق بعض آمال
العراق .

اما كلمتي معكم في سبيل المجد فهي كلمة عنيفة ، هي دعوةكم إلى
إنفاق الشباب في سبيل المجد ، لا في سبيل الحب ، لأن أكثر الحب في زماننا
متاع رخيص لا يذكي الافئدة ولا يوقظ القلوب .

تذكروا دائماً يا تلاميذي ويا حواربي ان في مقدور الشاب النبيل
ان يخلق لنفسه عرائس من الخيال ، تذكروا ان سهر الليل في تحقيق
مشكلة فلسفية ، او معضلة علمية ، الذي وامتع من سهر الليل بين غانية
وكأس .

تذكروا يا تلاميذي ويا حواربي ان شهوة المجد اقوى من شهوة
الحب ، تذكروا ان عشق المعاني هو الذي يخلق العظماء ، والمرأة
نفسها لا تذكي قريحة الرجل فتصيره عظيماً إلا إن كانت عظيمة في
الشماثل والحصال .

اني اخاف عليكم سفاهة هذا الزمان ، يا تلاميذي ويا حواربي ،
فان لم يكن لكم بد من درس الوجود فادرسوه دراسة الرجال ،
وليكن موقفكم منه موقف الطبيب من العليل ، وانا لا ادعوكم الى
اغراض اعينكم ، وإنما ادعوكم الى التخلق بالقوة والجبروت فلا يدرككم
الشيب إلا بعد ان تكونوا رفعت قواعد الحياة العلمية والادبية والاقتصادية
في هذه البلاد .

وقد رأيتوني اعطف على الشريف وهويكي صباه .
وإنما كان ذلك لأنني اومن بان الشريف كان رجلاً سليماً Normal

وكانت مواهبه شبيهة بالمائدة الغريبة الألوان : فكان شاعراً وكان كاتباً
وكان نحويّاً ، وكان فقيهاً ، وكان فارساً ، وكان سياسياً ، كان يجمع بين
الحلاوة والمرارة ، والجد والهزل ، والقلب والعقل .
ومثل هذه الشخصية القوية لا ينظر اليها رجل مثلي بغير العطف
والاعجاب .

فمن شاء منكم أن يقضي حق الشباب فإنا حارسه وراعيه ، ولكن على
شروط أن يقيم البراهين على أنه رجل عظيم يضر وينفع ، ويبرم وينقض ،
ولا يبيت إلا وهو مثقل بهموم الرجال .

تلاميذي الأعزاء :

احترسوا ، ثم احترسوا ، فما توغلت في هذه الدراسات الوجدانية
لاحولكم إلى قوم بكائين ، وإنما قضى واجب العرس أن نفهم شاعرنا حق
الفهم فننظر كيف كان يدرك ما في الوجود من ألوان .
وما جاز له لا يجوز لكم في كل حين .

وليتكم تغنمون لأنفسكم ما غنم لنفسه من القوة والجبروت ، فقد
طاب له أن يلهو ويلعب ، ومع ذلك لم يفارق دنياه إلا بعد أن هذب
الوفاء من التلاميذ ، وبعد أن ترك ثروة شعرية وأدبية وفقهية تعزّ على من
رامها وتطول .

تلاميذي الأعزاء

ستحيون بأذن الله حتى تشيب نواصيكم ، وستكون لكم في سبيل
المجد وثبات صواقق ، وسيذكر العراق أن أبناءه لم يخذلوه ، وانهم استطابوا
في سبيله كل عذاب ، حتى الحرمان من نعيم الشباب .

الشاعر الوصاف

أيها السادة

نحدثكم الليلة عن الوصف في أشعار الشريف ، ونبدأ فنحكم بأنه خليق بأن يسمى (الشاعر الوصاف) وإنما سارعنا إلى هذا الحكم لأن الشريف مظلوم من هذه الناحية : فما قال أحد من القدماء أو المحدثين بأنه كان من الوصافين ، وليس معنى هذا أنهم أنكروا عليه القدرة على الوصف ولكن لم يتفق لأحدى قصائده أن تظفر بشهرة وصفية ، فالمتنبى له قصيدة مشهورة في وصف الاسد ، والبحتري له قصيدة مشهورة في وصف إيوان كسرى ، وأبو تمام له قصيدة مشهورة في وصف الربيع ، وشوقي له قصيدة مشهورة في وصف « أنس الوجود » أشهر القصود في التاريخ .

لم يقل أحد بأن الشريف كان من الوصافين ، وتجاهل هذه الناحية يشهد بأن النقاد لم يعرفوا هذا الشاعر كما كان يجب أن يعرف .

فلنحاول نحن إنصافه ولتكشف عن عبقريته في هذا الباب .

ونسارع فنقرر أن الشريف لم يصف الخمر ، وكان وصف الخمر من من أهم الفنون عند شعراء العراق .

فما السبب في ذلك ؟

لا موجب للمداورة ، فالشريف لم يكن يرى من الوقار أن يتبذل في وصف الخمر والسقا كما فعل غيره من الشعراء ، لأنه كان يرشح نفسه لأعظم المناصب الدينية .

وربما جاز أن نحكم بأنه لم ير الخمر رأي العين .

وهذا الحكم يبدو غريباً ، ولكن يسهل تصوره حين نذكر كم بلبن الفارض الذي شغل الناس بقصائده الخمريات ، فمدينة القاهرة لعهد ابن الفارض لم تكن تعرف الخمر ، والبيئة التي نشأ بها ابن الفارض لم تكن تعرف إلا أن الخمر شراب حرام ، ومع ذلك وصفها الشاعر وأجاد الوصف كما اتفق لأحد الشعراء العميان أن يجيد وصف الحروب . وقد رأيت في بغداد ناساً يعرفون تخطيط القاهرة ولم يروها ، وإنما تمثلوا خططها بالسمع عن طريق الجرائد والمجلات (١) .

وما أنكر أن العراق يكاد يكون أقدم شعب عرف الخمر في التاريخ ، ولكن الخمر كانت مع ذلك متاعاً يجهله الجمهور في العراق ، وإسراف أبي نواس في وصف الخمر هو الشاهد على أنها كانت قليلة الوجود ، ولولا قلتها لما أمكن أن يتهالك عليها كل ذلك التهالك وأن يفتن بها ذلك الفتون وفرنسا التي تشرب الخمر في كل وقت ولا يكاد أهلها يعرفون طعم الماء ، فرنسا هذه لم ينبغ فيها شاعر يصف الخمر على نحو ما نبغ أبو نواس ، وكان ذلك لأن الناس يقل غرامهم بما يملكون .

فان كنتم في ريب من ذلك فانظروا قول السري الرفاء شاعر الموصل وهو الذي يقول في استهداء النبيذ :

يامن أنامله كالعارض الساري وفعله أبداً عار من العار
أما ترى الثلج قد خاطت أنامله ثوباً يزر على الدنيا بأزرار

(١) استغرب احد العلماء هذا الحكم وقال : (انا اؤكد ان ابن الفارض كان يعصر الخمر بيديه !) وربما كان هذا العالم اعرف مني بأساليب القوم الصالحين . ولعل الاستاذ محمد بهجة الاثري يحكم بيني وبين ذلك العالم المفضل .

تار ولكنها ليست بميدية نوراً وماء ولكن ليس بالجارى
والراح قد أعوزتنا في صبيحتنا
بيعاً ولو وزن دينار بدينار
فامن بما شئت من راح تكون لنا
ناراً فانا بلا راح ولا نار
فهذا الشعر يشهد بندرة الخمر في تلك العهود .

وانظروا أيضاً قول السلامي :
أرسلت أشكو اليكم غدوة ظهأي
وما شككت باني سوف أغتبق
فقد كتبت إلى أن خاتني قلبي وقد ترددت حتى ملني الطرق
أنت امرؤ جوده غمر ونائله ~~مهر~~ ووبل نداء مسبل غدق
فابعت إلي بصفو الراح يشبهه

مني قريضي ومنك العرف والخلق
وقد لاحظت مثل هذه الملاحظة في كتاب « النثر الفني » حين تكلمت
عن أبي الفرج البغاء .

قد تقولون : هؤلاء شعراء يستجدون !
وأجيب بأن الشعراء لا يستجدون إلا حين لا يجدون .
كانت الخمر في العراق قليلة جداً ، بدليل اللفظة الظاهرة في كلام
الشعراء ، وما عرفها الشريف فيما أفترض ، وإن كان صرح بأنه عرفها
في هذا البيت الحزين :

ويعني المدام طروق هي فما يحظى بها إلا نديمي
وهو قد وصف الخمر بالفعل ، ولكنه نص في الديوان على انه سئل

وصفها على لسان بعض الناس فقال :

استقني فالיום نشوان والرهي صاد ورين
كفلت باللهو وافية لك نايات وعيدان
جاز' وقدالرييح فالتطمت منه أوراق وأغصان
كل فرع مال جانبه فكان الاصل سكران
وكان الغصن مكسياً من رياض الطل عريان
كلما قبت زهرتها خلت ان القطر غيران
ومقيل بين أخبية قلته والحى قد كانوا
في أصيحاب مفارشهم ثم أنقاء وكشبان
عسكرت فيها السحاب كما حط بالبيداء ركبان
فارتشفنا ريق سارية حيث كل الارض غدران
فاسقني فالوصل يالفني إن يوم البين قرحان
غير سمعي للملام إذا ضج ساجي الصوت مرنان
رب بدر بت أئمه صاحباً والبدر نشوان
قدت خيل اللثم أصرفها حيث ذاك الحد ميدان
لي غدير مسن مقبله ومن الصدغين بستان
وندامي كالنجوم سطوا بالمتى والدهر جذلان
كم تخلت عن ضمائرهم ثم ألباب وأذهان
خطرنا والخر تنفضهم وذيول القوم أردان
كل عقل ضاع من يقظ فهو في الكاسات حيران

(١٥) في النيران (حاز)

إنما ضلت عقولهم حيث يعيين وجدان
فاختلس طعن الزمان بها إنما الأيام أقران
وهي قصيدة تظهر فيها الرشاقة وخفة الروح ، ولكن أين هي من
خمریات الفاجر أبي نواس !

وسئل مرة ثانية وصف الخمر فقال :

راح يحول^(١) شعاعها بين الضمائر والعقول
فكانها في كأسها والليل منسحب الذبول
ماء الهجير مرققاً في سرة الظل الظليل

وهي أبيات ظريفة جداً ، وقد تجمل فيها تجمل النبلاء .
ويصح أن نذكركم بما قضينا به يوم درسنا غراميات الشريف ، فقد
قلنا انه وقف عند المعاني الوجدانية ، ولم يشغل نفسه بوصف الجوانب
الحسية إلا قليلا .

وكذلك فعل حين وصف الصبء .

...

كان الشريف شاعراً وصافاً ، ولكن أين الشواهد ؟

حدثوا انه سئل وصف فرخ حمامة فقال :

لحبّ إليّ بالدهناء ملقى

لأيدي العيس واضعة الرحال^(٢)

مناخ مطلقين تقاذفتهم غريب الحاج والهمم العوالي^(٣)

١٥ في الديوان (يحول) ٢٥ الدهناء : اسم مكان

٣٥ الحاج هي الحاجات . والمطلقون هم المهزولون

أراحوا فوق أعضاء المطايا قد افترشوا زرابي الرمال^(١)
فبين مغمض بالنوم ذوقاً وبين مقيد بعري الكلال
إلى أن روع الظلماء فتق أغر كجلحة الرجل البجال^(٢)
فقاموا يرتقون على ذراها سلايم المعالق والجبال
وأرقنى دعاء الورق فيها على جرح قريب الاندمال
تذكرني بسالفة الليالي وسالفة الغزاة والغزال
وأيام الشباب مساعفات جمعن لنا وأيام الوصال
كانفاس الشمول كرعنت فيها على ظمأ وأنفاس الشمال
أقول لها وقد رنت مراحا لبالك يا حمامة غير بالي^(٣)
تباعد بيننا من قيل شاك تعلق بالغرام وقيل سالي
ترجع الى درادق عاطلات وهن بعيد آونة حوالي^(٤)
لها صنع يطول على طلاها قلاند لا تفصل بالآلي^(٥)
عوار لا تزال الدهر حتى تجملها بربط غير بال
وكل أزيق قصرت خطاه كشيخ الحي طاطا للعوالي
مراحك قبل طارقة المنايا وقبل مرد عادية الليالي^(٦)

- «١» الزرابي هي الأبسط ، وهي كلمة قرآنية ولا تزال مستعملة في بلاد المغرب «٢» الجلحة : انحسار الشعر عن الرأس ، والبجال على وزن سحاب هو الشيخ الكبير مع جمال ونبل «٣» رنت : صاحت وسجعت «٤» ترجع : ترجع - والدرداق : الاطفال ، مفردها دردق «٥» الصنع بالكسر من معانيه الثوب والمراد به الريش ، والطلبي بالضم هي الأعناق «٦» هذا البيت دعوة الى انتهاء الصفو في أيام الشباب

وهذه القصيدة تمثل مذهب الشريف في الوصف أصدق تمثيل ، فهي في الأصل نظمت في وصف فرخ الحمام ، ولكن فرخ الحمام مع ذلك جاء فرعاً ولم يجيء أصلاً ، فقد شغل الشاعر نفسه بوصف مناخ العيس وحوامها الركب الطليح ، وشاءت له الشعرية أن يصف ذلك المنظر أجمل وصف ، فلما وصل إلى فرخ الحمام لم يشغل نفسه بوصفه إلا قليلاً .

وهنا نجد الأدلة التي تساعد على الحكم بالقول الفصل ، فالشريف شاعر وصاف ، ولكن الوصف عنده لا يقع إلا عن طريق الاستطراد .

وقد حدثناكم منذ أشهر يوم تكلمنا عن العلا والمعالى في قصائد الشريف أن جامع الديوان عنوان إحدى قصائده بوصف الأسد ، ثم أريناكم أنه ما ما وصف الأسد ، وإنما وصف نفسه ، أعني أنه شبه نفسه بالأسد فساقه ذلك إلى وصف الأسد عن طريق الاستطراد .

وانتم تذكرون أنه قال :

سيرعب القوم مني سطوذي لبد

له بعثر أعراس وولدان

لا يطعم الطعم إلا من فريسته إن يعدم القرن يوماً فهو طيان

ماشى الرفاق يراعي أين مسقطهم

والسمع منتصب والقلب يقظان

إلى آخر الوصف .

وكذلك يفعل الشريف في أكثر الأوصاف ، فمن أراد أن يعرف قدرته الوصفية فليتابعه حيث استطرد ، فهناك قدرته على التصوير والتلوين .

ومن شواهد ذلك قصيدته البائية في وصف الركب ، ركب

المجيب، وما كانت القصيدة نظمت لوصف الركب، ولكن الشاعر
استطرد فقال:

ثمانون من ليل التام نجوبها رفيقين تكسوها الدياتجي ثيابها
نؤم بكمب العامري نجومها إذا ما نظرناها انتظرة غياها
تقوم أيدي اليممات وراه ونعدل منها أين أو مارقاها^(١)
كأن أهدب القناة يؤمها سنان مضى قدما مضى كماها
كذنب الغضا أبصرته عند مطمع

إذا هبط البيداء شم تراها
بعين ابن ليل^(٢) لا تداوى من القنى
يريب أقاصي ركبها ما أراها
تراه قبوعا بين شرخي رحاله
كذروبة ضموا عليها نصاها^(٣)

فن حلة نجتابها وقبيلة نمر بها مستبعين كلاها
ومن دار أحباب نبل طولها جاء الأماقي أو نحي جناها
ومن رفقة نجدية بدوية تفاوضنا أشجانها واكتناها
ونذكرها الأشواق حق تحنها
وتعدي بأطراف الحنين ركاها
إذا ما تحدى الشوق يوما قلوبنا
عرضنا له أنفاسنا والتهابها

(١) اليممات : النوق (٢) في الديوان (ليل)

(٣) المذروبة والمذرب : السيف

وملنا على الأكوار طربى كأننا
رأينا العراق أو تزلنا قبائبا
نشاق إلى أوطاننا وتعوقنا زيادات سير ما حسبناحسابها
وكم ليلة بقنا نكابد هولها ونزق حصباها إذا الغمرهاها
وقد نصلت أنضاؤنا من ظلامها

نصول بنان الخود تنضو خضابها
وهاجرة تلقى شرار وقودها على الركب أنعلنا المطى ظرابها
إذا ماطلتتا بعد ظمأ بماها وعج الظوامي أوردتنا سراها
تمنى الرفاق الورد والريق ناضب

ففي هذه القصيدة وصف الشاعر القافلة ووصف الدليل أجمل وصف ،
وكان السياق يوجب أن تكون القصيدة في التودد إلى رفيقه في السفر وهو
ابن أبي الزمان .

أحب أيها السادة أن تذكروا هذه الحقيقة التي استكشفناها بطول
الدرس ، وهي ان الوصف عند الشريف يقع غالباً على طريق الاستطراد ،
فإن ذكرتم هذه الحقيقة لم يصعب عليكم استقراء ما عنده من جيد
الاصاف .

وقد أشرنا إلى أنه وصف الاسد عن طريق الاستطراد ، فهل تظنون
أن ذلك وقع مرة واحدة ، لا ، فهناك شاهد ثان :

بني عامر ما العز إلا لقادر
على السيف لا تخطو اليه المظالم

ضجيج الهوينا يغلب الخضم رأيه
وأكبر سلطان الرجال الخصام
أرى إبل العوام تحدى على الطوى
وتأكل حوزان الطريق المناسم
وتظلم على الاغذاذ أشداق خيله
وتشرب من أفواههن الشكائم
يحاول أمراً يرمق الموت دونه
لقد زل عنه ما تروم المراوم
أقام يرى شم النسيم غنيمه
ولا بد يوماً أن ترد الغنائم
وتعجبه غر البروق تحت شيمها
سراعاً إذا مرت عليها الغنائم
ولي بين أخفاف المراسيل حاجة
ستصحب والأيام بيض نواعم
تحاربني في كل شرق ومغرب
وأكبر ظني أنها لا تسالم
أقول إذا سالت مع الليل رفقة
تقاذفها حتى الصباح المخارم
دعي جنبات الواديين فدونها
أشم طويل الساعدين بوارم
إذا هم لم تقعد به عزماته
وإن ثار لا تعيا عليه المطاعم

كان على شقيقه ثغراً ورامه
ذوابل من أنيابه وصوارم
فما جذب الاقران منه فريسة
ولا عاد يوماً أنفه وهو راغم
يرى راكب الظلماء في مستقره
وتستن منه في العرين الغائم
نمراً وراء الليل نكته السرى
وقد فضحتنا بالبغام الروام
له كل يوم غارة في عدوه
تشاركه فيها النور القشاعم

كان المنايا إن توكيد ~~نوم~~ باعه
تيقظ في أنيابه وهو نائم
وما الليث إلا من يدل بنفسه
ويمضي إذا ما بادته العظام
وما كل ليث يغم القوم زاده
إذا خفت تحت الظلام الضراغم

فهذه القصيدة نظمت في الاصل لغرض غير وصف الاسد ، ثم جاء
وصف الاسد عن طريق الاستطراد ، ولكن اي وصف ؟ يكفي
انه قال :

كان المنايا إن توكيد باعه
تيقظ في انيابه وهو نائم
وكذلك فعل في قصيدة :

وذى ضغن مصولة كلماته
ومسومة تترى إلى القلب نبه
فهي قصيدة قالها في محاربة بعض الأعداء ، ولكنه استطرد إلى وصف
الأسد فأجاد ، ويكفي أنه قال :

قليل ادخار الزاد يعلم انه
مق ما يعاين مطعماً فهو آكله
وفي مثل ما صنع في وصف الأسد صنع في وصف الحية :
نبت مني يا أبا الفيدلق اصم لا يسمع صوت الراقي
وهي قصيدة رآها جامع الديوان في وصف الحية فغنونها بذلك ،
وهي حقيقة في وصف الحية ، وإن كانت وقعت على طريق التشبيه ،
ولكن جامع الديوان نسي ان الشريف استطرد فوصف قصائد الهجاء
أخطر وصف إذ قال :

اهدفت للارعاد والابراق نصب مسيل العارض البعاق
ترقع عرضاً منك ذا انخراق
كما رفدت النمل بالطراق
حذار من منروبة ذلاق ترفع عنك جانب الرواق
هواجماً مقطوعة الرباق حق على الأذان والاحداق
تنتزع الاصول بالأعراق يلجا بها الحر إلى الاباق
أعقدها مواضع الاطواق لها على الاعناق وسم باق
إلى آخر القصيدة ، وقد وصفت فيها الاهاجي باخطر مما وصفت
به الحية .

أيها السادة

ذلكم قولنا في الوصف عند الشريف ، ومنه ترون ان الوصف له
عنده خصائص قد تباين ما عند غيره من سائر الشعراء .

وقد يمزج بين الوصف والرثاء كقوله في وصف الحيرة وبكاء ملوكها
السالفين من آل المنذر بن ماء السماء .

أين بانوك أيها الحيرة البية ضاء والموطئون منك الديارا

والإلى شققوا ثراك من المشب وأجروا خلالك الانهارا

المهيبون بالضيوف إذا هبت شمالات والموقدون النارا

كلما باخ ضوءها اقضموها بالتقييبات مندليا وغارا

ربطوا حولك الجياد وخطوا

للك من مركز العوالي عذارا

وحموا ارضك الحوافر حتى

لقبوا ارضها خدود العذارى

لم يدع منك حادث الدهر إلا

عبراً للعيون واستعباراً

وبقايا من دارسات طول خبرتنا عن اهلها الاخبارا

عبيقات الترى كان عليها لطمين ينفضون العطارا

وقباب كأنما رفعوا منها لمسترشد الظلام منارا

عقدوا بينها وبين نجوم الافق

من سالف الليالي جوارا

أين عقبانك الخواطف حلقن وأبقين عندك الاوكلرا

ورجال مثل الاسود مشوا فيك تداعوا قوائماً وشفارا

حيناً اهلك المهلون اهلاً يوم بانوا وحيناً الدار داراً
لم يكونوا إلا كركب تانى
برهة في مناخه ثم سارا
وما اظنكم تحتاجون إلى من يرشدكم إلى جوانب الدقة والروعة في
هذا القصيد :

وقد مر بالحيرة مرة ثانية فراعها بلاؤها بالزمان وجاش صدره
بهذا القصيد :

ما زلت أطرق المنازل بالنوى
حقى نزلت منازل النعمان
بالحيرة البيضاء حيث تقابلت
ثم العباد عريضة الاعطان
شهدت بفضل الرافعين قباها
ويبين بالبنيان فضل الباني
ما ينفع الماضين ان بقيت لهم
خطط معمرة بعمر فاني
باق بها حظ العيون وانما
لا حظ فيها اليوم للأذان^(١)
وعرفت بين بيوت آل محرق
ماوى القرى ومواقد النيران
ومناط ما اعتقلوا من البيض الظبا
ومجر ما سحبوا من المران

(١) هذا بيت جيد

ورأيت مرتبط السوابق لها
 ومعاقل الأساد للذؤبان^(١)
 المهاجين على الملوك قبايم
 والضارين معاقد التيجان
 وكان يوم الاذن يبرز منهم
 اسد الثرى واسود الغيطان
 ولقد رأيت بدير هند منزلاً
 أما من الضراء والحدثان
 أفضى كستمع الهوان تفتت
 انصاره وخلا من الأعوان^(٢)
 بالي المعالم اطرقت شرفاته
 إطراق منجذب القرينة عان^(٣)
 أو كالوفود رأوا سماط خليفة
 فرموا على الاعناق بالاذقان
 وذكرت مسحبها الرياط بجوه
 من قبل بيع زمانها بزمان
 امقاصر الغزلان غيرك البلى
 حتى غدوت مرابض الغزلان^(٤)
 وملاعب الانس الجميع طوى الردى
 منهم فصرت ملاعب الجنان

(١) وهذا ايضاً بيت جيد (٢٢) في هذا البيت خيال طريف (٣) للفارسي.

ان يتأمل في اطراق الشرفات وتشبيهاها بالبعير المقرون

(٤) وهذا بيت نفيس جداً ، والمعنى قديم ولكن الشاعر اورده مورد أقويماً

من كل دار تستظل رواقها
 أدماء غانية عن الجيران
 ولقد تكون محلة وقرارة
 لأغر من ولد الملوك هجان
 يطأ الفرات فناءها بعبابه
 ولها السلافة منه والروقان
 ووقفت أسال بعضها عن بعضها
 وتجيئني عبر بغير لسان
 قدحت زفيري فاعتصرت مدامعي
 لو لم يؤل جزعي إلى الحلوان
 ترقا الدموع ويرعوي بزجر الفقى
 وينام بعد تفرق الأقران^(١)
 مسكية النفحات تحسب تربها
 برد الخليع معطر الأردن
 وكانما نشر التجار لطيمة
 جرت الرياح بها على العقيان
 ماء كجيب الدرع تصقله الصبا
 وتقاً يدرجه النسيم الواني
 حلل الملوك رمى جذيمة بينها
 والمنذرين تغاير الأزمان

(١) هذا معنى يكرره الشريف وسنراه في المراثي

طردا كدأب الدهر في طرد الالى
وإلى الحفائظ في بني الديان
نعق الزمان يجمعهم عن لعلع وأقض مترهم على نجران
وكأل جفنة أزعجتهم نبوة نقلت قبايهم عن الجولان
وعلى المدائن جلجلت برعادها
عركا لكلكها على الايوان
وإلى ابن ذي يزن غدت مرحولة
نفضت حويتها على غمدان^(١)

زفر الزمان عليهم فتفرقوا وجلوا عن الاوطار والاطوان
ويضيق الوقت عن تحليل هذه القصيدة النفيسة ، وقد ظلت على
نفاستها منسية ، فلم أر اليها أية إشارة في أي كتاب .
وبكاء الديار قديم في الشعر العربي ، ولكنه كان في الاغلب مقصوراً
على ديار الاحباب . وأظهر من شرع مذهب بكاء الآثار بين القدماء هو
البحثري في القرن الثالث ، وأظهر من شرع هذا المذهب بين المحدثين هو
اسماعيل صبري في أوائل القرن الرابع عشر ، وقد أشرنا في الطبعة
الثانية من كتاب (الموازنة بين الشعراء) إلى أن شوقي نقل عن صبري
هذا المذهب ، فوصف الآثار المصرية والاندرسية بقصائد سارت مسير
الأمثال .

أما بعد فهل تروني أقنعتكم بأن الشريف كان من الشعراء الوصافين؟

(١) الحوية كساء محشو يوضع حول سنام البعير .

مراثي الشريف

أيها السادة

نحن مقبلون على فن أجاد فيه الشريف وهو الرثاء
ومراثي الشريف تنقسم إلى قسمين : رثاء أهل البيت ، ورثاء الأصدقاء
والرؤساء والملوك .

أما رثاء الشريف لأهل البيت فلن أحدثكم عنه في هذه المحاضرة
لأنني كتبت عنه فصلا مطولا في كتاب (المدائح النبوية) وقد نشرته
مكتبة مصطفى الحلبي منذ ثلاث سنين ، وأنا أكره الحديث المعاد ، فمن شاء
منكم أن يعرف كيف رثى الشريف أهل البيت فليرجع إلى ذلك الكتاب .
وأما مراثي الشريف للأصدقاء والرؤساء والملوك والخلفاء فلها
ألوان ، وقد مرت لبعضها في هذه المحاضرات إشارات ، وما أشرت إليه
من قبل لا أعود إليه في هذا المساء .

وأسارع فأقرر ان مراثي الشريف تفصح عن رأيه في دنياه ، وتشهد
بانه كان يشعر بان نهايته قريبة وأن متاعه في الحياة قليل .
ويظهر أن شوقي تأثره من هذه الناحية ، مع الفرق بين الشاعرين
فالشريف كان يتالم ويتضجر من سخر الحياة ، وشوقي كان يحب أن
يعرف ما بعد الموت ، وقصائد شوقي في هذا المعنى من الاعاجيب في
الادب العربي ، ولها مذاق مرير .

والشواهد الآتية تبين لكم ضجر الشريف من دنياه :
قال في تمزية محمد بن الحسن بن صالح عن والدته وقد توفيت سنة ٢٧٨ :

هي ما علمت فهل ترد همومها نوب أراقم لا يبيل سليمها^(١)
أرواحنا دين وما أنفاسنا إلا قضاء والزمان غريما
فلائي حال تستلذ نفوسنا نفعات عيش لا يدوم نعيمها
يمضي الزمان ولا نحس كانه ريح ترق ولا يشم نسيمها
لم يشفع الدهر الخؤون لمهجة في العمر لإعاد وهو خصيمها
وكانما الدنيا العرورة برودة بيدي بلي وروقناتسهمها^(٢)
يا دهر كم أسهرت لي من ليلة قد كنت فيك أنامها وأنيمها
والأرض دار لا يلدنزلها عمر الزمان ولا يديم مقيمها^(٣)
كم باع آباء تفل بطونها وأديم جبار يقدر أديمها
قبر على قبر لنا وأواخر يلقي رميم الأولين رميمها
وقال في رثاء بنت أحد الأصدقاء :
عجزنا عن مراغمة الحمام وداء الموت مغرى بالانام
وما جزع الجزوع وإن تناهى بنتصف من الداء العقام
وأين نخور عن طرق المنايا
وفي أيدي الردى طرف الزمام^(٤)
نوائب ما أصخن إلى عتاب يطول ولا خدرن على ملام
هي الأيام تاكل كل حي وتعصف بالكرام وباللثام
وكل مفارق للعيش يلقي كما لقي الرضيع من الفطام
وكم ليد النوائب من صريع بداء السيف أو داء السقام

(١) السليم هو المدوغ أو الملسوع ، ويبيل : يبرأ ، والاراقم : الحيات
(٢) التسيم : التخطيط (٣) يديم : من الدام وهو العيب ، ويقال دام يديم
ذمياً وداماً فهو مذموم ومذموم (٤) بيت جيد

فمن ورد المنية عن وفاة كآخر عاثر العينين دامي^(١)
وما يفتقر بالدنيا لبيب يفرُّ من الحياة إلى المحام
خطوب لا اجمُّ لها جوادي وعزم لا أحط له لثامي
رأيت الموت يبلغ كل نفس على بعد المسافة والمرام
سواء ان شددت له حزيمي

زماً أو حلت له حزامي^(٢)
وقال أيضاً في رثاء بنت أحد الاصدقاء ، وقد حدثناكم من قبل عن
غرامه برثاء البنات والنساء :

نخطو وما خطونا إلا إلى الاجل
ونتقضى وكان العمر لم يطل
والعيش يؤذنا بالموت أوله^(٣)
ونحن نرغب في الايام والدول
يأتي المحام فينسي المرء منيته
وأعضل الداء ما يلهي عن الاجل
ترخي النوائب من أعمارنا طرفاً
فنتعز وقد أمسكن بالطول^(٤)
لا تحسب العيش ذا طول فتركبه
يا قرب ما بين عنق اليوم والكفل
زوغ عن طلب الدنيا وتطلبنا
مدى الزمان بارماح من الاجل

١٥ المرنين بالكسر هو الانف ٢٥ الحزيم على وزن امير هو الصدر
٣٥ الطول على وزن عنب هي طاقات الجبل

يقودني الموت من داري فاتبعه
 وقد هزمت باطراف القنا النبل
 والمرء يطلبه حتف فيدركه
 وقد نجا من قراع البيض والاسل
 ليس الفناء بأمون على أحد
 ولا البقاء بمقصور على رجل
 تعزّ ما اسطعت فالدنيا مفارقة
 والعمر يعتق والمغرور في شغل^(١)
 ولا تشك زماناً أنت في يده
 رهن فما لك بالاقدار من قبل^(٢)
 وقال في رثاء تقيّة بنت سيف الدولة:

نغالب ثم تغلبنا الليالي وكم يبقى الرمي على النبال
 ونطمع ان يمل من التقاضي غريم ليس يضجر بالمطال
 أنتظر كيف تسفح بالنواصي ليالينا وتعثر بالجبال^(٣)
 يحط السيل ذروة كل طود رهوناً بالجنادل والرمال
 هي الايام جائرة القضايا وملحقة الاواخر بالاولي
 يمين الورود فإن دنونا ضربن على الموارد بالحبال^(٤)
 نطنب للنون قباب حيّ ويحفزنا المنون إلى الرحال
 ونسرح آمنين وللمنايا شبا بين الاخامص والنعال

(١) يعتق يسرع ، والعنق بالتحريك قرب من السير
 (٢) القبل على وزن عنب هو القدرة (٣) تأمل هذا الخيال
 (٤) وتأمل هذا ايضاً

وبينا المرء يلبسها نعيًا تهجر ضاحياً بعد الظلال
وقال في رثاء عمر بن اسحق بن المقتدر :

أرجع ميتاً رنةً وعويل ويشفى بأسراب الدموع غليل
شباب الفتى ليل مضل لطرقه وشيب الفتى غضب عليه صقيل
فما لوتنا قبل المشيب بدائم ولا عصرنا بعد الشباب طويل
وحائل لون الشعر في كل لمة دليل على ان البقاء يحول
تؤمل أن نروى من العيش والردى

شروب لأعمار الرجال اكول
تقول مقيل في الكرى لجنوبنا وهل غير احشاء القبور مقيل
دع الفكر في حب البقاء وطوله
فهمك لا العجمي القصير يطول

ولا ترج ان تعطى من العيش كثرة
فكل مقام في الزمان قليل
ومن نظر الدنيا بعين حقيقة درى ان ظلا لم يزل سيزول
وفي رثاء بعض الأصدقاء يقول :

وما العيش إلا غمة وارتياحة ومفترق بعد الدنو وملتقى
هو الدهر يبلى جدةً بعد جدة
فيا لابساً أبلى طويلاً وأخلقا
فكم من عليّ فيك حلق وانهى
وكم من غنيّ نال منك وأملقا
وقال في رثاء صاحب عميد الجيوش :

(١٠) في الديوان (فما لون ذا ، وما عصر ذا)

وهل نحن إلا مرامي السهام يحفزها نابل دائب
نسر إذا جازنا طائش ونجزع إن منا صائب
ففي يومنا قدر لا بد^(١) وعند غد قدر واثب
طرائد تطلبها النائبات ولا بد أن يدرك الطالب

وفي رثاء علي بن الحسين تقيب العباسيين يقول :

تناهى بنا الآجال عن كل مدة وما تنتهي بالطالبيين المطالب
نغر بايعاد الردى وهو صادق ونطمع في وعد المنى وهو كاذب
وفي رثاء خاله أحمد بن الحسين الناصر يقول :

لنا كل يوم رنة خلف ذاهب^(٢) ومستهلك بين النوى والنوادر
وقلعة اخوان كأننا وراءهم
نرامق اعجاز النجوم الغوارب^(٣)

نوادع أحداث الليالي على شفا

من الحرب لو سالن من لم يحارب

ونأمل من وعد المنى غير صادق

ونأمن من وعد الردى غير كاذب

وما الناس إلا دارع مثل حاسر

يصاب وإلا داجن مثل سارب

إلى كم غنى بالغرور وننتهي بأعناقنا للمطعمات الكواذب

نزاع إذا ما شيك أخص بعضنا

وأقدامنا ما بين شوك العقارب

(١) اللابد : المتخفي ، وهي كلمة لا تزال مستعملة في مصر

(٢) القلعة بالضم الانقلاع ، وهو على قلعة اي على رحلة

ونسي بآمال طوال كأنما أمنيات الخطب دون المطالب

وفي تعزية أبي سعيد بن خلف عن ابنه يقول :

وأرى الناس وافراً وملقى بالرزايا والأرض داراً وقبراً

متزلي قلعة ولبت فهذا كجأزاً لنا وهذا مقراً

كل يوم ندم للهر عهداً خان فيه ونشتكي منه غدراً

قد أنيخت لنا الركائب فالها زم عباً زاداً ووطاً ظهراً

أسمع الحاديان واستعجل الركب زماعاً إلى المنون ونفراً

كم فقيد لنا طوته الليالي ذقن منه حلواً وفوقن مرا

وكان الأيام يدركن ثاراً عندنا فيه أو يقضين نذراً

إنما المرء كالثعيب تراه

يكتسي الأخضر الرطيب ليعرى

أيها السادة

اتعرفون لماذا اطلت في سردهذه الشواهد؟

إنما اطلت لأني رأيت جماعة منكم ينكرون فيما سلف ان اكرم

الاشعار التي تشهد بأن الشريف كان يعاني علة خفية ، وكانت حجتهم أن

الدرس لا يعرف الكتان ، فليفهموا في هذا المساء كيف كان يدعو إلى

انتهاج الصفو من أيام الشباب ، وستعرفون فيما بعد أنه مات في السابعة

والاربعين ، وهي مئة مبكرة جداً ، بالنسبة لرجل مثله نشأ من أسرة

كان أكثرها من العالقي .

...

وهناك جانب محزن في مراثي الشريف هو يأسه من وفاء الباكين ،

كان يقول :

كم ذاهب أبكي النواظر مدة ومضى وطاب لثقله تهويما
أو ثغر محزون تبسم سلوة والعين لما يرق بعد سجومها
وكان يقول :

من مات لم يلق من يجيا يلائمه فكن بكل مصاب غير محتفل
وكان يقول وهو يرثي الحيرة :

ووقفت أسأل بعضها عن بعضها

وتجيبني عبر بغير لسان

قدحت زفيري فاعتصرت مدامعي

لو لم يؤل جزعي إلى السلوان

ترقا الدموع ويرعوي جزع الفتى

وينام بعد تفرق الأقران

وهو مذهب قديم أعلنه أبو العتاهية إذ قال :

إذا ما انقضت يوماً من الدهر مدتي

فإن غناء الباقيات قليل

سيعرض عن ذكرى وتنسى مودتي

ويحدث من بعد الخليل خليل

ويأس الشريف من الدنيا والناس راضع على التأسى والتجلد :

صبرت عنك فلم ألفظك من شبع

لكن أرى الصبر أولى بي من الجزع

وإن لي عادة في كل نازلة أن لا تذللها عنقي من الضرع

لذلك شجعت قلبي وهو ذو كد

وملت بالدمع عني وهو ذو دفع

ماض على وقعات الدهر إن طرقت
 غدا بجمل أذاها جد مضطلع
 وحاسر يتلقى كل نائبة
 تدمي فيصبر فيها صبر مدرع
 ما غاض دمعي إلا بعد ما انحدرت
 غروبه بين منهل ومنهمع
 لولا اندفاع دموع العين غالبه
 لم يعقب الصبر دمعا غير مندفع
 في اليأس منك سلو عنك يضره
 وقبل يومك يقوى الحزن بالطمع
 وهون الوجد أن الموت مشترك
 فينا وأنا لذا الماضي من التبع
 هي الثنايا إلى الأجال نطلعها
 فن حثيث ومن راق على ظلم
 هيات لا قارح يبقى ولا جذع
 على نوائب كر الأزم الجذع^(١)
 ولكن هذا المتجلد تهتاجه اللوعة من حين إلى حين فيقول:
 لقد ذهب العيش الرقيق بذهاب
 هو الغارب المجزول من ذروة المجد^(٢)
 وإني إذا قالوا مضى لسبيله
 وهيل عليه التراب من جانب اللحد

(١) الأزم هو الدهر (٢) الغارب المجزول هو السنام المقطوع

كساقطة إحدى يديه إزاءه
 وقد جيبها صرف الزمان من الزند
 وقد رمت الايام من حيث لا أرى
 صميمي بالداء العنيف على عمد
 فلا تعجبا أني نخلت من الجوى
 فأيسر ما لاقيت ما حز في الجلد
 ولو أن رزءاً غاض ماءً لكانه
 لحفت له خضر الفصون من الرند
 ويقول :
 جوائب " أنباء وددت بانني صممت لها ما أورد مسمما
 تصامت حتى أبلغ النفس عذرة
 وما نطق الناعوت إلا لأسمعا
 بأن أبا حسان كبت جفانه
 وأخذ نيرات القرى يوم ودعا
 أعز على عيني من العين موضعاً
 وألطف في قلبي من القلب موقعا
 أكن غليلي بالضلوع ولم أجسد
 لقلبي وراء الهم منذ غاب مطلقا
 وفارقني مثل النعيم مفارقاً
 وودعني مثل الشباب مودعا

(١٥) في الديوان (جوائب)

غلا الوجد بي حتى كان لم أر الردى
يخط لجنب قبل جنبك مصرعا
فإن لم تزل نفسي عليك فإنها
ستنغد أنفاسا حرارا وأدما
فيا لائمي اليوم لا صبر بعده
فطيرا بأعباء الملامة أوقعا
ويقول :

الله نفرة وجد لست أملكها إذا تذكرت إخوان الصفاء معي
يواصل الحزن قلبي كلما فجمت
يدي بحيل من الأقران منقطع
ما لليالي يرتقن الحاجة من شري
ويوبين مصطفي ومرتبمي
عدت عوادي الردى بيني وبينكم
وأنزلتك النوى عني بمنقطع
وشئت شملك الأيام ظالة فشملي دمعي ولي غير مجتمع
أخي لا رغبت عيني ولا أذني
من بعد يومك في مرأى ومستمع
وما هذه أشعاراً ، إن هي إلا أنفاس حرار
أيها السادة

كان الشريف من كرام الأوفياء ، ومراييه أصدق شاهد ، وقد
حدثكم من قبل أنه كان يفي لأصدقائه فيرثيهم يوم الموت ، وبعد أن
يطول عهدهم بالموت ، ونحدثكم الآن أنه صنع مثل هذا الصنيع مع بهاء

الدولة ، فقد رثاه بالكافية التي سمعتموها من قبل ، وبعد أن مر على موته
ثمانية عشر شهراً حن إليه فقال :

أظن الليالي بعدكم ستريح فلم يبق لي من رائع فتروع
خذي عدة الصبر الجميل فانه لكل نزاع يا أميم تزوع
وقد كنت أبكي للأحبة قد أني
لقلبي سلو واطمان ولوع
ولكننا أبكي المكارم أخليت منازل منها للندى وربوع
وهل أنا جاز ذلك العهد بالبكا

ولو أن كحل الماقين نجيع



إلى آخر القصيدة .

مرکز تحقیقات و ترویج علوم و فنون

أيا السادة

لم يبق إلا أن نشير إلى أروع مرآثي الشريف ، وأروع مرآثيه اثنتان :
العينية :

منابت العشب لا حام ولا راع
مضى الردى بطويل الرمح والباع
والرائية :

ألقي السلاح ربيعة بن نزار أودى الردى بقريعك المغوار
والعينية من غرائب المرآثي ، والشاعر يجلجل فيها جلجة قوية ،
تشهد بقدرته الفائقة على افتراع المعاني ، وانظروا كيف يقول :

منابت العشب لا حام ولا راع
مضى الردى بطويل الرمح والباع

القائد الخبل يرعيها شكائها
 والمطعم البذل للديمومة القاع^(١)
 من يستفز سيوفاً من مغامدها
 ومن يجلل نوقاً بين أنساع^(٢)
 يسقي أسنته حتى تقيء دماً
 ويهدم العيس من شد وإيضاع
 ما بات إلا على هم ولا اغتمضت
 عيناه إلا على عزم وإزماع
 خطيب الجمعة تغلي شفاشقه
 إذا رموه بأبصار وأسماع
 لا أتاني نعي من مرزوق بلادكم
 عضت كفي من غيظ على الناعي
 أبدي التصامم عنه حين أسمعه
 عمداً وقد أبلغ الناعون أسماعي

وأما الرائية فهي من غرائب الشعر الجزل ، وقد شرحها ابن جنى
 في حياة الشريف ، واهتمام الاستاذ بشرح قصائد تلميذه من أطايب البر
 والرعاية ، وقد عرف التلميذ لاستاذه هذا الفضل فدحه وراثه ، وكان
 يعبر عنه في مؤلفاته بعبارة (قال شيخنا أبو الفتح) .
 وانظروا كيف ابتدأ الشاعر هذا القصيد :

(١) الديمومة : الفلاة الواصلة

(٢) الأنساع جمع نسع بالكسر وهو سير تشد به الرحال

ألقى السلاح ربيعة بن نزار
 أودى الردى بقربك المغوار
 وترجلى عن كل أجرد سابح
 ميل الرقاب نواكس الأبصار
 ودعي الاعنة من أكفك انها
 فقلت مصرفها ليوم مفار
 وتجنبي جرّ القنا فلقد مضى
 عنهن كبش الفيلق الجرار
 وليغد كل مغرض من بعده
 مغرى بحل معاهد الاكوار
 قطع الزمان لسانك العضب الشبار
 وهذا تخمط فحلك الهدار
 واجتاح ذاك البحر يطفح موجه
 وطوى غوارب ذلك التيار
 اليوم صرحت النوائب كيدها
 فينا وبان تحامل الاقدار
 مستنزل الاسد الهزير برعه
 ولّى وفالق هامة الجبار
 وتعطلت وقفات كل كريمة
 أبداً وحط رواق كل غبار
 أيها السادة

قد رأيتم ألواناً من عواطف الشريف في مراثيه ، ورأيتم كيف
 صورت تلك المراثي فهمه لقيمة الحياة ، ورأيتم كيف كان يتجلد وكيف
 كان يرتاع .

وما أحسبني في حاجة إلى النص على قوة الشاعرية في مرثي الشريف .

ويهمني أن أذكركم بأن تلك المرثي جمعت خصائص الشائل العربية أو ما كان يتصور الشريف من الشائل العربية ، والرجوع إليها في الديوان يفتح أمامكم باباً من فهم النفوس والقلوب والعقول ، ويفريكم بالتطبع والتخلق بما كان عند أسلافنا الاقوياء من طباع وأخلاق .

ما كان الرثاء عند أسلافنا بكاء ونواحاً ، وإنما كان تسجيلاً لخلائق الابطال ، وتذكيراً بما يجب أن يتخلق به الرجال .



مركز بحوث ودراسات في اللغة والأدب العربي

قصيدة الوداع

وقف الشريف على منازلہ قبل أن يموت بنحو عام واحد فقال:
 أمل من مثانيها فهذا مقيلها وهذي مغاني دورهم وطلوها
 حرام على عيني تجاوز أرضها ولم يرو أظماء الديار هوها
 وقد خالطت ذاك الثرى نفحاتها

حقوف رمال ما يخاف انيهاها وأغصان بان ما يخاف ذبوها
 إذا ما تراءها اللوائم ساعة فأعذرها فيمن يحب عدوها
 رضينا ولم تسمح من النيل بالرضا

ولكن كثير لو علمنا قليلها
 شموس قباب قد رأينا شروقها
 تعالين عن بطن العقيق تيامناً
 يقومها قصد السرى ويميلها
 فهل من معيري نظرة فاريكها
 شرقي نجد يوم زالت حولها
 كطامية التيار يجري سفينها
 أو الفاج العلياء يهفو نخيلها
 ولم تر إلا ممسكاً بيمينه
 رواجف صدر ما يبيل غليلها
 ومختنقاً من عبرة ما تزوله
 ومختبطاً في لوعة ما يزوها
 محابعدكم تلك العيون بكأوها
 وغال بكم تلك الاضالع غوها

١٥ الفلج جمع فلجة بالضم ، من الفلج وهو شق الأرض للزراعة

فمن ناظر لم تبق إلا دموعه ومن مهجة لم يبق إلا غليلها
دعوا لي قلباً بالفرام أذيبه عليكم وعيناً في الطلول أجيلها
سقاها الرباب الجون كل غمامه

يهش لها حزن الملا وسهولها^(١)

نجائب لا يودي بأخفافها السرى

وإن طال بالبيد القواء ذميلها

فكم نفحة من أرضها بردت حشا

وبلّ غليلاً من فؤاد بليها

منازل لا يعطي القيادة مقيمها مغالبة ولا يهان تزيلها
خليليّ قد خف الهوى وتراجعت

مزل إلى الحلم نفس لا يعز مزيلها

فلست ابن أم الخيل إن لم أمل بها

عوابس في دار العدو أيلها

إذا انجفلت من غمرة ثاب كرها

وعاد إلى مرّ المنايا جفوها

يزعفر من عض الشكيم لعابها

ويرعد من قرع العوالي خصيلها^(٢)

ونحن القروم الصيد إن جاش بأسها

تغودر مرعى ذودها ومقيلها

بأيماننا بيض الغروب خفائف نغول بها هام العدا وتغولها

«١» الرباب الجون : السحاب الأسود

«٢» الخصيل على وزن امير هو الذنب - بالتحريك -

تفلان حتى كاد من طول وقعها
بيوم الوغي يقضي عليها فلوها
قوائم قد جربن كل مجرب
بضرب الطلي حتى تفانت نصولها
وأودية بين العراق وحاجر بييض المواضي والعوالي نسيها
يعدّ بدفاع الدماء غناؤها
ويجري بأعناق الرجال حميلها^(١)
إذا هاشم العلياء عب عباها
ومالت باطناب البيوت سيوها
مدفعة تحت الرجال ركابها
مرفوعة برؤسها تحت ربي اللبود خيوها
رأيت المساعي كلها وتلاحقت
فروع العلا مجموعة وأصولها
إذا استبقت يوماً تراخي تبعها
وخلّى لها الشاو البعيد رصيلها^(٢)
وإما أحالت للطعان رماحها
وشن عليها للقاء شليلها^(٣)
فتم عوال ما ترد صدورها
وتم حماة الذائدون عن الحمى
عشية لا يحمي النساء بعولها
أبي ما أبي لا تدعون نظيره
رديف العلامن قبلكم وزميلها

١٥ الحميل هو من السيل الغشاء ٢٥ الرسيل : المراسل

٣٥ الشليل : الدرع الصغيرة

هو الحامل الأعباء كل مطيقها
وعج عجيح الموقرات حمولها
- طويل نجاد يجتي في عصابة
يفرعا مستعليا ويطولها
إذا صال قلنا أجمع الليث وثبة
وإن جاد قلنا مد من مصر نيلها
حلیم إذا التفتت عليه عشيرة تطاطا له شبانها وكهولها
وإن نعة يوماً أمالترؤوسها أقام على نهج الهدى يستميلها
وأنظرها حتى تعود حلومها
وأملها حتى تشوب عقولها
ولم يطوها بالحلم فضل زمامها
فتعثر فيه عثرة لا يقيلها
فمن باسمه المرهوب يرمي عدوها
ومن ماله المبدول يودي قتيلا
أكبرنا والسابقون إلى العلا
ألا تلك أساد ونحن شبولها
وإن أسوداً كنت شبلأ لبعضها
لمحقوقة أن يذل قتيلا
وهذه القصيدة على قوتها ليست إلا زفرة شاعر مودع ، ولا سيما
هذه الأبيات :
محا بعدكم تلك العيون بكاؤها
وغال بكم تلك الاضالع غولها

فمن ناظر لم تبق إلا دموعه
 ومن مهجة لم يبق إلا غليلها
 دعوا لي قلباً بالغرام أذيبه
 عليكم وعيناً في الطلول أجيلها
 ونقل صاحب التبيان أن أبا الحسن النحوي قال : دخلت على السيد
 المرتضى طاب ثراه يوماً وكان قد نظم أبياتاً فوقف به بحر الشعر فقال :
 خذ هذه الأبيات إلى أخي الرضي وقل له تمها ، وهي هذه :
 سرى طيف سلمي طارقاً فاستفزني
 سحيراً وصبغني في الفلاة رقاد
 فلما انتبهنا للخيال التي سرى
 إله الأرض فقرر المزار بعيد
 فقلت لعيني عاودي النوم واهجمي
 لعل خيالاً طارقاً سيعود
 قال : فأخذتها ومضيت إلى السيد الرضي وأعطيته القرطاسة فلما
 رآها قال : عليّ بالمحبرة ، وكتب :
 فردت جواباً والدموع بواذر
 وقد آن للشمل المشت ورود
 فبهيات من ذكرى حبيب تعرضت
 لنا دون لقياء مهامه بيد
 فاتيت بها إلى المرتضى ، فلما قرأها ضرب بعمامته الأرض وبكى .
 وقال : يعز عليّ أخي ، يقتله الفهم بعد أسبوع . فما جاء الأسبوع إلا
 وجاء نعي الرضي ومضى إلى سبيله .

وهذه نادرة يستبدها الناس ، ولكنها طريفة ، إذ تجعل موت
الشريف بالشعر شبيهاً بحال من يخنقه أرج الأزهار فيموت .
وكانت وفاته رحمه الله في أوائل المحرم سنة ٤٠٦ وورثه أخوه
المرتضى فقال :

يا للرجال لفجعة جزمت يدي وددتها ذهب علي براسي
ما زلت أبي وردها حتى أتت فحسوتها في بعض ما أنا حاسي
ومطلتها زماً فلما صمت لم يثنها مطلي وطول مكاسي
لا تنكروا من فيض دمعي عبرة

فالدمع خير مساعد ومواس
واهاً لعمر ك من قصر طاهر ولرب عمر طال بالأرجاس
ورثه تلميذه مهيأ بقصيدة يحفظها أكثر الأدباء
أقرش لا لقم أراك ولا يد
فتواكلي غاض الندى وخلا الندي
ورثته أنا بقصيدة طويلة جداً ، هي هذا الكتاب .

المراجع

شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد

المجازات النبوية للشريف الرضي

مختار رسائل الصابي (طبعه الامير شكيب ارسلان)

ترجمة الشريف للاستاذ عبد الحسين الحلي (المنشورة تصديراً لكتاب

حقائق التأويل)



يخيمة الدهر للثعالي

الاعلام للزركلي

تجارب الامم لابن مسكويه (طبع القاهرة بعناية مرجليوث)

تاريخ ابن الاثير (الجزء التاسع)

النثر الفني

مختصر تاريخ بغداد للاعظمي

الموازنة بين الشعراء

القاموس المحيط للفيروزابادي

معجم البلدان لياقوت

تلك المؤلفات هي أهم ما رجعنا اليه للاستئناس او الاستشهاد أو

التحقيق، وهناك مراجع ثانوية قد نكون أشرنا اليها في الهوامش .

قوافي الجزء الثاني

ص	(حرف الهززة)	ص
١١٤ ولبين وعد ليس فيه كذاب	١٩ بجد السيف قربي الاقرباء	
١٦٦ فقلت وهل قبل الثلاثين ملعب	٣٤ وإن لا كله داء عياء	
١٧٢ ألقته بنى ورحت سلبيا	٧٦ لو كنت آمل للوداع لقاء	
١٧٤ وبين البيض والبيض الحروب	٧٩ وسرتها متجملا برداني	
١٧٤ جميعاً ثم راجعني وثاباً	١٤٢ وقفات الركائب الأنضاء	
١٨٢ وذاكر تصاب والمثيب نقاب	(حرف الباء)	
١٨٩ أسير وما نجد إلي حبيب	٤ لا يستطيل عليه هاب	
٢٠١ رفيقين تكسونا الدياجي ثيابها	٨ نار على قلبي تشب	
٢١٦ يحفزها نابل دائب	٩ يقل على معارضة الخطوب	
٢١٦ وما تنتهي بالطالين المطالب	١٣ ووشك ان يكون لها الغلاب	
٢١٦ ومستهلك بين النوى والنوادر	١٨ مقام البدر تنبعه الكلاب	
(حرف التاء)	١٩ بني عننا بعض هذا الغضب	
١٤٤ يجزع السمرات	٣٩ دعوت ابن حمد دعوة فأجابها	
(حرف الجيم)	٨١ رمى قادح الأيام في الغصن الرطب	
٤٤ يجارية أمسى بها القلب يلهج	١٠٧ سقامي وما ينفي الاطباء في الحب	
٦٥ اذا رزه من الحدتان فاجا	٩٦ هباب المطايا نصها وانجذابها	
٦٩ ويأبى دمعا الا لجاجا	١٠٠ حبست برامة صحبتي وركابي	
(حرف الحاء)	١١٥ ووقرن جأشي بالامور الغرائب	
٣٥ والذل ما بين الأبعاد اروح	١١٧ بنيمان يزكو تربه ويطيب	
١٧٣ ولنفرك الخلق الكرم الاسجح	١٠٦ غزيتا مر على الركب	
١٧٤ يغدو عقالا لذي القلب الذي طمعا		

(حرف الدال)

ص	ص
١١٩ واصبى الى لثم الحدود النواضر	٤ وهأنا في حلية الامرء
١٢٠ تغازل طرفي عن عيون الجأذر	١٢ قد كنت آمل يومه لغد
١٢١ كانت نتيجة صبر عاقر الوطر	٣٠ وأعدى اقتراب الوصل مناعلى البعد
١٠٨ وذنّب من لام ظلماً غير مغتفر	٣٢ عتاب اخ قل الزمان به حدي
١٢٢ أزري وضامنة العفاف مآزري	٥٨ أرايت كيف خبا ضياء النادي
١٤٢ عيناً لفيرك دمعها مدرار	٨٣ بقلته ولا عيناً جماداً
١٤٨ اليكن لي لا جازكن ندى القطر	٨٩ وجعلت هجرك والتجنب زادي
١٧١ والغض من ورق الشباب الناضر	٩٤ ودون المطايا مريخ وزرود
١٩٥ وفعله أبدأ عار من العار	١٤٥ فلاقي بها ليلا نسيم ربا نجد
٢٠٦ والموطنون منك الديارا	١٤٧ وقالوا النقا بيننا موعد
١٧٤ ونحن فواضر سود الشعور	٢٣٠ سعيراً وصحبي في الفلاة رقود
١٧٧ ان المشيب لذنب ليس يفتفر	٢١٩ هو الغارب الممزول من ذروة المهد
٢١٧ بالرزايا واراض داراً وقبرا	
٢٢٤ اودى الردى بقريعك المغوار	

(حرف الراء)

(حرف الزاي)	
٨٢ بأضالمي قرعاً ووخزا	٦ في حيث ليس من اللورى لك جار
(حرف السين)	٧ وتعتق منها رق كل أسير
٦ ومجدد المعروف ان درسا	١٦ كفيت ولم تعقر بناب ولا ظفر
٧٧ مضى غير رعيد الجنان ولا نكس	١٩ امسكت عنه بلا عي ولا حصر
١٥٥ إذا نظرت فلم ابصرك في الناس	٣٥ فلي من يد المولى وان ذل ناصر
٢٢١ ووددتها ذهبت علي براسي	٧٣ مطال وقد عاتبت لو سمع الدهر
	٩٢ الا وهتك لي شوقاً استره
	٩٣ ألا حر على عرض يغار

(حرف الصاد)

ص

٦٥ يروضها والحيل والدلاص

(حرف الضاد)

٢٥ ودانيت من تقضي الديون ولا يقضي

٩٣ وسربال طاهيهم ابيض

(حرف العين)

١٥ ونفسي اعدى لي من الناس اجما

٢٠ وقد ودّ لو أن العقار نجيع

٨٣ وغالط العيش لا صبر ولا جزع

٨٩ ألم الجوى من قلبي المصدوع

٩٣ وتقيء عند سماعه الامماع

٩٣ بعد نزاع الى تزوع

١٢٢ علينا عيون للنهى ومسامع

١٥١ متى عهده بسكان ملح

١٧٦ بياضاً كأن الشيب عندي من البدع

٢١٨ لكرأرى الصبر اولى بي من الجزع

٢٢٠ صممت لها ما اروق العود مسما

٢٢١ اذا تذكرت اخوان الصفا معي

٢٢٢ فلم يبق لي من رائح فتروع

٢٢٢ مضى الردى بطويل الرمح والباع

(حرف الفاء)

٢٠ واين بنزع كفي وانكفافي

٥٠ جائر عن قضاء حق الشريف

ص

٥٠ وصدود عنا لكم وصدوف

١٧٢ وعاذر شبيه التهام والاسف

١٧٦ تفويف ذي الايام لا تفويفي

(حرف القاف)

٤ وما لي من بين الانام صديق

١١ على جماعتنا وضاقا

١٣ قل لي فاما حاسد او مشفق

٣٤ وما زادني القرب الا اشتياقا

٤٥ تعودت منها ان تقول فتصدقا

٤٦ واجريت في ذا الهندواني رونقا

٦٣ حبيت قبرك يا ابا اسحاق

٦٧ ان ابن ليلى علقته علوق

٩١ بها لو ان الليل باقى

٩١ جميعاً والليل ملقى الرواق

٩٦ مبتدعها فشكرنا العراقا

١٢٦ خفيف الروح مصقول أنيق

١٤١ حاجة للمعذب المشتاق

١٧٥ ومن لي ان يبقى بياض المفارق

١٩٦ وما شككت بأني سوف أغتبق

٢٠٥ نصب مسيل العارض البعاق

٢١٥ ومفترق بعد الدنو وملتقى

(حرف الكاف)

٩١ اظنه ذني اليكا

١٠٠ اي قلب جنا عليه جنا كا

١٣٦ ليهنك اليوم ان القلب مرعاك

(حرف اللام)

٧ جنى دونكم الرمل

٣٦ من الضراء ما لقيت شهالي

٧٧ ومثل يومك لم يخطر على بالي

٨٠ ان البكاء بقدر الحادث الجلل

٨٨ او ما الى شقي بالتقبيل

١٠١ الى الجزع من وادي الاراك سبيل

١٠٤ وان تملك البيض الحسان عقالي

١٧٠ قد آن للذابل ان يختلي

١٨٦ سلام لا الراضي ولا الجاذل

١٩٨ بين الضائر والمعول

١٩٨ لا يدي العيس واضمة الرحال

٢٠٥ ومسمومة تترى الى القلب نبه

٢١٣ وتنقضى وكان العمر لم يطل

٢١٤ وكم يبقى الرمي على النبال

٢١٥ ويشفى بأسراب الدموع غليل

٢١٨ فان غناء الباكيات قليل

٢٢٦ وهذي غناء دورم وطلوها

(حرف الميم)

٥ وكان لنا البقي سلك نظام

١١ مراراً وقلبي وادع لا يذمه

١٤ بعض العتاب على الاخلاص منهم

٣٥ على عظم داء بيتنا متفاقم

٣٧ ويقطع العضو الكريم للألم

٣٧ ابي بعد طول الغمز ان يتقوما

٣٩ تباريح قلبي خالياً وخرامي

٧٠ لقد عكفت على لحم كريم

١٠٤ ورفت عليه قلوب الامم

١٠٦ وجوه عليها نضرة ونعم

١٠٩ رأيتكما في القلب والعين توأما

١٣٤ غزالا رمى قلبي وراح اثيا

١٥٧ سقى زمانك مطال من الدم

١٧١ كما افتقر طفل الروض عن اول الوصي

١٧٥ سقيني الطرق بعيد الجمام

١٨٢ اذا طال عمر او فناء يعمه

١٨٤ فاذهبنا حيث شئتنا بزمامي

١٩٦ فما يحظى بها الى نديمي

٢٠٢ على السيف لا تخطو اليه المظالم

٢١٢ نوب اراقم لا يبيل سليمان

(حرف النون)

١٣ لعظيم ما ألقى من الخلان

٢٦ ما تصنعون بأخلاق تنافيني

٣٧ الا مفيظاً علي مضطفنا

٥١ لها ارجل يسمى بها رجلان

٥٢ فناسى اذا ما زلت القدمان

٥٣ ولكن دهاني بالزمانة ذا الزمن

٥٤ عن حنو قلب سلم السر والعلن

٧٢ يزبل بها للشك المريب يقين

٨٧ ضجيمان لي والسيف ادناهما مني

١٠٠ ارقن دما وما رمن الجفونا

١٠٠ تقضى اواني في الصبا واونها

١٠٣ حيت فيك غزالا لا يعييني

١٠٥ تطاعن بالدمالج والبرينا

١١٠ على ضني به ليضيع ديني

١١٤ وانا المشوق وما يبين جناني

١٣٣ عيون ظباء بالمدينة عين

١٨٧ وبني الى الدار اطناب واشجان

١٩٧ والرئيس صاد وريان

٢٠٧ حق نزلت منازل النعمان

١٥٦ بين اعلام النقى والمنحنى

٢٠٩ وتجبيني عبر بغير لسان

(حرف الهاء)

١٣٠ جلاء العين مني بل قذاها

١٥١ لبياء يقتلني لماها

(حرف الباء)

١٨ حبت عن العوراء فضل لسانيا

١٦١ اقنابه تنمي الندى والمعاليا

١٦١ تحلون من بعدي المقيت اليابانيا

اعلام الجزء الثاني

طه حسين ١٦٦	احمد امين ١٨١
طلعت حرب ١٢٦	احمد راسم ٢٦
ابن عباد (الصاحب) ٤٨	الازمي ٥
عبد الله بن علي ٤١	اسماعيل صبري ٢١٠
ابو العتاهية ٨٥	الاعشى ١٤٠ ، ١٤٠
عضد الدولة ٤٣ ، ٤٣ ، ٤٤	ايوب ١٨٣
علي بن ابي طالب ١٢٨	البتي (ابو الحسن) ١٠ ، ٩ ، ٨ ، ٥
عمر ابن ابي ربيعة ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٦٧	البتري ١٢٠ ، ٨٥ ، ٥٧
عمر الحيام ١٦٨	بختيار ٤٢
عمر بن العلاء ١٤٠ ، ١٤٠	بهاء الدولة ٢٢١
ابن الفارض ١٩٥	بيرون ١٥٤ ، ١٦٨
القادر بالله ١٢٨	ابن جني ٢٢٣
لامرتين ١٦٨ ، ١٨٣	جوت ١٥٤
ليبد ١٤٠ ، ١٤٠	ابن حمد ٣٩
ابن ليلي ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١	ابن الرومي ١١٠
ماسينيون ١٦٦	السري الرفاء ١٩٥
المتوكل ٥٧	السلامي ١٩٦
محمد بهجت الاثري ١٩٥	شلي ١٦٨
محمد بن الحسن بن صالح ٢١١	شوقي ١٩٤
عمود سعيد ٢٦	الصابي ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ، الى ٦٤
التصور ٤١	الطائع ٤٢
الموسوي (ابو احمد) ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٤	المرتضى ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٤ ، ٢٤ ، ٣٠
ميسيه ١٥٤ ، ١٦٨	٢٣٠ ، ٢٣١
النحوي (ابو الحسن) ٢٣٠	المطيع لله ٤٠ ، ٤١
ابو نواس ٨٥ ، ١١٨	ابن المعتز ٨٥
يزيد بن عبد الملك ١٥١	ابن المقفع ٤١
	المنذر بن ماء السماء ٢٠٦

استدراك

مرت إشارة في الصفحة السابعة والسبعين إلى قصيدة

ما بعد يومك ما يسلوبه السالي ومثل يومك لم يخطر على بالي

وقلنا انها في رجل كانت له شخصية ولا نعرف السبب في طي اسمه

عن الناس .

ولكننا في الجزء الاول قررنا ان هذه القصيدة قالها الشريف في رثاء

الطائع ، فليعرف القراء اننا استندنا في هذا الحكم على ابن الاثير فقد

اشار إلى ان الشريف قال هذه القصيدة في رثاء الطائع ، وعبارة ابن

الاثير توضح ما أبهم الديوان .

حائز الليسانس في العلوم الفلسفية والأدبية

والدكتوراه في الآداب « من الجامعة المصرية »

ودبلوم الدراسات العليا في الآداب « من مدرسة اللغات الشرقية في باريس

والدكتوراه في الآداب « من جامعة باريس »

ثم الدكتوراه في الآداب « من الجامعة المصرية »

والمفتش بوزارة المعارف المصرية

واستاذ الادب العربي بدار المعلمين العالية في بغداد

فهرس الجزء الثاني

	ص
الاصدقاء والاعداء في حياة الشريف	٢
أسرار العلائق بين الرضي والصابي	٢٩
غرائب الوفاء عند الشريف	٦٥
غراميات الشريف الرضي	٨٥
وصف السود الملاح	١٠٨
عفاف الشريف <small>تحت إشراف دكتور محمد عبد الوهاب</small>	١١٢
حجازيات الشريف	١٢٤
بكاء الشباب	١٦٥
الشاعر الوصاف	١٩٥
مراثي الشريف	٢١١
قصيدة الوداع	٢٢٦
المراجع	٢٣٢
قوافي الجزء الثاني	٢٣٢
أعلام الجزء الثاني	٢٣٨